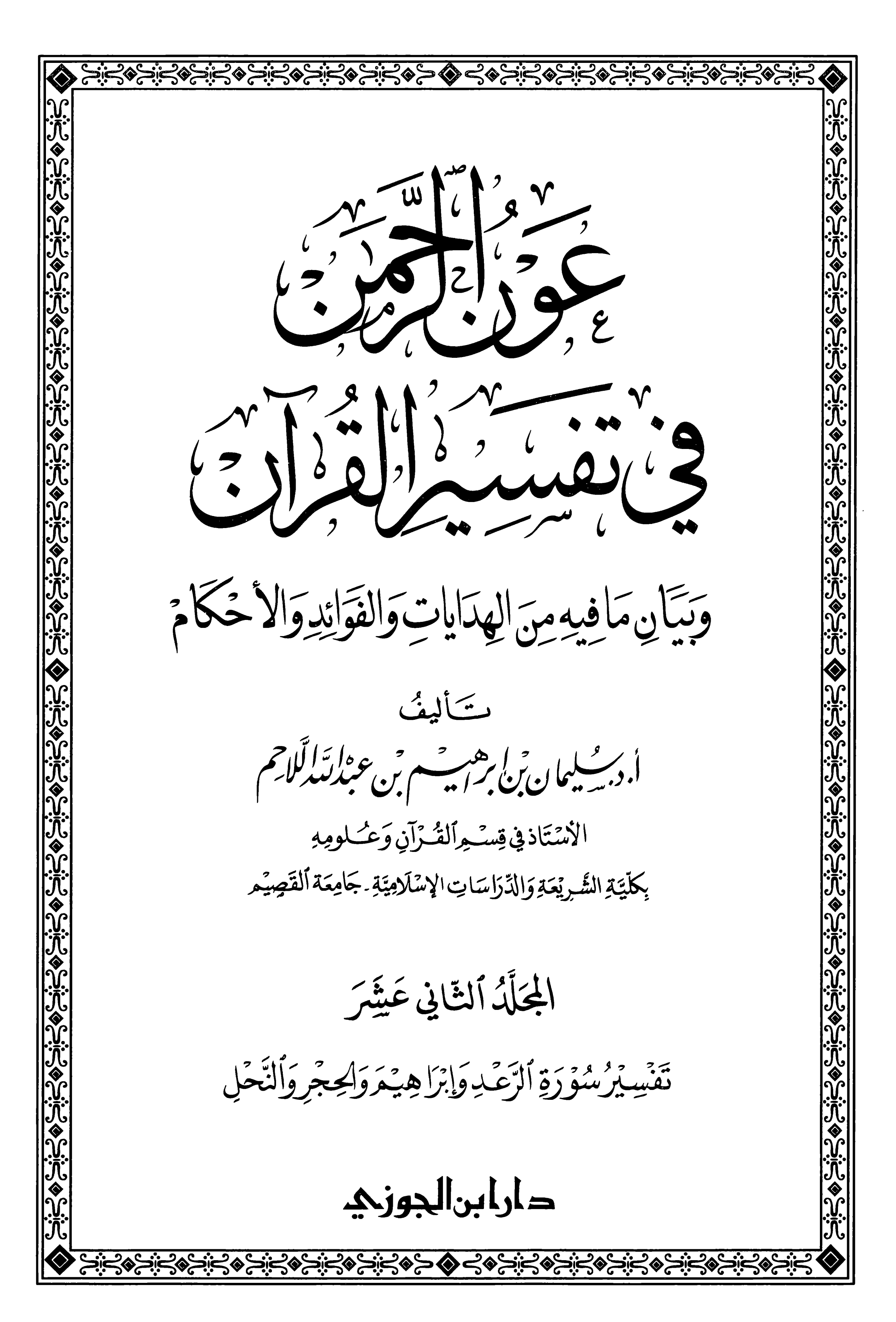


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

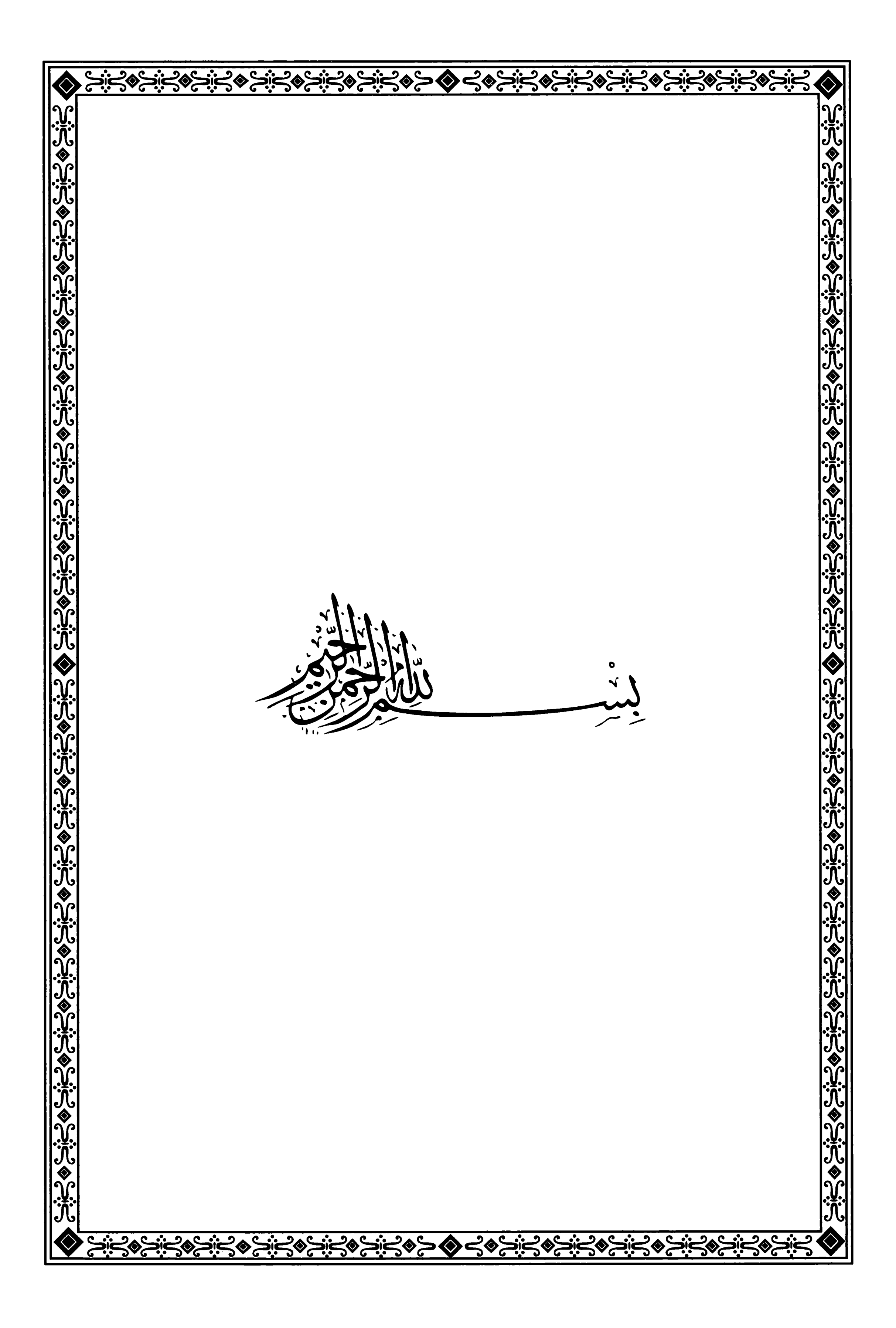
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

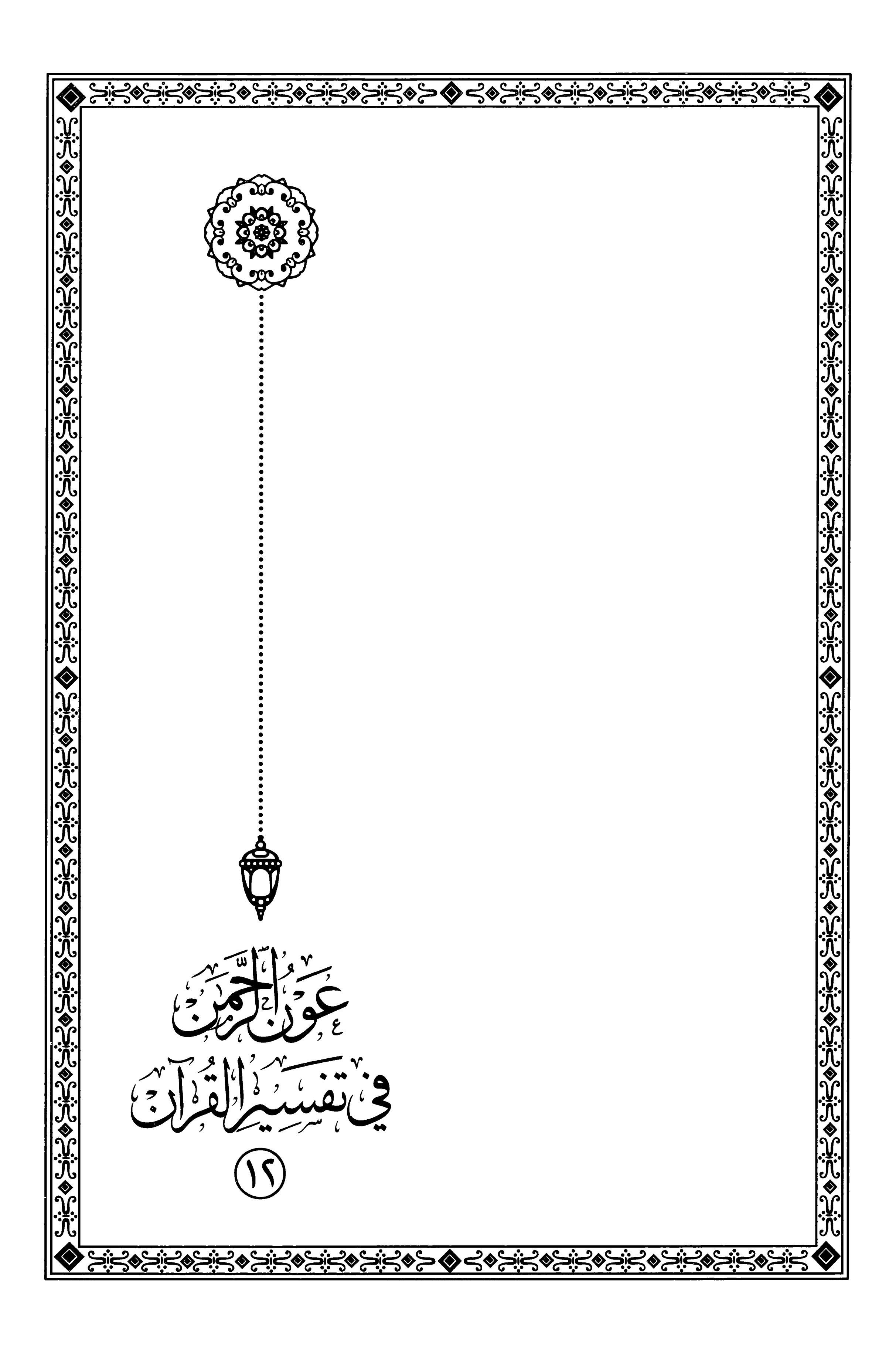
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثاني عشر

تفسير سورة الرعد وإبراهيم والحجر والنحل

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



عون الرحمن في تفسير القرآن

(١٢)



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم .- الدمام، ١٤٤١هـ

٥١٨ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

أ. العنوان

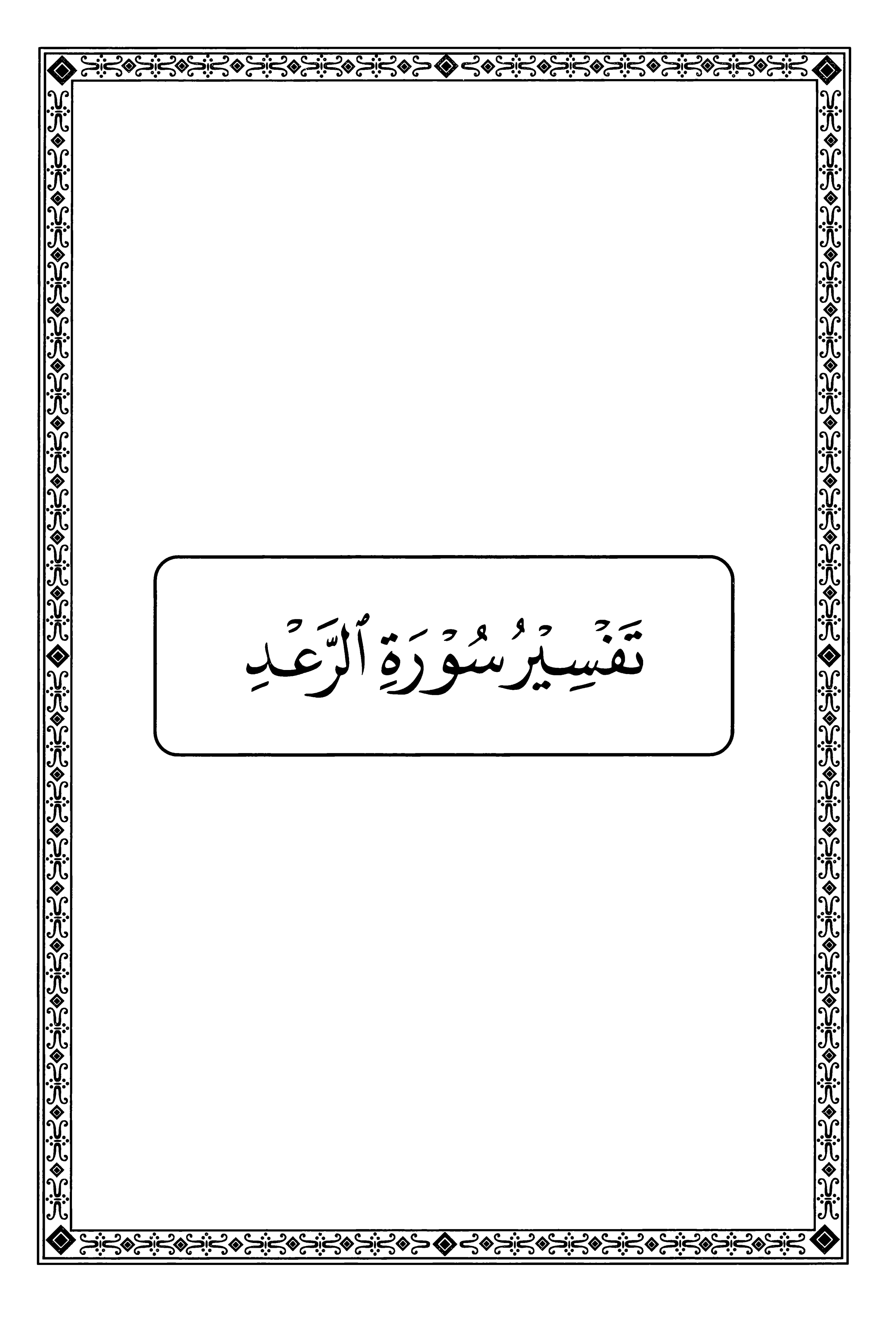
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

الطبعة الأولى

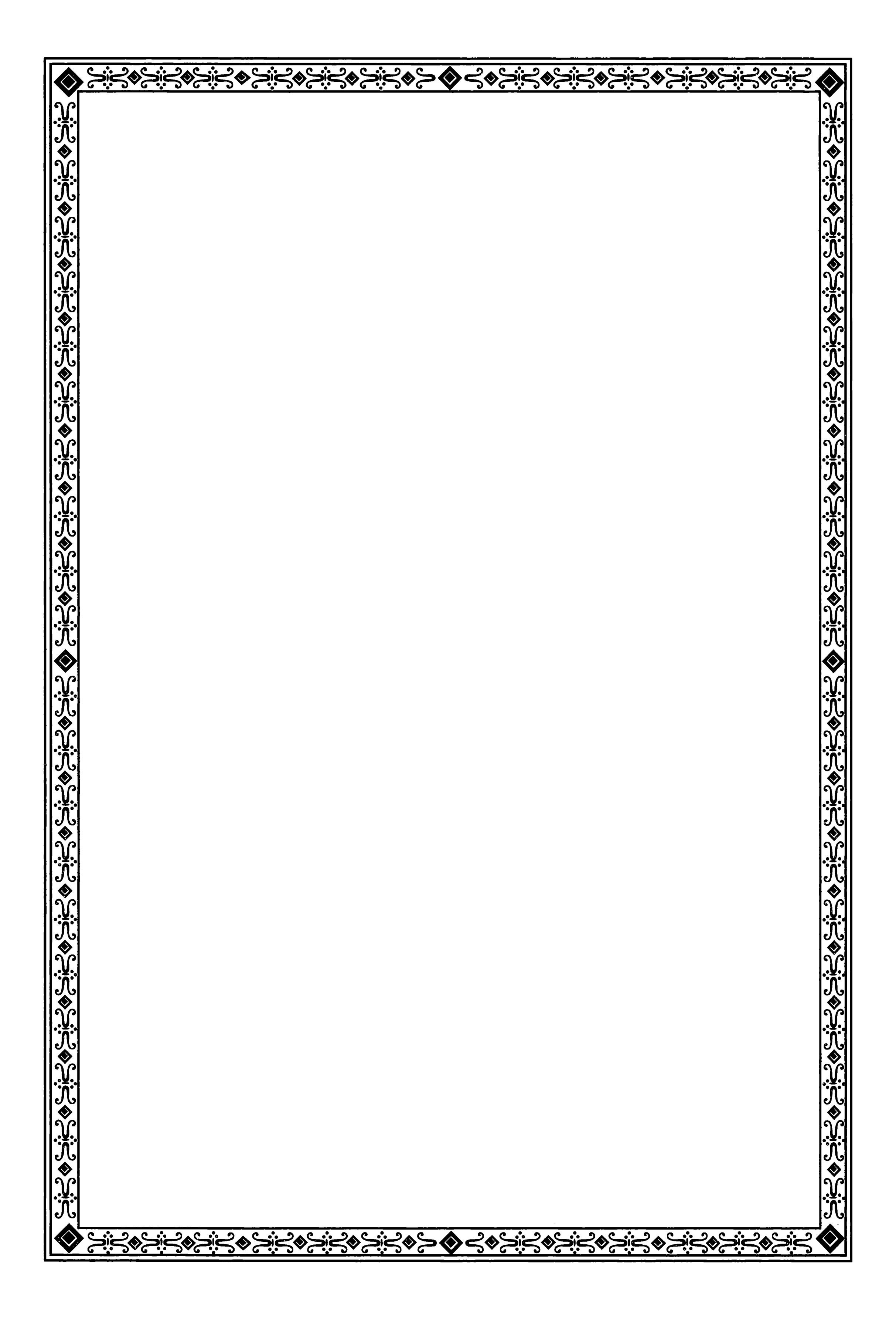
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958





تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلرَّعۡدِ



المقدمــة

أ- اســم الســورة:

سمِّيت «سورة الرعد» بهذا الاسم؛ لذِكر الرعد فيها في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الآية: ١٣].

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة الرعد في مكة في أظهر وأشهر أقوال المفسرين، وهو الذي يؤيده ما تناولته آياتها من الاستدلال على وحدانية الله تعالى وتمام قدرته، ومن تسلية النبي ﷺ تجاه ما لقيه ويلقاه من قومه.

وقيل: بعضها مدني، وقيل: كلها مدنية.

ج- موضوعاتها:

تدور موضوعات السورة على المحاور التالية:

أ- إقامة الأدلة المتنوعة على كمال عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ونعمته وحكمته، وإثبات ربوبيته وإلهيته.

ب- إثبات عظمة القرآن الكريم، وأنه الحق من عند الله، وشهادته عز وجل بصدقه، والرد على المكذبين في تعنتهم وطلبهم آياتٍ غيره.

ج- تسليته ﷺ وتثبيت قلبه تجاه أذى قومه وتكذيبهم له، بذمهم بما هم عليه من الكفر وسيئ الأقوال والأحوال، وما ينتظرهم من سوء المآل، كالذين مضوا من قبلهم، وفيما يلي تفصيل لذلك:

١- افتتح الله عز وجل سورة الرعد بتعظيم القرآن الكريم، كما هو الشأن في كثير من سور القرآن الكريم: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

٢- ثم استدل عز وجل على كمال عظمته وحكمته ونعمته، وتمام قدرته في آياته في الكون؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا وتسخيرًا، وتفصيلًا للآيات، وإخراجًا للثمرات، وإدرارًا للنعم والخيرات: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ

تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

٣- ثم تعجب من إنكار المشركين بعثهم بعد كونهم ترابًا؛ مؤكدًا كفرهم بربهم، ومتوعدًا لهم بالأغلال في أعناقهم والخلود في النار: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥﴾﴾.

٤- ذم المشركين والمكذبين في استعجالهم السيئة والعقوبة قبل الحسنة والنعمة؛ إمعانًا منهم بالتكذيب، وقد خلت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، وبيان أنه سبحانه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، يمهل ولا يهمل، وهو شديد العقاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾.

٥- ذم الذين كفروا بذكر اقتراحهم أن ينزل على النبي ﷺ آية من ربه؛ عنادًا منهم وتكذيبًا لما جاءهم به من الآيات، وبيان أن مهمته ﷺ الإنذار.

٦- بيان سعة علمه وحكمته في قضائه وقدره، وعظيم سلطانه عز وجل، وإحاطته بكل شيء؛ من الدقيق والخفي، والغيب والشهادة، والسر والجهر ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

٧- تأكيد كمال عظمته، وتمام قدرته ونعمته، وشدة حوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

٨- بيان أنه له عز وجل دعوة الحق خاصة، والذي يجب إفراده بالعبادة وحده لا

شريك له، وبيان ضعف وبطلان ما يعبد من دونه، وانقياد جميع المخلوقات له عز وجل: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

٩- بيان أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتقريع المشركين في اتخاذهم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وبيان مثل الحق والباطل؛ فالباطل كالزبد يذهب جفاءً، والحق مثل ماء المطر الذي يمكث في الأرض فينفع الناس: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

١٠- بيان ما أعده عز وجل للذين استجابوا لربهم من النعيم، وما أعد للذين لم يستجيبوا له من العذاب الأليم: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

١١- بيان أنه لا يستوي المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فلا يستوي من يعلم أن ما أنزل على النبي ﷺ هو الحق ومن هو أعمى، ولا يستوي أولو الألباب الذين يتذكرون ويوفون بعهد الله ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾، لا يستوي هؤلاء مع الذين ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

١٢- بيان أن الأرزاق بيده- عز وجل، يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء؛ لحكمة يعلمها، فلا ينبغي أن يفرح من أوتي الدنيا؛ فما هي في الآخرة إلا متاع:

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾.

١٣- تأكيد ذم الكافرين في اقتراحهم أن ينزل على النبي ﷺ آية من ربه؛ لكفرهم بما جاءهم به من الآيات، وعدم اعتدادهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾.

١٤- الثناء على الذين آمنوا وامتداحهم باطمئنان قلوبهم بذكر الله الذي به طمأنينة القلوب، وعمل الصالحات، ووعدهم بالجنة وحُسن المآب: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾.

١٥- بيان أن مهمته ﷺ تلاوة وإبلاغ ما أوحاه الله تعالى إليه، وأمره بتقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته والتوكل عليه والإنابة إليه: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)﴾، وبيان أن لله الأمر جميعًا، فله الحكمة في الهداية والإضلال، والثناء على القرآن الكريم، لكن من لم يرد الله هدايته لا ينفعه القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾.

١٦- تسليته ﷺ تجاه ما يلقاه من أذى قومه وتكذيبهم، ببيان ما حصل من استهزاء بالرسل من قبله، وإملائه عز وجل للذين كفروا، ثم أخذهم بعقابه الشديد.

١٧- الإنكار على المشركين وتقريعهم في جعلهم لله عز وجل القائم على كل نفس بما كسبت شركاء ليس لهم من الأمر شيء، وبيان أنه ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)﴾.

١٨- بيان مثل الجنة وصفتها؛ ترغيبًا في العمل لها: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا

﴿وَعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

١٩- فرح الذين أوتوا الكتاب بما أنزل إلى النبي ﷺ؛ لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، ولما فيه من التصديق لكتبهم في وجوب عبادة الله تعالى وحده، وبيان أن من الأحزاب من ينكر بعضه؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

٢٠- الامتنان بإنزال القرآن الكريم حكمًا عربيًّا، وتحذيره ﷺ من اتباع أهواء أهل الكتاب، وهو تحذير لأتباعه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٢١- بيان أنه عز وجل أرسل رسلًا من قبله ﷺ بشرًا، وجعل لهم أزواجًا وذرية؛ فليس هو ﷺ بدعًا من الرسل، وليس لرسول منهم ولا وله ﷺ ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢٢- بيان تحديد الآجال وكتابتها، وأنه سبحانه يمحو ﴿مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٢٣- وعيد المشركين بالعقوبة العاجلة أو الآجلة، وبيان أنه إنما عليه ﷺ البلاغ، وعليه عز وجل الحساب، وتوبيخ المشركين وتقريرهم فيما يجريه تعالى من نقص الأرض من أطرافها وفتحها للمسلمين، وأنه سبحانه ﴿يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وتوعدهم بذكر مكر الذين من قبلهم ومكر الله بهم، وعلمه عز وجل بما تكسب كل نفس، وتحذيرهم: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

٢٤- وختمت السورة بذكر إنكار الكفار لرسالته ﷺ، وإثبات شهادة الله تعالى وهو خير الشاهدين، وكفى به عز وجل شهيدًا على صدقه ﷺ، فهو سبحانه الذي عنده علم الكتاب، وكذا شهادة من آمن من أهل الكتاب بذلك: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤ ۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾.

قوله: ﴿الٓمٓرۚ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل بعض السور في تفسير مطلع سورة البقرة، وبيان أن هذه الحروف- في أظهر الأقوال- لا محلَّ لها من الإعراب، وأنها حروف لا معنى لها في ذاتها، لكن لها مغزى، وهو الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، والتحدي به؛ ولهذا كانت جُلُّ السور التي بدأت بهذه الحروف أو كلها فيها الانتصار للقرآن، وبيان أن نزوله من عند الله تعالى حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال هنا:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، أي: آيات القرآن الكريم، وأشار لها بإشارة البعيد تعظيمًا لها.

وآيات: جمع «آية» وهي العلامة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وسمِّيت بهذا الاسم؛ لما فيها من الإعجاز في ألفاظها ومعانيها وأحكامها وأخبارها، الدال على أنها من عند الله عز وجل، وعلى وحدانيته عز وجل في ربوبيته

وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى صدق من أنزلت عليه وبلغها نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

و«آيات» مضاف و«الكتاب» مضاف إليه، و«الكتاب» إذا أطلق معرفًا بـ«ال» انصرف للقرآن الكريم؛ لأنه أفضل وأجل كتب الله عز وجل وأعظم الكتب على الإطلاق.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فالواو: عاطفة، و«الذي»: اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، أي: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، فهو كلام الله عز وجل، تكلم به سبحانه بحرف وصوت، وأنزله من عنده إلى نبيه ﷺ.

﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر المبتدأ الموصول، أي: الحق الثابت، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الواو عاطفة، و(لكن) حرف استدراك، ﴿أَكْثَرَ﴾ اسم تفضيل، أي: ولكن مع إنزال القرآن إليك من ربك، وكونه الحق الثابت البين الواضح، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: الكثرة الكاثرة منهم، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يؤمنون بهذا القرآن؛ لما فيهم من الجهل والإعراض والشقاق والعناد والنفاق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: الله- وحده- الذي ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: خلقها بقدرته العظيمة مرتفعة على عظمتها واتساعها، وجعلها سقفًا على الأرض؛

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ متعلق بـ«رفع»، أي: رفعها بدون عمد، أي: خالية من العمد، ليست معتمدة على شيء.

﴿تَرَوْنَهَا﴾ الجملة في محل نصب حال مؤكدة من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: حال كونكم ترونها بغير عمد، أي: لا شبهة في كونها بغير عمد.

أو في محل جر صفة لـ ﴿عَمَدٍ﴾، أي: لو كان لها عمد لرأيتموها. أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

قال ابن كثير(١): «قال إياس بن معاوية: «السماء على الأرض مثل القبة» يعني: بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وهذا هو الأكمل في القدرة».

وقال أيضاً(٢): «فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء، من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]».

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٣٥١، وأخرج قول إياس الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٤١١.

(٢) في «تفسيره» ٤/ ٣٥٠.

وقيل: لها عمد ولكن لا ترى، قال هذا ابن عباس ومجاهد(١).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: ثم بعد خلق السموات والأرض استوى على العرش، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣].

أي: ثم استوى على العرش، استواء يليق بجلاله وعظمته، من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تعطيل؛ كما قال الإمام مالك رحمه الله: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٢).

و«العرش» في اللغة: سرير الملك؛ كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

و«العرش» أكبر المخلوقات وأعلاها، وهو سقف الجنة، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد، ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**»(٣).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة؛ وأعلى الجنة؛ وفوقه عرش الرحمن**»(٤).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وذلل الشمس والقمر، وأجراهما لمصالح العباد ومواشيهم وحروثهم، وليعلموا بجريهما عدد السنين والحساب، ويعرفوا الليل من النهار. وخصهما هنا؛ لأنهما أظهر الكواكب وأعظمها وأكثرها فائدةً ونفعًا.

قال ابن كثير(٥): «وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه؛ فلأن يدخل في التسخير

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٤٠٩.

(٢) انظر: «الأسماء والصفات البيهقي» ص٥١٦، «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٣٧٣.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ٥٣٩، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» ١/ ١١: «أول الحديث مرسل، وعن أبي ذر منقطع، وقد روي عنه من طرق أخرى موصولًا»، وانظر: «فتح المجيد» ص٦١٦.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠.

(٥) في «تفسيره» ٢/ ٦٠٨.

سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى».

وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، أي: كل من الشمس والقمر، ﴿يَجۡرِي﴾، أي: يسير بسرعة وانتظام دقيق، ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، أي: إلى وقت معين محدد ينقطع دونه سيرهما، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة، التي عندها تكور الشمس، ويخسف القمر، وتكور النجوم، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾ [الانفطار: ١، ٢].

قال ابن كثير(١): «وقيل: المراد: إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه له قوائم وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الأحاديث الصحيحة، ولله الحمد».

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، خلقًا وملكًا وتصرفًا؛ يخلق ويرزق، ويعز ويذل، ويعطي ويمنع، يرفع أقوامًا ويضع آخرين، يقيل العثرات، ويفرج الكربات، ويجري ما سبق به علمه وقلمه من الأقدار في جميع الأوقات بمشيئته وحكمته، على أكمل الأحوال، ولا يشغله شأن عن شأن.

﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يبينها ويوضحها، أي: يبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، فيما أنزل من كتبه وعلى ألسنة رسله.

ففي تدبيره الأمر- خلقًا وملكًا وتصرفًا- الدلالة على كمال ربوبيته وإلوهيته، وعلى تمام قدرته على إعادة الخلق للحساب كما ابتدأهم. وفي تفصيله الآيات إقامة الحجة، وبيان طريق الهدى، وإيضاح المحجة؛ ولهذا قال بعده:

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٣٥٢.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: يدبر الأمر ويفصل الآيات الكونية والشرعية؛ لأجل أن توقنوا بلقاء ربكم، أي: لتصدقوا التصديق الجازم بالبعث والنشور، ولقاء ربكم، والقيام بين يديه للحساب والجزاء على الأعمال؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [الآيتانة: ٣، ٤].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾.

لما ذكر عز وجل دلائل قدرته في العالم العلوي برفع السموات بغير عمد، ذكر دلائل قدرته في العالم السفلي؛ فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ الآيتين، وفي هذا وذاك استدلال على كمال ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب إخلاص العبادة له دون سواه.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: وهو الذي خلق الأرض وجعلها ممدودة واسعة مبسوطة طولًا وعرضًا.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، أي: وخلق فيها جبالًا رواسي ثوابت، ترسيها وتثبتها عن التحرك والاضطراب والميدان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ: ٧].

قال السعدي(١): «لئلا تميد بالخلق، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها؛ لأنها على تيار ماء، لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي جعلها الله أوتادًا لها».

﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾ ذكر الأنهار بعد الجبال؛ لأنها تتفجر من الجبال؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ٨٧.

فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٢٧].

أي: وجعل فيها، أي: في الأرض، أنهارًا جارية متفجرة منها؛ لسقي ما على ظهرها من الإنسان والحيوان والحروث والزروع؛ ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، أي: ومن كل الثمرات المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح وغير ذلك.

﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، أي: جعل فيها صنفين اثنين؛ كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والكبير والصغير، وغير ذلك؛ إتمامًا للنعمة؛ ليختار كلٌّ ما يحلو له ويناسبه.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف بتشديد الشين: «يُغشِّي»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿يُغْشِي﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الآية: ٥٤]، أي: يجلل الليل النهار فيلبسه ظلمته، فتظلم الآفاق، ويحصل السكون والنوم والراحة من النصب والتعب في النهار، ويجلل النهار الليل بضيائه؛ لينتشر الناس في مصالحهم وأعمالهم بالنهار؛ قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١، لقمان: ٢٩، فاطر: ١٣، الحديد: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

ويشمل هذا جعل الليل يغشى النهار بظلمته، وجعل النهار يغشى الليل بضيائه، واختلافهما طولًا وقصرًا واعتدالًا، وكل ذلك من دلائل كمال قدرة الله عز وجل، وتمام نعمته تعالى على العباد.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، الإشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ إلى

هنا، أي: إن في ذلك المذكور ﴿لَأَيَٰتٍ﴾، أي: لعلامات ودلائل واضحات على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته على العباد، وعظيم حكمته.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يتفكرون في الآيات، ويتأملونها، ويعتبرون بها، ويستدلون بها على عظمة الله عز وجل، الذي خلقها ودبرها وصرفها، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾، أي: قطع أراضٍ وبقاع يجاور بعضها بعضًا؛ منها بقاع طيبة التربة تنبت الزرع والكلأ وما ينتفع به الناس ومواشيهم، ومنها أراضٍ تمسك الماء فينتفع به الناس بأنفسهم ومواشيهم وزروعهم، ومنها أجادب قيعان سبخة مالحة لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، ومنها ما تربته حمراء، ومنها ما تربته بيضاء، ومنها ما تربته سوداء، ومنها ما تربته صفراء ،منها ما هي محجرة، ومنها ما هي سهلة ومنها رملية، منها سميكة ومنها رقيقة، ولكل منها صفاتها الخاصة ومنافعها.

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾، أي: وفيها «جنات»، أي: بساتين من أعناب.

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، قرأ أبو عمر، وابن كثير، وحفص عن عاصم، ويعقوب: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بالرفع، عطفًا على «جنات»، وقرأ الباقون: «وزرعٍ ونخيلٍ» بالجر، عطفًا على «أعناب».

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ صفة لـ«نخيل»، و«صنوان» جمع «صنو»، وهي العدد من النخيل يجمعها أصل واحد، أي: النخيل تتفرَّع عن منبت وأصل واحد، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمر: «أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه؟»(١)، أي: أن عم الرجل يجتمع مع أبيه في أصل واحد.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- تقديم الزكاة ومنعها ٩٨٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٢٣، والترمذي في المناقب ٣٧٦١.

﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ هي النخلات المتفرقات، المنفردة كل منها بمنبتها وأصلها على حدتها.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾، قرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب على التذكير: ﴿يُسْقَىٰ﴾، أي: يسقى ذلك، وقرأ الباقون على التأنيث: «تسقى»، أي: تسقى الجنات.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ويفضل» بالياء، وقرأ الباقون بالنون: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ ، أي: نجعل بعضها يفضل بعضًا قدرًا وطعمًا ولذة ونفعًا ولونًا وشكلًا ورائحةً، وغير ذلك.

﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾، أي: فيما يؤكل، والمراد به هنا: الثمر والحب، فهذا حلو، وهذا حامض، وهذا مر، وهذا أخضر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أزرق، إلى غير ذلك مما لا ينحصر ولا ينضبط؛ مع أنها تسقى بماء واحد، وهذا من أعظم الدلائل على كمال قدرة الله تعالى؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: إن في ذلك المذكور من قوله ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ إلى هنا، أي: إن في ذلك المذكور لَدلالات على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وكمال ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتحجزهم عما يضرهم، وبها يعقلون عن الله تعالى أمره ونهيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾.

قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له، أي: وإن تعجب من شيء فعجب قول المشركين منكرين للبعث:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أئذا متنا واستحالت أجسامنا ترابًا ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: أئنا لمعادون في خلق جديد؛ كقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق: ٣].

والمعنى: وإن تعجب من شيء فعجب إنكارهم البعث، مع الآيات والدلائل الظاهرة على تمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ من خلق السموات والأرض، وخلقهم من تراب أول مرة؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥-٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧].

قال ابن القيم: «وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فعجب قولهم، كيف ينكرون هذا، وقد خلقوا من تراب ولم يكونوا شيئًا؟!

والثاني: وإن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، فإنكارهم للبعث وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته وحكمته وعدله وسلطانه»(١).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٨١.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾، أي: الذين جحدوا وحدانيته وتفرده بالإلهية وقدرته على كل شيء، فأشركوا معه غيره في العبادة والإلهية، وأنكروا قدرته على البعث والمعاد.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وعيد وتهديد لهم، أي: وأولئك القيود والأنكال في أعناقهم ورقابهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، أي: أهلها وساكنوها وملازموها، فجمع لهم بين الأغلال والأنكال وبين ملازمة الجحيم والحميم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢﴾ [المزمل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: مقيمون فيها إقامة أبدية، لا يموتون ولا يخرجون منها أبدًا.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓر﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم وامتداحه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٣- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به القرآن الكريم؛ لأنه أعظم الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله عز وجل كلها.

٤- دلالة القرآن على أنه من عند الله تعالى، وعلى صدق النبي ﷺ؛ لهذا سميت نصوصه آيات.

٥- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، غير مخلوق، تكلم الله عز وجل به بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

٦- إثبات رسالة النبي ﷺ بإنزال القرآن عليه، وتشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٧- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل؛ فله عز

وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٩- أن ما أنزله تعالى على رسوله ﷺ من آيات الكتاب هو الحق الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾، فهو حق ونزل بالحق، واشتمل على الحق، أخباره صدق، وأحكامه عدل.

١٠- عدم إيمان كثير من الناس، مع إنزال القرآن الكريم عليه ﷺ من ربه، وكونه الحق الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١١- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم غير مؤمنين وعلى غير هدى، بل على ضلال مبين.

١٢- عظمة الله عز وجل وتمام قدرته؛ حيث خلق السماء ورفعها بلا عمد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

١٣- أن السموات مرفوعة بلا عمد، فهي على الأرض كالقبة.

١٤- إثبات استواء الله عز وجل على العرش بعد خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: استواء يليق بجلاله وعظمته.

١٥- إثبات العرش، وهو سرير الملك، وأكبر المخلوقات، وسقف الجنة.

١٦- تسخير الله عز وجل الشمس والقمر يجريان لمصالح العباد ومنافع الخلق إلى أجل مسمى، وهو فناء الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٧- تفصيل الله عز وجل وبيانه للآيات الشرعية؛ إقامةً للحجة، وإيضاحًا للمحجة؛ لقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾.

١٨- أن الحكمة من تفصيل وبيان الآيات الكونية والشرعية؛ ليؤمن الناس ويوقنوا بلقاء ربهم، ومحاسبته لهم، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

١٩- إثبات القيامة ولقاء الله عز وجل، والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾.

٢١- ينبغي التأمل والتفكر في آيات الله تعالى الكونية والشرعية؛ لأن ذلك سبب للإيمان واليقين.

٢٢- بيان عظمة آيات الله ودلائل تمام قدرته في العالم السفلي؛ بمد الأرض، وترسيتها بالجبال، وفيما جعل فيها من الأنهار، وأخرج منها من أصناف الثمار؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

٢٣- أن من نعم الله تعالى على العباد، ودلائل قدرته وحكمته: مد الأرض وبسطها وتوسعتها؛ لتسع الناس ومواشيهم وحروثهم، وغير ذلك من المخلوقات عليها.

٢٤- حكمة الله تعالى وتمام قدرته في جعل الجبال رواسي في الأرض وأوتادًا لها؛ لئلا تميد بأهلها.

٢٥- نعمة الله تعالى على العباد في جعل الأنهار في الأرض لسقيهم ومواشيهم وحروثهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.

٢٦- منة الله تعالى وعظيم فضله على العباد في إخراجه لهم من كل الثمرات صنفين اثنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

٢٧- قدرة الله تعالى التامة وحكمته، ومنته على العباد في تكويره الليل على النهار، والنهار على الليل، وجعل كل منهما يغشى الآخر، والمراوحة بينهما طولًا وقصرًا واعتدالًا؛ لما في ذلك من المنافع للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

٢٨- أن فيما ذكر الله تعالى من دلائل قدرته في العالم العلوي والسفلي؛ من رفع السموات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر.. وغير ذلك، ومن مد الأرض وترسيتها بالجبال، وجعل الأنهار فيها، وأصناف الثمرات، ومن إغشائه الليل النهار، وتفصيل الآيات الكونية والشرعية: آياتٍ لقوم يتفكرون في ذلك، ويستدلون به على عظمة الله عز وجل وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته،

واستحقاقه العبادة وحده دون سواه.

٢٩- قدرة الله تعالى الباهرة، ونعمته الظاهرة في تكوين الأرض واختلاف قطعها وبقاعها مع تجاورها؛ فهذه خصبة منبتة، وهذه سبخة مالحة، وهذه ممسكة للماء، وهذه صلبة قاسية، وهذه رخوة لينة، وهذه لونها كذا، وهذه لونها غير ذلك، ولكل منها صفاتها ومنافعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾.

٣٠- منة الله تعالى وكرمه، وبديع صنعه فيما أخرج للعباد من جنات وبساتين مختلفة، من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد، ويفضِّل بعضها على بعضها في ثمرها وأكلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾.

٣١- أن فيما جعله الله في الأرض من قطع وبقاع متجاورات مع اختلاف صفاتها ومنافعها، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد، ويفضِّل بعضها على بعض في أكلها: آياتٍ لذوي العقول السليمة النيّرة، يستدلون بها على عظمة الله تعالى، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٣٢- الحث على التفكر والتعقل والتأمل في آيات الله ودلائل قدرته، والانتفاع بالعقل الذي ميَّز الله به الإنسان عن غيره؛ لأنه إنما ينتفع بالآيات أصحاب العقول النيرة المستقيمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٣٣- أن الذي يتفكر ويعقل حقًّا هو من قاده فكره وعقله إلى معرفة الله تعالى بآياته، وآمن وانقاد لشرع الله تعالى، وليس من تفكر وعقل فقط في أمر دنياه، وغفل عن آيات الله، وعن أمر أخراه؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

٣٤- أن مما يثير عجب كل متعجب إنكار الكفرة للبعث، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، مع وضوح الآيات والدلائل على تمام قدرة الله على ذلك؛ من خلق السموات والأرض، وخلقهم من تراب أول مرة، وغير ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٣٥- كفر من أنكر البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾.

٣٦- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للذين أنكروا البعث وكفروا بربهم، بالأغلال والقيود في أعناقهم والخلود في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٧- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها، ولا يموت أهلها، ولا يخرجون منها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة تكذيب الكفار بالبعث بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ثم أتبع ذلك بذكر تكذيبهم بما حذرهم الرسول ﷺ من الوعيد؛ فقال:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والمستعجلون هم الكفار المنكرون للبعث، والاستعجال: طلب تعجيل الشيء. والسيئة: ما يسوء ويُحزن. والحسنة: ما يحسن ويسر.

والمعنى: ويستعجلك يا محمد كفار قومك بسؤال العقوبة والبلاء، ويختارون ذلك، دون سؤال العافية والسلامة؛ إمعانًا منهم في المكابرة والعناد، والاستهزاء والاستخفاف بالوعيد، وجهلًا منهم وغرورًا، واغترارًا بحلم الله تعالى، كما قال بعضهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ [المعارج: ١].

وهكذا استعجل قوم صالح من قبلهم العذاب؛ ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل: ٤٦].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾، الواو: حالية، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والحال أنهم قد خلت من قبلهم المثلات، جمع «مَثُلة» وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالًا تمثل به العقوبات المنكِّلات.

والمعنى: وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون ولا يتعظون بهم، ولا يخشون أن يصيبهم مثل ما حل بأولئك، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ الواو: حالية، والخطاب له ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه، واللام في قوله: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ وقوله بعده: ﴿لَشَدِيدُ﴾ للتوكيد.

ومعنى ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ﴾، أي: صاحب مغفرة للناس، يغفر لمن تاب منهم من الشرك ونحوه، ويتجاوز عما دون ذلك، ويصفح ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة، ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾، أي: على ظلمهم، وتعديهم بالوقوع بالشرك والمعاصي، وظلمهم أنفسهم بذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**»(١).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ بعد أن ذكر عز وجل سعة مغفرته بقوله: ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٍ﴾ ذكر شدة عقابه؛ ليجمع المرء بين الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فكما أنه عز وجل واسع المغفرة لمن تاب وأناب إليه، فهو شديد العقاب لمن أصر على الكفر والمعاصي، فلا ينبغي أن يغتر بحلمه وإمهاله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المنكرون للبعث، المستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؛ تعنتًا منهم وعنادًا، والتعبير بالمضارع يدل على تجدد ذلك منهم، والإظهار مقام الإضمار؛ لتسجيل الكفر عليهم.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾، «لولا»: للتحضيض، أي: هلا أنزلت عليه- يعنون النبي محمدًا ﷺ.

﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام، أو مثل ما يقترحونه

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

من جعل الصفا ذهبًا، أو إزالة جبال مكة وجعل مكانها مروجًا وأنهارًا، ونحو ذلك، كما في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، وقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وقولهم في هذه الآية: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ إعلان صريح منهم بعدم اعتدادهم بأعظم الآيات التي أنزلها الله تعالى، وخصّ بها محمدًا ﷺ، آيات القرآن الكريم، مما يدل على أن هذا الاقتراح منهم على وجه العناد والتحدي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾، «إنما»: أداة حصر، وهو حصر وقصر إضافي، أي: ما أنت بالنسبة لهؤلاء المشركين إلا منذر، وليس إليك أمر الإتيان بالآيات، فذلك إلى الله تعالى وحده، و«المنذر» هو المخوف والمحذر للمكذبين من عذاب الله تعالى.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قرأ ابن كثير: «هادي» بإثبات الياء في الوقف، وقرأ الباقون بحذفها وصلًا ووقفًا.

أي: ولكل قوم هادٍ يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، من هؤلاء وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فلست بدعًا من الرسل،

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى مخاطبًا له ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

أو لكل قوم هاد عظيم الشأن قادر على هدايتهم، هو الله سبحانه، فما عليك إلا الإنذار، والهداية بيد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: ٨].

بعد أن ذكر استعجال المنكرين للبعث بالعذاب واقتراحهم الآيات، أتبع ذلك ببيان سعة علمه عز وجل، وأنه لسعة علمه وحكمته يعجل العذاب ويؤجله بعلم وحكمة، كما ينزل الآيات ويمنع إرسالها بعلم وحكمة.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، «ما» مصدرية، أو موصولة تفيد العموم، أي: الله يعلم الذي تحمله كل أنثى من إناث الحيوانات كلها من حمل؛ ذكرًا كان أو أنثى، تامًّا أو ناقصًا، حسنًا أو قبيحًا، كبيرًا أو صغيرًا، طويلًا أو قصيرًا، شقيًّا أو سعيدًا، طويل العمر أو قصيره، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات؛ بكتب رزقه، وعمره،**

وعمله، وشقي أو سعيد»(١).

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**وكل الله بالرحم ملكًا، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب أذكر أم أنثى؟ أي رب أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله: ويكتب الملك**»(٢).

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويعلم ما تغيض الأرحام، و«ما» في الموضعين كالتي قبلها: مصدرية أو موصولة، و«الغيض»: النقص، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]، ويقال في المثل: «هذا غيض من فيض»، أي: قليل من كثير.

أي: ويعلم الذي تنقص الأرحام وتزيد عليه من مدة الحمل، عن تسعة أشهر أو الزيادة عليها، أو من انحباس الحيض وقت الحمل أو وجوده، أو من عدد الحمل واحدًا أو أكثر، أو من نقص الولد أو كماله، أو إسقاط الحمل أو إتمامه، ونحو ذلك، كل هذا روي عن السلف في معنى الآية، والآية تشمل ذلك كله وأكثر منه؛ لعمومها.

قال ابن القيم بعد أن ذكر أقوال السلف في المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾: «والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، فهو سبحانه المتفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيها، وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه؛ كالسقط والتام، ورؤية الدم وانقطاعه»(٣).

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في القدر (٦٥٩٥)، ومسلم في القدر (٢٦٤٦).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٤٨٢).

وقال ﷺ، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»(١).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ معطوف على جملة ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، أي: وكل شيء عنده بقدر وحد لا يجاوزه، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: ٢١].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رسول إحدى بناته أن ابنًا لها في الموت، فقال النبي ﷺ: «**ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب**»(٢).

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾.

تأكيد لما قبله، وبيان لعموم علمه وإحاطته بكل شيء.

قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، الغيب: ما غاب عن الناس، أي: ما غاب عن أبصارهم وحواسهم. والشهادة: الأشياء المشاهدة المحسوسة بالبصر، أو بالسمع وغيرهما من الحواس. والمقصود: الإخبار بإحاطة علمه بكل شيء، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، أي: الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، العظيم الشأن، الذي هو أكبر من كل شيء، ودونه كل شيء.

﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، أي: المتعالي على جميع خلقه بذاته وصفاته، وقدرته وقهره، الذي بلغ غاية العلو.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٧)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨).

وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

بيَّن عز وجل- في الآية السابقة عموم علمه للغيب والشهادة، ثم أكد ذلك ببيان استواء السر والجهر، والإخفاء والإعلان عنده عز وجل.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾، أي: مستو منكم، أو يستوي منكم عند الله تعالى وفي علمه وسمعه.

﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، ﴿مَّنْ﴾ موصولة، أي: الذي أسر القول في نفسه، أو بينه وبين خاصته. ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، الواو للتقسيم بمعنى «أو»، أي: والذي جهر به، أي: بالقول، فأظهره للناس؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣].

قالت عائشة رضي الله عنها: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١]»(١).

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ معطوف على ﴿سَوَآءٌ﴾، أي: وسواء منكم من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار.

أي: ويستوي منكم عند الله تعالى وفي علمه وبصره من ﴿هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾، السين والتاء في ﴿مُسْتَخْفٍۭ﴾ للمبالغة، أي: الذي هو مختف مختبئ في ظلمة الليل في قعر بيته، أو في غار أو مغارة، ونحو ذلك.

﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، أي: أو سارب بالنهار، أي: ظاهر ماشٍ في سربه وطريقه في وضح النهار وضيائه، و«سارب» من سرب إذا ذهب.

أي: يستوي عنده عز وجل من أسر قوله ومن جهر به، ومن استخفى بعمله ومن أظهره، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

وفي قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ إشارة إلى أن من نواميس الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها: السكونَ في الليل والحركة في النهار، لكن كثيرًا من الناس اليوم انتكست فطرهم، فعكسوا الأمر، فجعلوا الليل محلًّا للسهر والحركة، بل للهو واللعب، والنهار وقتًا للسكون والنوم والكسل؛ ولهذا اختلت الموازين عندهم، واضطربت حياة كثير منهم.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

ذكر عز وجل أنه يستوي عنده من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٍ بالنهار، ثم أتبع ذلك بذكر حفظه للإنسان وأعماله بما وكل عليه من المعقبات.

قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أي: لكل منكم؛ لقوله في الآية السابقة: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

والمعنى: للإنسان، أو لكل إنسان معقبات، و«معقبات» جمع مُعَقِّبة، وهم: الملائكة الذين وكِّلوا بحفظ الإنسان وحفظ أعماله، سموا «معقبات»؛ لتعاقبهم عليه في الليل والنهار.

﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾، أي: من أمامه، ومن ورائه، ومن جميع جوانبه؛ وذلك لتكريم الله تعالى للإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، أي: حفظهم له من أمر الله تعالى لهم بذلك، و﴿مِنۡ﴾ تعليلية سببية بمعنى اللام أو الباء، أي: لأن الله أمرهم بذلك، أو بسبب أن الله أمرهم بذلك، والمعنيان متقاربان.

والمعنى: لكل إنسان معقبات من الملائكة، يتعاقبون عليه في الليل والنهار، يحفظونه ويحفظون أعماله، أربعة ملائكة بالليل، وأربعة بالنهار، اثنان يحفظانه ويحرسانه بأمر الله تعالى في يقظته ومنامه من الشرور والحادثات؛ أحدهما أمامه والآخر خلفه.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه»(١).

واثنان يكتبان أعماله؛ أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والثاني عن شماله يكتب السيئات.

قال ﷺ: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم- وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»**(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾، «ما» موصولة في الموضعين، أي: إن الله لا يغير الذي بقوم مما أنعم به عليهم من الأمن والعافية ورغد العيش، وغير ذلك من النعم، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾، بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إل المعصية، ومن شكر النعم إلى كفرها؛ فيسلبهم إياها عند ذلك.

وكذلك إذا غيَّر العباد ما بأنفسهم من المعصية وكفر النعم إلى الطاعة والشكر، غيَّر الله عليهم ما هم فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾، تأكيد للتحذير في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾، أي: وإذا أراد الله كونًا بقوم ﴿سُوٓءٗا﴾، أي: أمرًا سيئًا يكرهونه من شدة أو عقوبة وعذاب.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٩)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٢)، والنسائي في الصلاة (٤٨٥)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، أي: فإنه واقع بهم، ونافذ فيهم؛ لأنه لا راد لما أراده الله تعالى، وفي هذا وعيد وتهديد، وتحذير شديد من مخالفة أمر الله تعالى.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾، قرأ ابن كثير: (والي) بإثبات الياء في الوقف، وقرأ الباقون بدونها في الوصل والوقف.

أي: وما لهم من دون الله تعالى ﴿مِن وَالٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما لهم من دون الله من أيِّ وال يتولاهم؛ بجلب النفع لهم، ودفع الضر والعذاب عنهم.

الفوائد والأحكام:

١- جهل المشركين ومكابرتهم وعنادهم في استعجالهم السيئة قبل الحسنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له.

٣- عدم اعتبار المكذبين والكفار بعقوبات المكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾.

٤- وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بالمكذبين للرسل.

٥- مغفرة الله تعالى للناس وحلمه بهم، مع ظلمهم وارتكابهم للكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله تعالى.

٨- ظلم الناس بارتكابهم المعاصي، وظلمهم لأنفسهم.

٩- شدة عقاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

١٠- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله تعالى بين الرجاء والخوف، والرغبة والرهبة.

١١- اقتراح الكفار- تعنتًا منهم وعنادًا- إنزال الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾.

١٢- تكذيب الكفار للقرآن وعدم اعتدادهم به، وهو أعظم ما أنزل الله تعالى من

الآيات، وذلك أكبر دليل على كذبهم وتعنتهم في طلبهم الآيات.

١٣- جفاء الكفار في تعبيرهم في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، وذلك من وجهين؛ أحدهما: استعمالهم ضمير الغائب بدل ضمير الخطاب له ﷺ؛ إظهارًا لعدم المبالاة به، والثاني: قولهم: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، وكأن له ربًّا غير ربهم، وهم يعلمون أن رب الجميع واحد.

١٤- أن رسول الله ﷺ إنما هو منذر للمكذبين من عذاب الله تعالى، وليس إليه إنزال الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾.

١٥- أن لكل قوم هاديًا وداعيًا يدعوهم إلى الهدى، من الرسل وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

١٦- جمع الرسل عليهم الصلاة والسلام بين الإنذار من عذاب الله، والتحذير من سلوك طرق الضلال المفضية إليه، وبين هداية الناس ودلالتهم إلى طريق الحق المؤدي إلى سعادة الدارين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

١٧- علم الله تعالى التام بما تحمله كل أنثى من إناث الحيوانات كلها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

١٨- علم الله عز وجل التام بغيض الأرحام وازديادها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

١٩- أن كل شيء عند الله عز وجل بمقدار، لا يتجاوزه إلا حسب ما تقتضيه حكمته وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

٢٠- إحاطة علم الله تعالى بالغيب والشهادة على السواء، وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾، وأنه سبحانه أكبر من كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله تعالى ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾، وأنه سبحانه متعال على جميع خلقه بذاته وصفاته وقدرته وقهره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾.

٢٣- استواء الإسرار بالقول والجهر به عنده عز وجل وفي علمه وسمعه؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾.

٢٤- استواء الاستخفاء والإعلان والإظهار عنده عز وجل، وفي علمه وبصره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

٢٥- أن الليل وقت السكون والراحة، والنهار وقت الحركة والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

٢٦- عناية الله تعالى بحفظ الإنسان، وحفظ أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

٢٧- إثبات المعقبات من الملائكة الذي يحفظون ابن آدم ويحرسونه، ويحفظون أعماله ويكتبونها.

٢٨- أن الله لا يغير ما بقوم من نعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم من الإيمان والطاعة إلى الكفر والمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

٢٩- أن النعم إذا شكرت قرت وزادت، وإذا كفرت فرت؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

٣٠- أن ما أراده الله من سوء من عقاب ونحوه نافذ لا محالة، لا راد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

٣١- أنه لا والي لمن أرادهم الله بسوء يدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ كما أنه لا ولي لأحد من الخلق يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الضر إلا الله .

٣٢- التحذير من مخالفة أمر الله ونقمته وعذابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

أنذر الله عز وجل المكذبين بأنه إذا أراد بقوم سوءًا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال، ثم أتبع ذلك بما يدل على تمام قدرته عز وجل على الإنعام والانتقام؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ الآيتين.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: هو الله الذي؛ لعظمته وتمام قدرته ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، وهو النور اللامع الساطع من خلل السحاب.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مصدران منصوبان على المفعول له، أي: يريكم البرق؛ لأجل تخويفكم من الصواعق والهدم والغرق وأنواع الضرر، ولأجل إطماعكم بالغيث والمطر، والرزق والنفع، والبركة والخير، ففيه لكم نذارة وبشارة.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾، أي: يخلق السحاب ويوجده نشئًا جديدًا.

﴿ٱلثِّقَالَ﴾، أي: المثقل المحمَّل بالماء الكثير، والمطر الغزير، وعلامة ثقله قربه من الأرض، وبطء تنقله بالرياح.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾، الباء للملابسة، أي: ويسبح الرعد الله تسبيحًا ملابسًا لحمده. و«التسبيح»: التنزيه والتقديس. و«الرعد»: الصوت الذي يسمع من السحاب المزعج المخيف للعباد؛ ولهذا كان ﷺ إذا سمع صوت الرعد قال: «**اللهم لا تقتلنا**

بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال ربكم عز وجل: لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد**» (٢).

فالرعد خاضع لربه، مسبح بحمده، كغيره من المخلوقات من حيوان وجماد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ معطوف على «الرعد»، و«من»: تعليلية، أي: وتسبح الملائكة بحمده خوفًا منه، أي: تقدس الله عز وجل وتعظمه، وتنزهه عما لا يليق به، وتتعبد له، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته» (٣).

وفيه تعريض بالكافرين والمشركين المعرضين عن عبادة الله وتعظيمه بغناه عز وجل عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وهي النار التي تخرج من السحاب؛ يرسلها عز وجل إنذارًا وتخويفًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٠٠، ١٠١، والترمذي في أبواب الدعوات- ما يقول إذا سمع الرعد ٣٤٥٠- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال «حديث غريب».

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٩.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ- كتاب الكلام- القول إذا سمعت الرعد ١٨٦٩، من حديث عامر بن عبد الله بن الزبير.

أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩].

﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، مما يتسبب في هلاك أو تضرر بعض الأنفس، أو المواشي، أو بعض الزروع والثمار والأشجار، والمساكن والممتلكات، وغير ذلك.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق تلكم الغداة، فيقولون: صعق فلان وفلان**»(١).

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ الجملة: حالية، أي: والحال أنهم، أي: الكافرون والمكذبون ﴿يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾، أي: يحاجون ويخاصمون ويشكون في الله، أي: في عظمته ووحدانيته وتمام قدرته، وينكرون قدرته على البعث، ويقترحون الآيات، ويستعجلون العذاب استهزاءً. والمجادلة: المخاصمة بشدة.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، أي: والحال أنه عز وجل ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، أي: شديد الحول والقوة، والأخذ والبطش، والمماحلة والمكايدة للكائدين، والمكر بالماكرين؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

لما ذكر عز وجل تمام قدرته على الإنعام والانتقام، أتبع ذلك بذكر استحقاقه عز وجل وحده للدعاء والعبادة لا شريك له في ذلك.

قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ اللام: للاستحقاق والاختصاص، أي: لله عز وجل وحده خاصة.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٦٤، ٦٥.

﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: له عز وجل الدعوة الحق، أي: له خاصة الدعاء والعبادة الحق، بشهادة أن لا إله إلا الله، وتوحيده وإفراده بالدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: والآلهة الذين يدعوهم المشركون من دون الله، من الأصنام والأنداد والأوثان.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾، أي: لا يستجيبون لمن يدعونهم ويعبدونهم.

﴿بِشَيْءٍ﴾ التنكير للتعميم والتحقير، أي: لا يستجيبون لهم بأي شيء: أيًّا كان، ومهما قَلَّ؛ من جلب نفع، أو دفع ضر؛ لأن هذه المعبودات كلها باطلة، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، فكيف تملك ذلك لعابديها؟

وأجرى على هذه الآلهة ضمائر العقلاء في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾؛ لأنهم يُعامِلون هذه الآلهة معاملة العاقل.

﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كحال باسط كفيه، أي: مادٍّ يديه من طرف البئر ﴿إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ الذي لا تناله يداه لبعده. وبسط الكف: نشر الأصابع ممدودة؛ كما قال الشاعر في مدحه ﷺ:

تَعـوَّد بسْـطَ الكـف حتـى لـوَ أنـه　　　نواهـا لقـبضٍ لم تطعـه أناملُـهْ[1]

﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾، أي: لأجل أن يصل فاه، أي: فمه، ليروي ظمأه الشديد، فهو من شدة عطشه يمد يديه إلى الماء؛ ليتناوله من بعد، وهيهات أن يصل إليه؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ الواو للحال، أي: وما هو، أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾، أي: ببالغ وواصل «فاه». وقيل: وما هو، أي: الباسط ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾، أي: ببالغ الماء، أو أن فروج أصابعه لما قبض على الماء خانته فلم تمسك الماء.

والعرب تضـرب لمن سعى في أمر لا يدركه مثلًا بالقابض على الماء؛ كما قال الشاعر:

---

(١) البيت لأبي تمام يمدح المعتصم. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ٣٢٠)، «نهاية الأرب» (٣/ ١٨٤)، «ديوان المعاني» (١/ ٢٤).

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع(١)

وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ تأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ لأن المعنى: أن هؤلاء الآلهة الذين يدعوهم المشركون من دون الله لا يستجيبون لهم بأي شيء، فلا ينتفعون بهم أبدًا؛ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، كحال الذي يبسط يديه إلى الماء ليتناوله من بعد ليبلغ فاه، وما هو ببالغه لشدة بعده، أو كالذي يقبض على الماء ليوصله فاه فتخونه فروج أصابعه، فلا يصل إلى فيه قطرة ماء.

وهذا من أحسن الأمثلة وأبلغ التشبيه؛ لأن فيه تشبيهًا بأمر محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: وما دعاء الكافرين وعبادتهم لهذه الآلهة من دون الله ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا في ضياع وخسار وبطلان؛ لبطلان ما يدعون من دون الله، وكون هذه الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ولله وحده يسجد جميع الذين في السموات والأرض من المخلوقات من الإنس والجن والملائكة والحيوان والجماد وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿طَوْعًا﴾ مصدر في موضع حال، أي: طائعًا، أي: سجود طواعية واختيار وانقياد من المؤمنين ومن جميع المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت: ١١].

---

(١) انظر: «العقد الفريد» (٣/ ٤٧)، «التمثيل والمحاضرة» (ص٢٥٧)، «نهاية الأرب» (١/ ٢٨٠)، «مجاني الأدب» (٤/ ١٠٤).

والطوع: الانسياق والامتثال من النفس؛ تعظيمًا لله تعالى ومحبةً له وتقربًا إليه.

﴿وَكَرْهًا﴾ معطوفة على ﴿طَوْعًا﴾، أي: ومكرها، أي: سجود كره من الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

فكل ما ذكر يسجد لله تعالى سجود طاعة وانقياد، ثم قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] وهم الكفرة؛ لأنهم لم يسجدوا لله سجود طاعة وامتثال، وإنما سجدوا مكرهين، سجود انقياد فقط لأمر الله عز وجل الكوني.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ معطوف على «من» الموصولة في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ولله يسجد الذي في السموات والأرض من المخلوقات، ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾، أي: ويسجد له سبحانه ظلال هذه المخلوقات.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾، الغدو: البكور وأول النهار، والآصال: العشي وآخر النهار.

والمعنى: ويسجد له سبحانه ظلال هذه المخلوقات؛ غربيًّا كان أو شرقيًّا، فظل الغدو من جهة الغرب، وظل الآصال من جهة الشرق؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨].

وسجود هذه المخلوقات وظلالها كل بحسبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذا كانت المخلوقات تسجد كلها لربها طوعًا وكرهًا كان هو الإله المعبود حقًّا، وإلهية غيره باطلة؛ ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه وعلى وحدانيته بقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ١٦].

قال الشاعر:

فـوا عجبـا كيـف يُعصـى الإلــ ـــهُ أم كيــف يجحــده الجاحــد
وفي كــــل شيء لــــه آيــــة تــــدل عــــلى أنــــه واحــــد[1]

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

وهذه هي السجدة الثانية من مواضع السجود في القرآن الكريم، بعد سجدة الأعراف، وبالسجود عند قراءة هذه الآية يضع المسلم نفسه في عداد الساجدين لله طوعًا، وهو اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته في إيجاد البرق، وإنشاء السحاب الثقال، وجعل الرعد يسبح بحمده والملائكة من خيفته، وإرسال الصواعق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

٢- حكمة الله تعالى وقدرته الباهرة في إيجاد البرق؛ إخافةً للعباد من الصواعق والهدم وأنواع الضرر، وإطماعًا لهم بالغيث والمطر والرزق والخير؛ لقوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

٣- تمام قدرة الله تعالى في إنشاء السحاب الثقال المحمل بالماء، الذي لا يقدر قدر غزارته وكثرته إلا الله تعالى، والذي لو نزل على مساحات كبيرة شاسعة واسعة من الأرض لأغرقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

٤- تسبيح الرعد بحمد الله كغيره من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٥- إثبات وجود الملائكة وتسبيحهم بحمده عز وجل؛ تنزيهًا له وعبادةً وتعظيمًا، وخوفًا منه وخشيةً وإجلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾.

٦- تخويف الله عز وجل العباد بإرسال الصواعق، وإصابته بها من يشاء؛ ابتلاءً وبيانًا لعظيم قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

٧- مجادلة المشركين ومحاجتهم في الله، وتشكيكهم في عظمته ووحدانيته وقدرته على البعث، واستهزاؤهم باقتراح الآيات واستعجال العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾.

٨- التحذير من بطش الله وأخذه، وبيان أنه شديد الحول والقوة والأخذ

والبطش؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

٩- أن لله عز وجل وحده دعوة الحق والعبادة دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾.

١٠- أن ما يدعوه المشركون ويعبدونه من دون الله من الآلهة محال أن يستجيبوا لهم بأي شيء؛ من جلب نفع، أو دفع ضر؛ لأن الله شبههم بدعائهم هذه الآلهة بمن يمد يديه من بعيد إلى الماء ليبلغ فاه، وذلك مستحيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾.

١١- بلوغ القرآن الغاية في إبطال الشرك والتنفير منه؛ حيث شبَّه استحالة انتفاع المشركين بأي شيء من معبوداتهم باستحالة بلوغ الماء لمن يمد يديه من بُعد ليبلغ الماء فاه، وهيهات له ذلك.

١٢- ضياع دعاء الكافرين لهذه المعبودات وبطلانه؛ لبطلان هذه المعبودات، وما بني على باطل فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

١٣- سجود كل من في السموات والأرض من المخلوقات لله طوعًا وكرهًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، فالمؤمنون والملائكة وسائر المخلوقات يسجدون لله طوعًا؛ خضوعًا وتعظيمًا له، كما قال تعالى عن السماء والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وأما الكفار فيسجدون لله كرهًا، أي: مكرهين منقادين لأمره الكوني رغم أنوفهم.

١٤- سجود ظلال جميع المخلوقات لله عز وجل بالغدو والآصال؛ لقوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

لما ذكر سجود من في السموات والأرض له عز وجل طوعًا وكرهًا وظلالهم، برهن على وحدانيته وبطلان عبادة غيره.

قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الاستفهام: للتقرير، أي: لتقرير المشركين تقريرًا لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، أي: من خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل الله ربهما.

وأمْره عز وجل له ﷺ بالإجابة من قبله بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ للإشعار بتعيّن هذا

الجواب، فهو وهم في تقريره سواء، وهو حكاية لاعترافهم بهذا، وكونهم لا ينكرونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

والمقصود تقرير توحيد الإلهية الذي ينكرونه، والاستدلال على وجوبه بتوحيد الربوبية الذي يقرون به؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، فإقرارهم بتوحيد الربوبية، وأن الله هو رب السموات والأرض، وخالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، وهو خالقهم؛ يوجب عليهم إفراده بالعبادة وتوحيده بالإلهية؛ ولهذا قال:

﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أي: قل إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع، أي: أبعد أن علِمتموه رب السموات اتخذتم من دونه أولياء؟، أي: أجعلتم من دون رب السموات والأرض أولياء، عبدتموهم وأشركتموهم معه في العبادة؟

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا يملكون لأنفسهم جلب نفع ولا دفع ضر، أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، وإذا كانوا لا يملكون ذلك لأنفسهم فعدم ملكهم ذلك لغيرهم من باب أولى، فكيف يتخذون أولياء ويعبدون من دون الله؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦].

وعبر عن آلهتهم بضميري من يعقل في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾؛ لاعتقادهم ذلك فيها.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾، أعاد الأمر بالقول للاهتمام الخاص بهذا الكلام، أي: هل يستوي الكافر الذي تعبَّد على جهل، وأشرك بالله، وعبد معه غيره، والمؤمن الذي عبد الله تعالى على بصيرة وحده لا شريك له؟

والجواب: لا يستويان؛ فالكافر يتخبط في ظلمات الكفر والشرك والجهل،

كالأعمى لا يبصر الطريق، ولا يدري أين يسلك.

والمؤمن على نور من ربه، يمشي سويًّا على صراط مستقيم، كالبصير الذي يبصر الطريق ويعرف أين يسلك.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بالياء مذكرًا: «يستوي»، وقرأ الباقون بالتاء مؤنثًا: ﴿تَسْتَوِي﴾.

﴿أَمْ﴾ في الموضعين هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل هل تستوي ظلمات الكفر والضلال والشرك والشك والجهل، ونور الإيمان والهدى والقرآن والعلم؟

والجواب: لا يستويان؛ فالكفر والضلال والشرك والشك والجهل فيها الحيرة والتخبط والقلق، كظلمات الليل والبحار والأمواج والسحاب، يتحير فيها المسافر، وتنتابه المخاوف والقلق.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، أي: بل أجعلوا لله شركاء؟

﴿خَلَقُوا۟﴾، أي: أوجدوا خلقًا.

﴿كَخَلْقِهِۦ﴾، أي: كخلق الله عز وجل.

﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فتشابه ما خلقه هؤلاء الشركاء وما خلقه الله على هؤلاء المشركين، فجعلوهم شركاء لله من أجل ذلك، أي: ليس الأمر كذلك، أي: أنهم ما اتخذوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؛ حتى يقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة كما استحقها الله، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلًا عما يقدر عليه الخالق، وهم يقرون بأنها مخلوقة لله تعالى معبّدة له، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٤].

كما يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»(١).

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أعاد الأمر للاهتمام، أي: قل لهم يا محمد: الله خالق كل شيء، فلم يخلق شركاؤكم شيئًا، بل هم مخلوقون لله عز وجل؛ إذ لا شيء من

(١) أخرجه مسلم في الحج ١١٨٥- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

المخلوقات خلق نفسه، ولا شيء منها وُجد بلا خالق؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

وحيث لا شركاء له في الخلق فلا شركاء له في العبادة؛ ولهذا قال:

﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾، «الواحد» من أسمائه عز وجل، أي: وهو سبحانه الواحد الأحد في ربوبيته وإلهيته وأسمائه، المستحق للعبادة وحده دون سواه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الصمد: ١- ٤].

﴿الْقَهَّارُ﴾، «القهار» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو القهر والغلبة لجميع المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١].

قال ابن القيم: «فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر»(١).

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾.

ضرب الله عز وجل في هذه الآية مثلين للحق في ثباته وبقائه، وللباطل في اضمحلاله وفنائه؛ أحدهما مائي، والثاني ناري، ذكر أولًا المثل المائي بقوله:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: أنزل عز وجل ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: من العلو، أي: من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٨٤.

السحاب والمزن الذي في العلو، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]. ﴿مَآءً﴾، أي: مطرًا.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾، أي: فجرت أودية. والأودية: جمع «واد»، وهو: مجرى السيل.

﴿بِقَدَرِهَا﴾، أي: بقدر كبرها وصغرها، وما تحتمله من السيول، فأخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع الكثير من الماء، وهذا صغير وسع من الماء بقدره.

وهذا إشارة إلى القلوب وتفاوتها في قبول الهدى والعلم والخير؛ فمنها ما يتقبل ذلك ويسع الكثير منه، ومنها ما لا يتسع لذلك، بل يضيق عنه.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾، أي: فاحتمل السيل من قوة الجيشان، أي: حمل ﴿زَبَدًا﴾ غثاءً لا نفع فيه، ﴿رَّابِيًا﴾ مرتفعًا على الماء وعلى جنبات الوادي.

هذا هو المثل الأول المائي، ثم ذكر عز وجل المثل الثاني الناري بقوله:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف بياء الغيبة: ﴿يُوقِدُونَ﴾، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: «توقدون».

أي: ومن الذي يوقدون عليه في النار من الذهب والفضة ونحوهما، أي: ومما يسبك في النار ويصاغ من ذلك، وعدل عن تسمية الذهب والفضة إلى الموصولية بقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾؛ اختصارًا؛ لأن الصلة تغني عن ذكرهما، وليشمل ذلك كل ما يوقد عليه من المعادن؛ ذهبًا كان أو فضة، أو حديدًا أو نحاسًا، أو غير ذلك.

﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾، أي: لأجل طلب حلية، أي: زينة يُتحلى بها مما يصاغ ويسبك من الذهب والفضة.

﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ معطوف على «حلية»، أي: أو لأجل طلب متاع، وهو ما يتمتع به من الأواني وآلات الحرب والحرث والمراكب، وغير ذلك من الحديد والنحاس، ونحو ذلك.

﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، أي: مثل زبد السيل، وهو خبثه الذي ينفيه الكير، كما في الحديث: «**كما ينفي الكير خبث الحديد**»(١).

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨٧١، ومسلم في الحج ١٣٨٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: مثل ذلك المثلين ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: يبين مثلهما إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، فكذلك الباطل لا ثبات له أمام الحق؛ فالحق ثابت باق، والباطل زائل زاهق.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾، الفاء عاطفة، و«أما» في الموضعين حرف شرط وتفصيل.

﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾، أي: متلاشيًا مقذوفًا مرميًّا به، فلا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح.

وكذلك زبد وخبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ويضمحل، ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء الصافي، والذهب الخالص ونحوه؛ ولهذا قال:

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾، «ما» موصولة، أي: وأما الذي ينفع الناس، وهو الماء.

﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يبقى فيها منتفعًا به على ظاهرها وفي باطنها.

قال ابن تيمية: «شبَّه ما يَنزِل من السماءِ على القلوبِ من الإيمان والقرآن، فيختلط بالشبهات والأهواء المغوية، بالمطر الذي يحتمل سيله الزبد، وبالذهب والفضة والحديد ونحوه إذا أذيب بالنار، فاحتمل الزبد فقذفه بعيدًا عن القلب، وجعل ذلك الزبد هو مثل الباطل الذي لا منفعة فيه، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فهو مثل الحق النافع، فيستقر ويبقى في القلب»(١).

وقال ابن القيم: «قد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد في حق المؤمنين، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الآية: ١٧]؛ شبَّه الوحي لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسع ماءً كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت القلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاءً وزبدًا، فكذلك العلم

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣- ٤/ ٣١٢.

والهدى إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات؛ ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطًا فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

ثم ذكر المثل الناري، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ ؛ وهو الخَبَثَ الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والحديد والنحاس، فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، وكذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه، وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يدرِهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلها، والله الموفق»(١).

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تفخيم لهذا التمثيل، وتنويه بضرب الأمثال وفائدتها، وتأكيد لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، وهو أعم منه، والكاف للتشبيه، والإشارة إلى التمثيل السابق في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الآية.

أي: مثل ذلك الضرب البديع المحكم النافع المفيد ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، أي: يبينها.

والأمثال جمع «مَثَل»، وهو تشبيه وتمثيل أمر معنوي يراد تقريبه وبيان معناه والاعتبار به، بأمر حسي؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

فالمراد من ضرب الأمثال تقريب المعاني وتبيينها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٨٤- ٤٨٥.

ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا؛ فكان منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب قيعان أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»(١).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

ضرب الله عز وجل في الآية السابقة مثلين للحق في ثباته وبقائه، وللباطل في زهوقه واضمحلاله، ثم أتبع ذلك بذكر جزاء من اتبع الحق ومن اتبع الباطل، ومآل كل منهما.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ اللام للاختصاص، أي: للمؤمنين خاصة، الذين استجابوا لربهم، أي: انقادوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله ﷺ؛ باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة والمثوبة الحسنى والجزاء الحسن؛ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨].

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾، وهم الكفرة الذين لم يستجيبوا لله تعالى ورسوله، بل عصوا الله ورسوله، بعد ضرب الأمثال، وبيان الحق من الباطل، وقيام الحجة عليهم.

﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: لو أن لهم الذي في الأرض جميعًا من ذهب

---

(١) أخرجه البخاري في العلم- فضل من علم علمًا ٧٩، ومسلم في الفضائل- بيان فضل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم ٢٢٨٢.

وفضة وأصناف الأموال.

﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾، الضمير الهاء يعود إلى «ما» الموصولة، أي: لو أن لهم الذي في الأرض جميعًا ومثل الذي في الأرض مضافًا معه، أي: لو أن لهم ضعف ما في الأرض، أي: كثره مرتين.

﴿لَافْتَدَوْا بِهِۦ﴾، الضمير في «به» يعود إلى ما في الأرض ومثله معه، أي: لدفعوه فديةً مقابل الخلاص مما هم فيه من سوء العذاب وشدة الكرب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٤٧].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، أي: أولئك لهم سوء الحساب في الآخرة، يناقشون على النقير والقطمير، والقليل والكثير، والجليل والحقير، مما أسلفوه من أعمال سيئة، وما ضيعوه من حقوق الله، وحقوق عباده، مما سطر عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، أي: ومصيرهم ومآلهم بعد هذا الحساب السيئ جهنم، وهذا مصداق قوله ﷺ: **«من نوقش الحساب هلك»**(١).

و«جهنم» من أسماء النار، سميت به لجهمتها، أي: ظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، أي: وبئس المقر والفراش والمسكن جهنم؛ لجمعها بين أصناف العذاب.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٠٣، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

بعدما ذكَر جزاء ومصير من استجابوا لربهم، وجزاء ومصير من لم يستجيبوا له، ذكَر مبرر هذا الاختلاف في الجزاء والمصير، وأنه لا يستوي في الجزاء والمصير من يعلم أن الذي أنزل عليه ﷺ من ربه هو الحق ومن هو أعمى، شتان بين مشرق ومغرب:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان[1]

قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أفيستوي الذي يعلم، أي: يؤمن ويصدق، ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: إن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك -يعني: القرآن الكريم- ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا مرية، ولا لبس فيه ولا اختلاف؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

أخباره صدق، وأحكامه عدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾، أي: كالذي هو أعمي، لا يعلم الحق ولا يهتدي إليه، ولا يؤمن به ولا يصدقه.

أي: لا يستوي هذا وهذا، وشتان بينهما، شتان بين من علم أن ما جئت به يا محمد هو الحق، فآمن به وصدقه، وانقاد له واتبعه، وبين من جهل ذلك وضل عنه ولم يهتد إليه، فهو متحير في ظلمات الباطل والشك والكفر والشرك؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]،

---

(١) «النونية» لابن القيم ص٤٧.

وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

قال ابن القيم: «وهذه شهادة من الله على عمى هؤلاء، وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك، وشهادة المؤمنين عليهم»(١).

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، تعليل للإنكار والنفي، و«إنما» أداة حصر، أي: لأنه إنما يتذكر ويتعظ ويعلم الحق ويهتدي إليه أولو العقول السليمة، وفيه تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا أهلًا للتذكير؛ وأنهم لا عقول لهم؛ لعدم انتفاعهم بها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٠- ٢٤].

حصر عز وجل في الآية السابقة التذكر في أولي الألباب، ثم ذكر في هذه الآيات صفاتهم الجميلة وأعمالهم الجليلة، وما أعد لهم من الثواب والعقبى الحسنة.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾، هذه الجملة وما بعدها إلى قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ كلها في محل رفع صفات لـ ﴿أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: الذين من صفتهم الوفاء بعهد الله، و«عهد الله» مصدر مضاف لمفعوله، أي: ما عاهدوا الله عليه، أي: على فعله.

ويحتمل أن يكون من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: ما عهد الله به إليهم.

والمعنى على الاحتمالين: الذين يوفون بالذي عهد الله به إليهم، وعاهدوه عليه؛ من الإيمان والإسلام، وعبادته عز وجل وحده، وفعل الواجبات، وترك المنهيات؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٩٣.

مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، هذه من الصفات المنفية التي يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فهي تأكيد لقوله: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

و«الميثاق»: العهد المؤكد، و«ال» فيه للجنس، أي: جميع المواثيق؛ مما بين العبد وبين ربه، ومما بين العبد وبين الناس.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، أي: والذين من صفتهم أنهم ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، «ما»: موصولة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: يصلون الذي أمر الله بوصله، والوصل: ضم شيء لشيء، وضده: القطع.

أي: يصلون جميع الذي أمر الله به أن يوصل، وهو عام في جميع الأوامر والعلائق التي أمر الله بصلتها؛ منها: آصرة الإيمان والإسلام بأداء حقوق المسلمين، ومنها: آصرة القرابة بصلة الرحم، ومنها: آصرة الجوار بأداء حق الجار، وغير ذلك.

قال ابن القيم: «ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه»(١).

فهم يصلون كل ما أمر الله بوصله؛ فيصلون أرحامهم، ويصلون إخوانهم المؤمنين، ويؤدون حقوقهم، ويصلون جيرانهم، ويصلون ذوي الحاجات من الفقراء والمساكين ونحوهم بالإحسان إليهم، وبذل المعروف لهم، وغير ذلك.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: ويخافون ربهم، فيراقبونه فيما يأتون ويذرون في جميع الأحوال.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، الذي يعامل به الذين لم يستجيبوا لله، ولم يفوا بعهد الله، ولم يصلوا ما أمر الله به أن يوصل.

فحملتهم خشيتهم ربهم، وخوفهم سوء الحساب على الوفاء بعهد الله وعدم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٩٤.

نقضه، وصلة ما أمر الله بوصله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، أي: والذين من صفتهم أنهم ﴿صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، والصبر: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله، أي: اصبروا على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، أي: طلب مرضاة ربهم وجزيل ثوابه.

والصبر عليه مدار الأعمال كلها؛ لأنه لا يقوم شيء منها إلا بالصبر، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الصبر نصف الإيمان» (١).

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامةً تامةً، كما شرعها الله، بشروطها وأركانها، وواجباتها وسننها. وذكرها بعد صفة الصبر؛ لأنها لا تقوم إلا به، ولأنها هي والصبر أكبر ما يعين على أمور الدين والدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، ذكر إقامتهم الصلاة ثم ذكر إنفاقهم مما رزقهم الله بأداء الزكاة وغيرها من النفقات؛ لأن الصلاة والزكاة قرينتان، والصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية.

أي: وأنفقوا من الذي رزقناهم وأعطيناهم من الأموال والخيرات، فأخرجوا ما فيه من النفقات الواجبة؛ كالزكاة، والنفقة على الأولاد والأهل، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة؛ من الصدقات والهدايا ونحو ذلك.

فجمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى بإقامة الصلاة؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعةً لرسوله ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله بالإنفاق مما رزقهم الله.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حالان، أي: وأنفقوا مما رزقناهم في حال السر والجهر.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، لما ذكر حسن عبادتهم وقيامهم بحقوق الله وحقوق

(١) أخرجه الطبراني بإسناد صحيح، انظر: «مجمع الزوائد» ١/ ٥٧.

خلقه، ذكر حسن أخلاقهم مع الناس بمقابلة الإساءة بالإحسان، وإتباع السيئة الحسنة.

أي: ويدفعون بالحسنة السيئة، أي: يدفعون بالقول والفعل الحسن القول والفعل السيئ والقبيح، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل؛ صبرًا واحتسابًا وصفحًا وعفوًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان؛ فما ظنك بغير المسيء؟!

كما أنهم أيضًا يتبعون السيئة الحسنة؛ لتذهبها وتمحوها، فيتبعون المعصية والذنب الطاعة والاستغفار والتوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١).

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، الجملة مستأنفة، أو خبر قوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وما عطف عليه.

والإشارة للذين وصفوا بتلك الصفات الجليلة، والمناقب الجميلة، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بهم ورفعةً لشأنهم، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات العظيمة ﴿لَهُمْ﴾ خاصةً ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

والعقبى: العاقبة، وهي الشيء الذي يعقب، أي: يقع عقب شيء آخر، واشتهرت في عقبى الخير، أي: لهم العاقبة والنهاية المحمودة الحسنة في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٣، ٢٢٨- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

هذا تفسير وبيان لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ ولهذا ختمه بقوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾، «جنات»: بدل من ﴿عُقۡبَى﴾، و«عدن» بمعنى إقامة واستقرار، أي: جنات إقامة أبدية يدخلونها ويخلدون فيها، ولا يبغون عنها حولًا؛ لأنها غاية المطالب، فيها كما قال ﷺ: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». ثم قرأ ﷺ: «﴿**فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧**﴾ [السجدة: ١٧]»(١).

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾، الواو عاطفة، و«من» اسم موصول مبني في محل رفع معطوف على الواو في «يدخلونها»، أي: يدخلونها، والذي ﴿صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾؛ تكريمًا لهم، وإتمامًا لسرورهم، وتطييبًا لعيشهم.

﴿وَمَن صَلَحَ﴾، أي: والذي صلح لدخولها، ممن آمن وعمل عملًا صالحًا، وجمع بين الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول ﷺ، فلا تنفع الأنساب وحدها إذا فقد الإيمان والصلاح.

﴿مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾، أي: من آبائهم وأجدادهم، وإن علوا، من أي جهة كانوا، وكذا أمهاتهم وجداتهم وإن علون؛ لأن الآباء يشمل الأمهات على طريق التغليب، كما قالوا: الأبوين.

﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ فيلحق بالرجل أزواجه، ويلحق بالمرأة زوجها.

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ من أولادهم وأولاد أولادهم وأحفادهم وإن نزلوا.

فمن كان مؤمنًا وعمل صالحًا من أصولهم وفروعهم وأزواجهم، وكان دون مرتبتهم ألحق بهم، ومن كان فوق مرتبتهم ألحقوا به؛ لتقر أعينهم جميعًا من غير أن ينقص من كان منهم أعلى؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، أي: يدخلون عليهم من هاهنا وها هنا من كل أبواب الجنة؛ لكثرتهم وكثرة ترددهم، يهنئونهم بدخولهم الجنة، واجتماعهم مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وكرامة الله تعالى لهم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، أي: يقولون: سلام عليكم، أي: حلت عليكم السلامة من الله، والنجاة من كل سوء ومكروه، وظفرتم بكل خير ومحبوب.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: نالكم هذا التكريم بسبب صبركم، أي: بسبب صبركم على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أي: فنعم عاقبة الدار المحمودة الحسنة عقباكم الجنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، فلا يستطيع لها قضاءً. فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾**»(١).

وفي رواية بنحوه، وفيها: «**وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإذا كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض، حتى يموت وهي في صدره**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- تقرير تفرده عز وجل بربوبية السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) وأخرجه أحمد ٢/ ١٦٨.

(٢) أخرجه الطبراني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٣٧٣- ٣٧٤.

٢- الإنكار على المشركين اتخاذهم من دون الله أولياء مع إقرارهم بربوبيته وحده.

٣- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

٤- أن كل ما يعبد من دون الله من أولياء من الأصنام والأوثان وغير ذلك، لا يملك لنفسه جلب نفع ولا دفع ضر، ولا لغيرها، بل هم مربوبون لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

٥- أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، والعاصي والمطيع؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾.

٦- أنه كما لا تستوي الظلمات والنور، فكذلك لا يستوي الكفر والإيمان، والضلال والهدى، والباطل والحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾.

٧- أنه لا حجة للمشركين في اتخاذهم شركاء لله؛ لأن هؤلاء الشركاء لم يخلقوا كخلق الله فيتشابه الخلق عليهم، بل هم مخلوقون لله تعالى مربوبون له؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

٨- تفرده عز وجل بخلق كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٩- إثبات اسمه- عز وجل- «الواحد»، وصفة الوحدانية له عز وجل؛ في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْقَهَّارُ﴾، وتفرده بالقهر والغلبة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَهَّارُ﴾.

١١- أن القهر التام يستلزم الوحدة؛ لأن الشركة تنافي القهر.

١٢- نعمة الله تعالى التامة وقدرته الباهرة في إنزال الماء من السماء من السحاب والمزن، وإجراء الأودية الكبيرة والصغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾.

١٣- احتمال الأودية- بسبب سيلانها وقوة جريانها وجيشانها- زبدًا يعلوها وعلى جنباتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾.

١٤- منة الله تعالى على العباد في إيجاد المعادن من الذهب والفضة والحديد

والنحاس وغير ذلك، وتسخير النار لإذهاب زبدها وخبثها، وصهرها لتسهل صياغتها حليةً أو متاعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

١٥- أن مثل الحق في ثباته وبقائه وانتفاع أتباعه به كمثل الماء الصافي الذي يمكث في الأرض على ظهرها وفي باطنها، فينتفع به الناس وسائر المخلوقات، ومثل صافي المعادن بعد صهره بالنار.

وأن مثل الباطل في زهوقه وزواله واضمحلاله كمثل زبد الماء، وزبد وخبث ما يوقد عليه في النار يذهب جفاءً متلاشيًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

١٦- التفخيم لهذا المثل، والتنويه بضرب الأمثال وفائدتها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ وذلك لما فيها من تقريب المعاني.

١٧- وعد الذين استجابوا لربهم فآمنوا واتبعوا الحق بأن لهم خاصةً الجنة والمثوبة الحسنى؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

١٨- الوعيد والتهديد للذين لم يستجيبوا لربهم وكفروا به واتبعوا الباطل، وتهويل ما يلقونه من شدة العذاب، حتى إنه لو أن لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه لدفعوه فدية مقابل الخلاص مما هم فيه، وأنى لهم ذلك؟ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾.

٢٠- الوعيد للذين لم يستجيبوا لربهم بأن لهم سوء الحساب، فيشدد في حسابهم ويناقشون على القليل والكثير والنقير والقطمير؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، وقد قال ﷺ: «**من نوقش الحساب هلك**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٢١- أن مصير هؤلاء الذين لم يستجيبوا لربهم ومآلهم جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٢٢- أن جهنم بئس المستقر والمسكن؛ لجمعها بين أصناف العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

٢٣- الترغيب والحث على اتباع الحق والاستجابة لله تعالى، والترهيب والتحذير من اتباع الباطل وعدم الاستجابة لله تعالى.

٢٤- شتان بين من يعلم أن ما أنزل إلى النبي ﷺ من ربه هو الحق ويؤمن به ويتبعه، وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك، ولا يبصر دلائل الحق، ولا يؤمن به؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾.

٢٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٢٦- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، تكلم به سبحانه بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٧- إثبات رسالته ﷺ بإنزال الوحي إليه، وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وربوبيته له ربوبية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٨- أن ما أنزل إليه ﷺ هو الحق، فهو حق وطريق وصوله إليه حق، وهو مشتمل على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

٢٩- أنه إنما يتذكر بما أنزل الله أصحاب العقول السليمة التي تهدي أصحابها إلى الاتعاظ بما أنزل الله ومعرفة الحق واتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٣٠- الترغيب في التعقل والتدبر فيما أنزل الله والتذكر والاتعاظ؛ لأن الله امتدح أولي الألباب بذلك، بل وحصر التذكر فيهم.

٣١- امتداح أولي الألباب- الذين يتذكرون فيما أنزل الله، وتهديهم عقولهم إلى الحق- بالصفات الجليلة والمناقب الجميلة؛ من الوفاء بعهد الله وعدم نقضه، ووصلهم ما أمر الله به أن يوصل، وخشيتهم ربهم، وخوفهم سوء الحساب، وصبرهم ابتغاء وجه ربهم، وإقامتهم الصلاة، وإنفاقهم مما رزقهم الله سرًّا وعلانية، ودرئهم بالحسنة السيئة؛

لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

فأكرم بها من عقول، وأنعم بها من صفات!

٣٢- وعد الله- الذي لا يتخلف- للموصوفين بما ذكر بأن لهم العاقبة المحمودة في الآخرة، وهي جنات عدن؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

٣٣- خلود أهل الجنة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، أي: جنات إقامة أبدية.

٣٤- إكرام الله عز وجل أهل الجنة بتشفيعهم فيمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وإدخالهم معهم الجنة؛ لتقر أعينهم بهم، ويهنأ عيشهم، ويتم سرورهم، فمن كان من أصولهم وفروعهم وأزواجهم مرتبته دونهم أُلحِق بهم، ومن كانت مرتبته فوقهم ألحقوا به؛ وفي هذا بشارة لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح؛ لأن الله يلحق الأدنى منهم بالأعلى؛ فضلًا منه وكرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

٣٥- عظم كرم الله تعالى وفضله، حيث يرفع الأدنى من أهل الجنة مع الأعلى، دون أن ينقص الأعلى؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١﴾ [الطور: ٢١].

٣٦- أن الأنساب لا تنفع وحدها إذا فقد الصلاح والإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

٣٧- دخول الملائكة على أهل الجنة من كل باب، وسلامهم عليهم، وتهنئتهم لهم بما هم فيه من النعيم وحسن العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

٣٨- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم.

٣٩- فضل الصبر وعِظم مكانته في الدين؛ لأنه لا يقوم شيء من الأعمال الظاهرة

والباطنة إلا بالصبر؛ ولهذا قالت الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، أي: بسبب صبركم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٤٠- وجوب الأخذ بهذه الصفات التي امتدح الله بها أولي الألباب؛ لأنها قوام الإيمان والإسلام، وعليها تترتب العاقبة المحمودة في الآخرة ودخول جنات عدن:

أولها: الوفاء بعهد الله؛ وذلك بالقيام بموجبات الإيمان، وعدم نقض المواثيق؛ مما بين العبد وبين ربه، ومما بينه وبين الناس.

ثانيها: وصل ما أمر الله بوصله؛ من صلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين والجيران، وأداء حقوق المسلمين، وبذل المعروف والندى، وكف الأذى، وغير ذلك.

ثالثها: خشية الله في جميع الأحوال في كل ما يأتي المرء أو يذر.

رابعها: الخوف من سوء الحساب وشدته.

خامسها: الصبر ابتغاء مرضاة الله تعالى على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

سادسها: إقام الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

سابعها: الإنفاق من رزق الله بإخراج الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة، سرًّا وعلانية.

ثامنها: درء السيئة بالحسنة، بالإحسان لمن أساء، وإتباع السيئة الحسنة تمحها.

قال ابن القيم: «والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها؛ اشتملت على فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، وقد ذكر الله هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]»[1].

فمن أخذ بهذه الصفات فليبشر بما وعد الله تعالى به في قوله عز وجل: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٩٣.

عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾.

ذكر عز وجل صفات المؤمنين وما لهم من العقبى الحسنة، ثم أتبع ذلك بذكره صفات الكافرين ونهايتهم السيئة المؤلمة، جمعًا بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، كما هو منهج القرآن الكريم؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء حتى يلقى الله عز وجل.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ نقض العهد: نكثه وإبطاله، وعدم الوفاء به، أي: والذين ينكثون ميثاق الله، وما عهد به إليهم وعاهدوه عليه، ولا يفون بذلك.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، أي: من بعد توثيقه وتوكيده وتغليظه عليهم في كتبه وعلى ألسنة رسله، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض، قال ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»**(١).

وفي حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- علامة المنافق ٣٣، ومسلم في الإيمان- بيان خصال المنافقين ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٤، ومسلم في الإيمان ٥٨، والنسائي ٥٠٢٠، والترمذي ٢٦٣٢.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، أي: ويقطعون الذي أمر الله بوصله، من حقوق الله تعالى وحقوق خلقه؛ فقطعوا ما بينهم وبين ربهم بكفرهم وعدم إيمانهم، وقطعوا ما بينهم وبين أرحامهم، وما بينهم وبين سائر الخلق بعدم أداء حقوقهم، بل بظلمهم لهم والاعتداء عليهم.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي والصد عن دين الله، والفساد المعنوي المؤدي إلى الفساد الحسي بهلاك الحرث والنسل؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ الجملة خبر قوله ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: أولئك لهم خاصة اللعنة، أي: الإبعاد عن رحمة الله تعالى وجنته.

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، «سوء الدار» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ولهم الدار السيئة، وهي النار وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

لما ذكر سوء أعمال الكافرين وسوء عاقبتهم ومآلهم ذكَر أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء، فلا يغتر الكفار بما بسط الله لهم من الرزق في الدنيا، ولا ينبغي لأحد أن يغتر بما هم فيه من ذلك، أو يقول: كيف يوسع الرزق عليهم مع ازديادهم طغيانًا؟! فلله الحكمة في ذلك، قال موسى- عليه السلام- : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: الله عز وجل بحكمته البالغة يوسع العطاء ويكثره ويديمه للذي يشاء من عباده.

﴿وَيَقۡدِرُ﴾، أي: ويقدر الرزق، أي: يضيقه ويقتره على من يشاء بحكمته البالغة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾ [الإسراء: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: ومن ضيق عليه رزقه فلينفق بقدر ما أعطاه الله.

﴿وَفَرِحُواْ﴾، أي: وفرح هؤلاء الكفار فرح بطر واختيال وطغيان واغترار، كحال قارون إذ قال له قومه: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: بالعيش في هذه الحياة الدنيا، وما أعطوا فيها من النعيم استدراجًا لهم وإمهالا، وركنوا إليها، واطمأنوا بها، واغتروا بزينتها، وغفلوا عن الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٥- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: وما الحياة الدنيا إذا نسبت للآخرة وقورنت فيها.

﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ إلا أداة حصر ﴿مَتَٰعٞ﴾ نكِّر؛ للتقليل؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

والمعنى: إلا شيء قليل حقير يتمتع به قليلًا ثم سرعان ما يزول؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: ٣٨].

عن المستورد أخي بني فهر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في**

الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في هذا اليم، فلينظر بم يرجع، وأشار بالسبابة»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مر بجدي أَسَكَّ فتناوله بأُذنه، ثم قال: «**أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الذين جحدوا رسالته ﷺ، وكذبوه من كفار مكة تعنتًا وعنادًا واستكبارًا.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾، أي: هلا أنزل على محمد ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: معجزة من ربه علامة على صدقه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥].

وفي هذا تعجب من قولهم، وأنه لمجرد العناد لا لطلب الهداية؛ لأن الله قد أنزل عليه أعظم الآيات؛ ولهذا قال:

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المكذبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ فليس السبب في كفركم وضلالكم هو عدم إنزال آية أو آيات عليه من ربه، فقد أنزل الله عليه أعظم الآيات القرآن الكريم، فلم تصدقوا ولم تؤمنوا، ولكن السبب أن الله حكم قدرًا بإضلال من يشاء، ومنهم أنتم ومن كان على شاكلتكم في المكابرة والعناد، فلا سبيل إلى هدايته ولو جاءته كل آية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها- فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢٨٥٨، والترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٧، وأحمد ٣/ ٣٦٥.

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿وَيَهْدِي﴾، أي: ويهدي هداية خاصة، أي: يوفق ﴿إِلَيْهِ﴾، أي: إلى الإيمان بالقرآن وتصديقه ﷺ ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، أي: الذي أناب إلى الله عز وجل وتضرع إليه، وتاب من الكفر والشرك، ورجع إلى الحق، وتأمل في دلائله الواضحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣، النور: ٤٦].

فهو عز وجل يضل بعدله من يشاء، ويهدي بفضله من يشاء؛ كما قال: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر عز وجل أنه يهدي إلى الإيمان بالقرآن وتصديق الرسول ﷺ من أناب إليه عز وجل ورجع إلى الحق، ثم بين وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية والآية التي بعدها.

قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من «مَن» في قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي: تسكن قلوبهم وتلين وتخشع وتنشرح ببرد اليقين، ويزول قلقها واضطرابها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»(١).

وقال ﷺ في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب**»(٢).

وذِكر الله هو كتابه الذي أنزله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ [يس: ٦٩] فهو الذي به تطمئن قلوب المؤمنين، ويذهب عنها بسببه القلق والاضطراب والشك، ومن أعرض عنه ضل وشقي في الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦].

ومن ذكر الله تعالى ذكرُه عز وجل بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وخشيته ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه؛ كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وكل ما ذكر مما تطمئن له قلوب المؤمنين.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، «ألا» أداة تنبيه، أي: هو حقيق بذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٨، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم ٢/ ١٣ وصححه، ووافقه الذهبي وقال: «سنده قوي».

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

وصف عز وجل أهل هدايته الخاصة، وهم المنيبون إليه- سبحانه- وإلى الحق بالإيمان واطمئنان قلوبهم لذكره، ثم أكد وصفهم بالإيمان مقرونًا بعملهم الصالحات؛ لأن الإيمان لا يصح بلا عمل، ووعدهم طوبى وحسن مآب.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم من صلاة وزكاة وصيام وحج وبر للوالدين وصلة للأرحام، وغير ذلك، والأعمال الصالحات هي التي توفر فيها: الإخلاص لله تعالى والمتابعة للنبي ﷺ، وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلم يقل: وعملوا الأعمال الصالحات؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ طوبى: مصدر من طاب طيبًا، إذا حسن، أي: حال طيبة وفرح وقرة عين وغبطة لهم، ونعم ما لهم من رضوان الله وكرامته! واللام: للاختصاص، أي: لهم خاصة.

وقال جمع من الصحابة والتابعين: «طوبى» شجرة في الجنة، وروي مرفوعًا؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام**»[(١)].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**»[(٢)].

﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾، أي: وحسن منقلب ومرجع.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، حيث ذكر عز وجل

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧١.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٧، وأخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣٢٥١- من حديث أنس رضي الله عنه.

أولًا صفات المؤمنين وما لهم من العقبى الحسنة، ثم أتبع ذلك بذكر صفات الكافرين ونهايتهم السيئة.

٢- أن رحمة الله عز وجل تسبق غضبه؛ لأن الله قدم هنا الوعد على الوعيد.

٣- ذم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله بوصله، ويفسدون في الأرض، وتوعَّدهم بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، وهي النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

٤- يجب البعد عن صفات المذكورين؛ حذرًا مما توعدوا به من اللعنة وسوء الدار، والخسران؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

٥- أن الكفر والمعاصي فساد معنوي في الأرض، يؤدي إلى الفساد الحسي بهلاك الحرث والنسل وحلول المصائب والكوارث.

٦- أن الله عز وجل يبسط الرزق ويوسعه على من يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء منهم بحكمته البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

٧- أنه ليس في بسط الرزق وتوسيعه على من وسعه الله عليه دلالة على رضا الله عنه، فقد يكون استدراجًا له وإمهالًا، فلا ينبغي أن يغتر هو ولا غيره بذلك.

كما أنه ليس في تضييق الرزق على من ضيق عليه دلالة على سخط الله ونقمته، بل قد يكون نعمة من الله عليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥- ١٧]، أي: كلا، فليس في الإنعام دلالة على الإكرام، وليس في تضيق الرزق وقدره دلالة على الإهانة.

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[1]

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

٨- لا ينبغي الاعتراض على مشيئة الله وقدره في بسط رزق الكفار والعصاة، مع أنهم يزدادون بذلك كفرًا وعصيانًا، فلله في ذلك الحكمة البالغة؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

٩- فرح الكفار بالحياة الدنيا وما بسط لهم فيها من الرزق فرح بطر واختيال وطغيان واغترار؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٠- حقارة الحياة الدنيا، وأنها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فهي متاع قليل حقير سرعان ما يزول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

١١- أن الدار الآخرة هي الحياة الحقة التي يجب العمل لها والعناية بعمارتها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: لهي الحياة حقًّا.

١٢- اقتراح الذين كفروا أن ينزل عليه ﷺ آية من ربه ليصدقوه؛ تعنتًا منهم وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

١٤- جفاء الكفار وسوء تعبيرهم؛لقولهم: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ولم يقولوا: «من ربنا» مع إيمانهم بأن رب الجميع واحد.

١٥- أن ضلال من ضل عن الحق ممن يقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وغيرهم، ليس بسبب عدم إنزال آية عليه ﷺ، فقد أنزل الله عليه أعظم الآيات القرآن الكريم، وإنما لأن الله شاء وحكم كونًا بضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾.

١٦- هداية الله تعالى وتوفيقه إلى الإيمان بالقرآن وتصديقه ﷺ من أناب ورجع إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

١٧- أن مَن تحرَّى الحقَّ، وطلبه وصدق في الطلب هداه الله تعالى إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥- ٧]. وقال ﷺ:

«اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ الآيتين»(١).

١٨- إثبات المشيئة لله تعالى، وأنه يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

١٩- امتداح من أنابوا إلى الله، بإيمانهم واطمئنان قلوبهم بذِكر الله تعالى- القرآن الكريم- وذِكره عز وجل بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار وامتثال أمره ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- اطمئنان القلوب وسكونها وانشراحها بذكر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

٢١- أن القرآن الكريم وذكر الله تعالى فيه الطمأنينة والشفاء لكثير من الأمراض البدنية والاضطرابات النفسية.

٢٢- الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والوعد لهم بالحال الحسنة الطيبة وقرة العين والجنة، وحسن المآب والمرجع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾.

٢٣- أنه لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، ولابد من كون العمل صالحاً، أي: خالصاً لله تعالى، تبعاً لشرعه.

٢٤- أن المهم في العمل كونه صالحًا؛ ولهذا اكتفى بذكر الصفة في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وحذف الموصوف وهي الأعمال.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه، والخطاب للنبي ﷺ، أي: كما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أي: قد مضت وسبقت قبلها أمم كثيرة كافرة أرسلنا إليهم رسلًا من قبلك فكذبوهم وآذوهم، فلك أسوة في أولئك الرسل في صبرهم على ما كذبوا وأوذوا، وللمكذبين من قومك عظة وعبرة بما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات، فليحذروا من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]، أي:

كيف نصرناهم.

وتكذيبه ﷺ أشد وأعظم من تكذيب الرسل قبله؛ ولهذا فعقوبة من كذبه وآذاه وعذابه أشد وأعظم في الدنيا والآخرة.

﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تتلو عليهم، أي: تقرأ عليهم، أي: على أمتك الذي أوحينا إليك من الكتاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: وهؤلاء المشركون المكذبون لك يكفرون بالرحمن ويجحدونه، وينكرون تسميته عز وجل بـ«الرحمن»؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠].

ولهذا لما قال ﷺ في صلح الحديبية: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**» قال سهيل بن عمرو- وكان هو المصالح عن المشركين، وذلك قبل إسلامه- قال: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال النبي ﷺ: «**اكتب: باسمك اللهم**»(١).

وقد قال ﷺ: «**أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن**»(٢).

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد: الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّى﴾، أي: أقر واعترف وأشهد أنه هو وحده ربي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو وحده لا شريك له.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت، وإليه فوضت في جميع أموري.

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣٤- من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الآداب- النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء ٢١٣٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٩، والترمذي في الأدب ٢٨٣٣، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٨- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾، أي: وإليه وحده توبتي وإنابتي، لا يستحق ذلك غيره.

وأصل «متاب»: متابي بإضافة ياء المتكلم، فحذفت تخفيفًا وأبقيت الكسرة دليلًا عليها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة قول المشركين: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفي هذه الآية بيّن أن القرآن الكريم هو أعظم آيات الله وأفضل كتب الله؛ لما فيه من الإعجاز في نظمه وألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه.

وروي أن المشركين من قريش قالوا للنبي ﷺ: لو وسعت لنا أودية مكة، وسيرت جبالها فاحترثناها، وأحييت من مات منا. ونحو ذلك فأنزل الله هذه الآية(٢).

قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، أي: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ من الكتب الإلهية التي أنزلها الله تعالى ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ جنانًا وأنهارًا، وقربت مسافاتها، ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ في قبورهم، أي: لكان هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ؛ لكونه أعظم كتب الله وأفضلها؛ لإعجازه التام، وكونه غاية في الهداية والبيان، والتذكير والتبشير، والإنذار والتحذير، ولكن لم يكن شيء من كتب الله سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، ولو كان منها شيء كذلك لكان هو القرآن الكريم، وفي هذا بيان عظم شأن القرآن الكريم، وأنه أعظم الآيات، وبيان فساد رأي المكذبين، وسفاهة

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٥٣٢).

عقولهم في اقتراحهم من الآيات غيره.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن التقدير: ولو أن قرآنا سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى لما آمنوا، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

واسم القرآن قد يطلق عل كل من الكتب السابقة؛ لأنه مشتق من الجمع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خفف على داود عليه السلام القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القران قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده**»(١).

والمراد بالقرآن هنا «الزبور».

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، «بل» للإضراب، واللام في قوله ﴿لِّلَّهِ﴾ للاختصاص، و«ال» في ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ للجنس والاستغراق، و﴿جَمِيعًا﴾ توكيد، أي: بل لله وحده تدبير الأمور ومرجعها كلها؛ من إنزال الآيات أو عدمه حسب ما تقتضيه حكمته، ومن هداية من شاء بفضله، وإضلال من شاء بعدله، وغير ذلك، فما بال هؤلاء المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون، فليس لهم ولا لغيرهم من الأمر من شيء.

﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلم يتبين ويعلم الذين آمنوا! قال الشاعر:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائيًا(٢)

أي: ألم يعلم ويتبين الأقوام.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، أي: أفلم يتبين ويعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا؛ لقدرته عز وجل التامة على ذلك، ونفوذ مشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ٣٤١٧، وأحمد ٢/ ٣١٤.

(٢) البيت لـ «رباح بن عدي»، انظر: «المحتسب (١/ ٣٥٧).

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾، «بل» للإضراب، أي: بل لله وحده الأمر والشأن كله جميعاً.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾.

هذا وعيد وتهديد للكافرين على تعنتهم وتكذيبهم القرآن الكريم، واستعجالهم العذاب الذي توعدوا به.

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: من أهل مكة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾، أي: تصيبهم بسبب الذي صنعوا وفعلوا من الكفر والتكذيب والعناد والتمادي في الطغيان.

﴿قَارِعَةٌ﴾ مصيبة وفاجعة، من الحوادث المؤلمة.

﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ﴾، أي: أو تنزل قارعة قريبًا من دراهم فترعبهم وتفزعهم.

أي: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بسببهم كفرهم وتماديهم في الطيغان والعناد القوارع والمصائب في أنفسهم وديارهم.

﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾، أي: أو تنزل هذه القوارع والمصائب ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ﴾، أي: من حولهم؛ ليتعظوا ويعتبروا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الأنبياء: ٤٤].

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾، أي: إلى غاية إتيان وعد الله.

و«وعد» من إطلاق المصدر على المفعول، أي: موعود الله، وهو ما وعد الله به المسلمين من الغلبة والنصر في الدنيا والآخرة، وما توعد به الذين كفروا من الهزيمة والقتل على أيدي المسلمين.

كما في بدر وحنين وفتح مكة وغير ذلك، مع ما توعدوا به من العذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ

ﵟٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ﵞ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﵟوَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ﵞ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﵟقُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢ﵞ [آل عمران: ١٢]، وقال تعالى: ﵟسَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ﵞ [القمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﵟيَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦ﵞ [الدخان: ١٦].

ﵟإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَﵞ، أي: لا ينقض وعده لرسله والمؤمنين بنصرهم في الدنيا والآخرة والانتقام من عدوهم، فلا أحد أوفى بعهده من الله؛ كما قال تعالى: ﵟوَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِﵞ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﵟفَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧ﵞ [إبراهيم: ٤٧].

فوعده عز وجل محقق مؤكد قريب.

قوله تعالى: ﵟوَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢ﵞ.

لما ذكر كفر المشركين بالرحمن وبالقرآن، وتكذيبهم للنبي ﷺ واقتراحهم الآيات استهزاءً منهم وعنادًا، أتبع ذلك ببيان أن الاستهزاء حصل للرسل من قبله من الكفار من أقوامهم، فأمهلهم الله ثم أخذهم بعقابه، وفي هذا تثبيت وتسلية له ﷺ عما لقي من قومه من التكذيب والاستهزاء، وتحذير لهم.

قوله: ﵟوَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَﵞ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد استهزئ برسل من قبلك، والخطاب للنبي ﷺ، والاستهزاء: المبالغة في الهزء، والهزء: السخرية والاحتقار والانتقاص، أي: ولقد سخر المكذبون والكفار من الأمم الماضية ﵟبِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَﵞ.

ونكَّر «رسل» للتكثير، أي: برسل كثيرين من قبلك يا محمد، فلست أنت أول رسول استهزئ به وأوذي.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﵟوَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُﵞ [هود: ٣٨]، وقال تعالى: ﵟقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ﵞ [الأعراف: ٦٦].

وقال قوم شعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام، فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢].

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الإملاء: الإمهال والترك مدة، قال تعالى: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، أي: فأمليت للذين كفروا برسلهم، أي: أمهلتهم وأنظرتهم وأجلتهم؛ استدراجًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم ٤٤، ٤٥].

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، أي: ثم أخذتهم بالأخذة الرابية، أي: أهلكتهم بالعقوبة الشديدة؛ كما قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾** [هود: ١٠٢]»(١).

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام: للتعجب، أي: فكيف كان عقابي، وحذفت الياء تخفيفًا، مع مراعاة الفواصل.

أي: فكيف كان عقابي لهم، أي: كان عقابًا شديدًا أليمًا، أي: فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا لهم، فلهم أسوة فيمن قبلهم، وفي هذا تحذير وتهديد لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٦، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

لما ذكر كفر المكذبين وشركهم، وتوعدهم وهددهم بالعذاب في الدنيا والآخرة، بيَّن سفاهة عقولهم، وأنكر عليهم كيف يجعلون لله تعالى القائم على كل نفس بما كسبت شركاء ليس لهم من الأمر شيء، ويسوون بينهم وبين الخالق العظيم المالك المدبر تعالى الله عما يشركون.

قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والتقرير، أي: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، وحفظًا ورقابةً عليها ورزقًا لها وعلمًا بأحوالها وأعمالها ومحاسبةً ومجازاةً لها بما كسبته من خير أو شر، وهو الله عز وجل الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له ولا ندَّ ولا نظير.

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

وضمن «قائم» معنى «رقيب» أو حفيظ؛ ولهذا عدي بـ «على» وأصل «قائم» مأخوذ من القيام وهو الملازمة؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وخبر قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ محذوف دلت عليه جملة ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس كمن ليس كذلك، وحذف لدلالة السياق عليه.

والباء في قوله ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ للملابسة، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كسبته، أو بكسبها، أي: قيامًا موافقًا لأعمالها خيرًا كانت أو شرًّا.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: وجعلوا له تصريحًا بأنه المراد في الموصول السابق، زيادة على التصريح بالحجة.

﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾، أي: قل لهم يا محمد: سموا هؤلاء الشركاء الذين جعلتموهم مع الله، وأعلمونا بهم، واكشفوا عنهم وصفوهم؛ لنعلم حالهم، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ويجوز كون هذا من باب التهكم وعدم المبالاة بهم، أي: سموهم ما شئتم فليس لهم حظ إلا التسمية دون مسمى الشريك.

كما قال تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وفي الآية تسفيه لأحلامهم بأنهم ألَّهوا ما لا حقائق لها، فلا شبهة لهم في ذلك.

﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

و«أم» في قوله ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ هي: المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للاضطراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتنبئونه، والضمير يعود إلى «الله»، أي: بل أتخبرون الله.

﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، «ما»: موصولة، أي: بالذي لا يعلمه في الأرض، أي: أتخبرون الله بشركاء لا يعلمهم ولا وجود لهم في الأرض؛ لأنه لو كان له شركاء لهم وجود في الأرض لعلمهم؛ لأنه عز وجل عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، أي: أم تنبئونه بظاهر من القول لا حقيقة له.

أو أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول وباطل وكذب لا حقيقة له؛ كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٠، الأحزاب: ٤].

وأعيدت الباء في قوله ﴿بِظَٰهِرٖ﴾؛ للتأكيد.

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾، ﴿بَلۡ﴾ للإضراب الإبطالي، إضراب عن الاحتجاج عليهم بإبطال إلهية أصنامهم إلى كشف السبب فيما وقعوا فيه، وهو تزيين المكر لهم، فلم ينتفعوا بالآيات والحجج والدلائل، وعبدوا آلهة باطلة ليس لها من الأمر شيء.

أي: بل زين وحسن للذين كفروا ما هم عليه من الكفر والاستهزاء والشرك والضلال، أي: زين لهم ذلك كونًا وقدرًا، وزينه لهم الشيطان وقرناؤهم من شياطين الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الصاد: «وصَدُّوا»، أي: لما زُين لهم مكرهم وما هم عليه من الباطل، دعوا الناس إليه وصدوهم وصرفوهم عن صراط الله المستقيم، ودينه القويم.

وقرأ الباقون بضم الصاد: ﴿وَصُدُّواْ﴾، أي: وصدوا عن الطريق المستقيم بما زُين لهم من المكر وصحة ما هم عليه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾، كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الآية: ٢٣].

«من» شرطية، و«يضلل» فعل الشرط، أي: ومن يضلل الله كونًا وقدرًا، أي: يقدر

عليه الضلال.

﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ جواب الشرط «من»، والفاء واقعة في جواب الشرط، و«ما» نافية، أي: فليس له ﴿مِنْ هَادٍ﴾.

و«من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: فليس له أيُّ هادٍ يهديه من بعد الله.

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٧﴾ [النحل: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٣٤﴾.

لما ذكر استهزاء الكفار وشركهم ومكرهم وصدهم عن السبيل وضلالهم، أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم بما لهم من عذاب في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لهؤلاء المشركين الضالين ﴿عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر على أيدي المؤمنين، وبما يحل بهم من العقوبات، وبما هم فيه من الحيرة والقلق، بسبب كفرهم، ونكّر «عذاب»؛ للتعظيم والتهويل.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة في النار المعد لهم ﴿أَشَقُّ﴾، أي: أشد مشقة من عذاب الدنيا؛ لشدته وعظمته وكثرته ودوامه وأبديته، بخلاف عذاب الدنيا فإنه مهما عظم فله انقضاء وانتهاء؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

وقال ﷺ: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»(١).

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، «من» في قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما لهم من الله من أيِّ واق يقيهم عذابه، أي: يحول بينهم وبينه، فيمنعه عنهم قبل وقوعه، أو يرفعه عنهم بعد وقوعه، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

لما ذكر ما أعد للكافرين المكذبين من عذاب الدنيا والآخرة وعيدًا وتهديدًا لهم، أتبع ذلك بذكر ما وعد الله به المتقين من الجنة، وما فيها من النعم، على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: صفة الجنة وحقيقتها ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: التي وعد الله بها المتقين، الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار؛ كما قال تعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]؛ أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿أُكُلُهَا﴾، أي: مأكولها وثمرها، وما فيها من المطاعم والفواكه والمشارب ﴿دَآئِمٌ﴾ لا انقطاع له ولا فناء؛ كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم في اللعان ١٤٩٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٣، والترمذي في الطلاق ١٢٠٢- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله: رأيناك تناولت شيئًا، ثم تكعكعت، قال: «**إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»(١).

﴿وَظِلُّهَا﴾ معطوف على ﴿أُكُلُهَا﴾، أي: وظلها دائم بلا شمس؛ لكثرة أشجارها والتفافها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ١٦]، وقال تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

قال ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها. ثم قرأ: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾**»(٢).

﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الإشارة إلى الجنة بصفاتها، بحيث صارت كالمشاهدة، أي: تلك الجنة العظيمة بصفاتها الجليلة عاقبة ومآل الذين اتقوا الله وخافوه؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، أي: عاقبتهم ونهايتهم النار، أي: المصير إلى النار، وهذا كالبيان لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وشتان بين من كانت عقباهم الجنة فنعم عقبى الدار، وبين من كانت عقباهم النار ولهم سوء الدار؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٤٨، ومسلم في الكسوف ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من الجنة والنار ٩٠٧، والنسائي في الكسوف ١٤٩٣.

(٢) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بخطاب الله عز وجل له: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ الآية.

٢- أن الرسول ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأمته ليست بدعًا من الأمم، فقد خلت من قبلها أمم كثيرة أرسل الله إليهم الرسل فكذبوهم وآذوهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه، وتحذير للمكذبين من قومه.

٣- أنه ما من أمة من الأمم السابقة إلا أرسل الله فيهم رسولًا ونذيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾، أي: أرسل الله إليهم الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

٤- أن الحكمة من إرساله ﷺ ليتلو على أمته ويبلغهم ما أوحاه الله تعالى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

وهي الحكمة من إرسال جميع الرسل، فهم كلهم مبلغون عن الله وحيه ورسالاته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

٥- أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنما يتلو ويبلغ ما أوحاه الله تعالى إليه.

٦- كفر المشركين وجحودهم وإنكارهم لاسمه عز وجل: «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٧- إثبات اسمه عز وجل «الرحمن» وصفة الرحمة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾.

٩- إثبات وحدانية الله عز وجل وأنه لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- توكله ﷺ على ربه وحده تمام التوكل وتفويضه إليه؛ لقوله ﷺ: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، وللمؤمنين الأسوة فيه ﷺ في وجوب التوكل على الله عز وجل.

١١- توبته ﷺ إلى الله عز وجل وحده؛ لقوله ﷺ: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾، أي: إليه متابي، وقد قال ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة**»(١).

١٢- شدة تعنت المشركين وعنادهم وتكذيبهم القرآن أعظم كتب الله تعالى واستهزاؤهم، واقتراحهم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

١٣- أنه لو كان كتاب من كتب الله تعالى سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى لكان ذلك الكتاب هو القرآن الكريم؛ لأنه أعظم كتب الله عز وجل، وأفضل الكتب على الإطلاق.

١٤- أنه ليس من شأن كتب الله تعالى لا القرآن ولا غيره من كتب الله، تسيير الجبال، أو تقطيع الأرض، أو تكليم الموتى.

١٥- أن لله عز وجل وحده جميع الأمور من إنزال الآيات أو عدمه، وهداية من شاء وإضلال من شاء وغير ذلك، حسب ما تقتضيه حكمته وفضله وعدله؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾.

١٦- علم المؤمنين وتبينهم، بل وتيقنهم بأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعًا؛ لتمام قدرته على ذلك ونفوذ مشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾.

١٧- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية.

١٨- تحذير الذين كفروا وتذكيرهم بما يصيبهم من القوارع والمصائب- بسبب تماديهم في الكفر والطغيان- في أنفسهم ودارهم، أو قريبًا منها؛ ليعتبروا ويتعظوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾.

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠، وأبو داود ١٥١٥- من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

١٩- تحذير الذين كفروا وتهديدهم بإتيان وعد الله بهزيمتهم وقتلهم على أيدي المسلمين ونصر المسلمين عليهم في معارك الإسلام كبدر وحنين وفتح مكة وغير ذلك، وبعذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- أن الله تعالى لا يخلف وعده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

٢١- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه بذكر استهزاء الكفار والمكذبين بالرسل من قبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢٢- تحذير كفار مكة المكذبين له ﷺ المستهزئين به مما حل بمن قبلهم من المستهزئين بالرسل من شديد العقاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

٢٣- أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، ويملي للكافرين؛ استدراجًا لهم، ثم يأخذهم بالعقاب الشديد، أخذ عزيز مقتدر.

٢٤- الإنكار على المشركين في جعلهم لله تعالى القائم على كل نفس بما كسبت شركاء في العبادة، ليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وتسويتهم بالله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

٢٥- أن الله عز وجل وحده هو القائم على كل نفس بما كسبت، القيوم على جميع الخلق، خلقًا وملكًا تدبيرًا، رزقًا ومحاسبةً وجزاءً، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وهو الله عز وجل.

٢٦- عظم حاجة الخلق إلى الله عز وجل؛ لأنه القائم على كل نفس بما كسبت، وقيام الخلق كلهم به، مما يوجب التوكل عليه، والاستعانة به، واللواذ به، والتضرع إليه.

٢٧- أن ما اتخذه المشركون من شركاء مع الله مجرد أسماء لا حقيقة لها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.

٢٨- أن المشركين في اتخاذهم مع الله شركاء لا وجود لهم ولا حقيقة أشبه بمن يُنبئ الله ويخبره بما لا يعلمه في الأرض؛ لأنهم لو كان لهم وجود في الأرض لعلمهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢٩- أن جعل المشركين وتسميتهم شركاء مع الله ما هو إلا مجرد ظاهر من القول لا حقيقة له؛ لقوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

٣٠- أن ما عليه الكفار من المكر والكفر والاستهزاء والضلال زين لهم كونًا وقدرًا، وزينه لهم شياطين الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾.

٣١- أنه بتزيين المكر لهؤلاء الكفار صُدوا عن سبيل الحق وعن الطريق المستقيم، كما صَدوا هم غيرهم عنه بكفرهم ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٣٢- أن طريق الحق وسبيله واحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بالإفراد.

٣٣- أن من أضله الله كونًا وقدرًا فليس له من هاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٣٤- التهديد والوعيد للكفار بالعذاب في الحياة الدنيا، وبالعذاب الأشق في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾.

٣٥- أن عذاب الآخرة أشق وأشد وأكبر من عذاب الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾.

٣٦- أنه لا واقي للكفار من الله تعالى وعذابه، فلا أحد يمنعه عنهم قبل وقوعه، ولا يرفعه بعد وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

٣٧- بيان مثل الجنة التي وعد الله بها المتقين وصفتها وحقيقتها، فهي تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة، وأكلها وطعامها وشرابها دائم، وظلها دائم لا شمس فيها؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾.

٣٨- تعظيم الجنة وما أعد للمتقين فيها، والبشارة لهم بحسن العقبى؛ لقوله

تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾.

٣٩- الترغيب في تقوى الله تعالى.

٤٠- أن عقبى الكافرين ومآلهم ونهايتهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

٤١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ
مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ
مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ
وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ
وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا
مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ
يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ
مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهم أهل الكتاب القائمون بمقتضى ما أنزل الله في التوراة والإنجيل، المنصفون المتجردون عن العصبية.

﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، أي: يفرحون بالذي أنزل إليك يامحمد من القرآن الكريم ويستبشرون به، ويؤمنون به ويصدقونه؛ لما في كتبهم من البشارة به والشواهد على صدقه، ولما فيه من تصديق ما أنزل إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩ ١٠٩﴾ [الإسراء:

١٠٧ - ١٠٩].

أي: إن كان ما وعدنا ربنا به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ حقًّا وصدقًا مفعولًا وكائنًا لا محالة.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، أي: ومن الطوائف والفرق من أهل الكتاب والمشركين المتحزبين المجتمعين على الكفر.

﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، «من»: موصولة، أي: الذي ينكر بعض القرآن، مما لا يوافق معتقده أو هواه، فيجحده ولا يصدقه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧].

وقد توعَّدهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾، أي: قل يا محمد للفريقين وللناس كافة: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أمرت إلا أن أعبد الله وحده، وجملة ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أمرت»، أي: إنما أمرت أن أعبد الله وحده، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: إنما أمرت بعبادة الله وحده.

﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ معطوف على جملة ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، أي: وأمرت بأن لا أشرك به أي شيء من أنواع الشرك، ولا أيَّ شيء من الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾، أي: إليه عز وجل وحده، وإلى سبيله وتوحيده أدعو الناس، أي:

ما أمرت إلا بالتوحيد والدعوة إليه، كما هي طريقة الرسل من قبلي؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾، أي: وإليه عز وجل مآبي، وحذفت الياء للتخفيف ومراعاة الفواصل.

أي: وإليه وحده مآبي ومرجعي في جميع أموري في الدنيا، ومصيري في الآخرة، وعليه حسابي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ الكاف للتشبيه، والإشارة لإنزال القرآن، والضمير الهاء يعود إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: يعود إلى القرآن الكريم.

﴿حُكْمًا﴾ حال، أي: حال كونه «حكما»، أي: حال كونه ذا حكم وحكمة، أي: ذا حكم بالعدل والحق، وذا حكمة، أي: محكمًا متقنًا؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس: ١].

﴿عَرَبِيًّا﴾ حال ثانية، ولا يصح أن تعرب صفة، أي: حال كونه عربيًّا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥].

فاجتمع فيه الكمالان: الكمال من جهة معانيه ومقاصده بكونه حكمًا وحكمةً، والكمال من جهة ألفاظه بكونه عربيًّا.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن اتبعت أهواء هؤلاء المكذبين.

﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أي: بعد الذي جاءك من الله تعالى من العلم والوحي

بالقرآن الكريم.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما لك من دون الله، ولا غير الله.

﴿مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لك من دون الله أيّ ولي يتولاك ويجلب النفع لك، ولا أيّ واق يقيك ويدفع الضر عنك، وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه أن يتبع أهواءهم بما يقترحون عليه من طلب إنزال آية غير القرآن والمداهنة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ [القلم: ٩].

وفي هذا وعيد وتحذير لأهل العلم أن يتّبِعوا سُبُلَ أهل الأهواء والضلال مع ما منحهم الله تعالى من العلم بالحق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد، أي: فلست بدعًا من الرسل، ولا أول رسول.

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، «الأزواج»: جمع «زوج»، أي: جمع زوجة، وهو من مقابلة الجمع بالجمع، فبعض الرسل لم يكن له إلا زوجة واحدة، كنوح ولوط عليهما السلام، ومنهم من كان له عدة زوجات؛ مثل: إبراهيم وموسى وداود وسليمان عليهم السلام.

﴿وَذُرِّيَّةٗ﴾، أي: وجعلنا لهم ذرية، أي: نسلًا من الأولاد الذكور والإناث، علمًا أن أكثر ذرية الأنبياء بنات؛ حكمة بالغة.

وفي هذا رد لقول المشركين لو كان نبيًّا من جنس الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: ٧].

فاقترحوا أن يكون الرسول من الملائكة، وكيف يكون بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ كما قالوا، وكيف يتزوج النساء ويولد له؟ فبيّن عز وجل أن شأنه ﷺ

شأن الرسل من قبله، كلهم من البشر ولهم أزواج وذرية؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾، أي: وما كان ممكنًا ولا مستطاعًا لرسول؛ أيًّا كان من الرسل، ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخَّر، أي: وما كان لرسول الإتيان بآية، أي: بخارق للعادة كما يقترحون.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا بإذن الله تعالى وأمره الكوني والشرعي، أي: ليس ذلك إليه، بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وفي هذا رد على اقتراحهم عليه ﷺ الإتيان بآية.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أي: لكل أجل من الآجال؛ لإتيان الآيات، وإنفاذ الوعيد، ومجيء العذاب.

و«الأجل»: الوقت الموقت لحصول موعود أو أمر من الأمور.

﴿كِتَابٌ﴾، أي: مكتوب محدد لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه من إتيان الآيات، ومجيء العذاب وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بسكون الثاء وتخفيف الباء، وقرأ الباقون بفتح الثاء وتشديد الباء: «يُثَبِّت».

والمحو: الإزالة، ويطلق على تغيير الأحوال وتبديل المعاني، قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

والتثبيت: جعل الشيء ثابتًا قارًّا في مكان أو على حال، قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

أي: يمحو الله الذي يشاء من الأحكام والأقدار والأرزاق والآجال وغير ذلك، ويبدله وينسخه، ويثبت منها ما يشاء؛ لكمال تصرفه، وتمام قدرته، وواسع علمه، وبالغ حكمته ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أم الكتاب: اللوح المحفوظ الذي كتب الله عز وجل فيه مقادير كل شيء، ما يمحى ويبدل وينسخ، وما يثبت، وغير ذلك.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من القرآن، يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب؛ الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كل ذلك في كتاب»(١).

وقال قتادة: «قوله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ هي مثل قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]»(٢).

فيمحو الذي يشاء من الأقدار، ويثبت منها ما يشاء، ويزيل ما يشاء من الموجودات، ويبقي منها ما يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

ويعفو عما يشاء من الوعيد، ويقر ما يشاء، وينسخ ما يشاء من النصوص والأحكام، ويحكم منها ما يشاء، وغير ذلك.

وذلك وفق ما قدره في الأزل وسبق به علمه وجرى به قلمه، من جعل أسباب يترتب عليها المحو والإثبات.

كما جعل عز وجل البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وجعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، كما جعل التعرض للمهالك سببًا للهلاك والعطب، والبعد عنها سببًا للسلامة؛ ولهذا ثبت أن المدمنين على المخدرات والدخان أقل أعمارًا من غيرهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٥٦٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٥٦٧.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه؛ ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر**»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾، «إن»: شرطية، و«ما»: مزيدة، فأكد هذا الشرط بـ«ما» المزيدة ونون التوكيد، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، أي: بعض الذي نعد المكذبين من قومك من العذاب والخزي والنكال، بأن نعذبهم في الدنيا في حياتك، فتشاهد ما حل بهم من العقاب، وتقر به عينك.

أي: لا تعجل عليهم بوقوع ما يوعدون من العذاب، فهو واقع بهم لا محالة عن قريب، إن استمروا في طغيانهم وكفرهم.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، أي: قبل إنزال الوعيد بهم، وقد أرى الله نبيه ﷺ ما قرت به عينه، مما توعد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر، ويوم فتح مكة، ويوم حنين.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ الفاء تعليلية، و«إنما» أداة حصر، أي: ما عليك إلا البلاغ فقط؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨]، أي: ما عليك إلا إيصال رسالة ربك إليهم وتبليغهم إياها، وبيان الحق لهم، وليس إليك أمر إنزال الآيات، أو تعجيل العذاب؛ ولهذا قال:

﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، أي: وعلينا حسابهم وحساب جميع الخلائق وجزاؤهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٢.
(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣.

وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أو لم ير هؤلاء المكذبون، أي: يشاهدوا بأبصارهم آثار نقص الأرض من أطرافها، أي: نواحيها ويعلموا ما حل بالأمم المكذبة قبلهم من الهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧]، و«يروا» أيضًا، أي: يشاهدوا ويعلموا ما يحل بأرضهم والأرض من حولهم من النقص في الأنفس والثمرات وقلة الخيرات ومحق البركات، أو فتح المسلمين لها بلدًا بلدًا.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد أن نقص الأرض من أطرافها: موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها[1]. قال الشاعر:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلف[2]

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ الجملة فيها حكم التعليل لما قبلها، أي: لأن الله يحكم، أي: يحكم بما شاء، له الحكم القدري، والحكم الشرعي والحكم الجزائي؛ لتمام قدرته وكمال عدله وحكمته، وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: وهو يحكم؛ تعظيمًا لنفسه وتأكيدًا لوحدانيته في إلهيته المقتضية عدم المنازع.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٣/ ٥٧٩.
(٢) البيتان لأحمد بن غزان، انظر: «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٩٣.

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: نافذًا حكمه، لا راد ولا مبطل له.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾، أي: وهو سريع الحساب؛ لأن حسابه آت، وكل آت قريب؛ ولأن عمر الإنسان في هذه الحياة مهما طال فهو قصير؛ ولأن الإنسان يجد في الحياة شيئًا من جزاء عمله معجلًا فيسعد بفعل الطاعة، ويحصل له من الشقاء بقدر ما يرتكبه من المخالفة والمعصية؛ ولأن الله عز وجل لا يحتاج إلى طويل وقت لحساب الخلائق؛ لأنه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم وأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤]، وإذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾ [الأنعام: ٦٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾.

قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: مكر هؤلاء المكذبون بكفرهم وتكذيبهم وكيدهم له ﷺ ولدعوته، وقد مكر الذين من قبلهم من الأمم بكفرهم وتكذيبهم لرسلهم وكيدهم لهم.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام للاختصاص، ﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: فلله وحده خاصة المكر جميعًا، لا لغيره؛ لأن مكره لا يدفعه دافع ولا يمنعه مانع، فمكر غيره بالنسبة لمكره كالعدم؛ ولهذا مكر بالذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة، فأحل بهم عظيم عقابه وأهلكهم، وسيمكر بهؤلاء المكذبين كما مكر بالذين من قبلهم، فهذه سنته في المكذبين؛ قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٠- ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ، أي: لأنه يعلم الذي تكسبه، أي: الذي تعمله كل نفس من خير أو شر، من ظاهر الكسب وباطنه؛ لهذا كان له المكر جميعًا، وكان مكره أشد وأعظم، وفي هذا إنذار وتحذير للمكذبين، وبشارة للرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وأبو جعفر بالإفراد: «الكافر»، وقرأ الباقون: ﴿الْكُفَّارُ﴾ بالجمع.

أي: وسيعلم الكفار مستقبلًا لمن تكون عقبى الدار ونهايتها، أهي لهم أو للمتقين من الرسل وأتباعهم، أي: لمن تكون العاقبة الحميدة، وأنها للمتقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وفي هذا تعريض بالوعيد للكفار، وأن دائرة السوء ستكون عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: ويقول الذين كفروا من قريش وأهل مكة تكذيبًا لرسالتك: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: ما أرسلك الله، ولست رسولًا.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ الباء: مزيدة للتأكيد، أي: كفى الله، أي: حسبي الله.

﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: شهيدًا عليّ بصحة ما جئتكم به وثبوت رسالتي، بقوله عز وجل فيما أوحاه تعالى إليَّ من القرآن؛ قال تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣].

وبفعله بتأييده ونصره لي، وبإقراره لي؛ فلو تقولت عليه لعاجلني بالعقوبة.

وشهيدًا أيضًا على تبليغكم رسالته عز وجل إليكم، وشهيدًا بيني وبينكم على ما قابلتموني به من التكذيب والكفر.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: اسم موصول معطوف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾، أي: كفى بالله شهيدًا، والذي عنده علم الكتاب من أهل الكتاب اليهود والنصارى الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم

المتقدمة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء: ١٩٧]؛ منهم ورقة بن نوفل وغيره، وإنما استشهدهم لأنهم- وخصوصًا من آمن منهم وشهد بالحق- أهل هذا الشأن؛ لما عندهم من علم بالكتب المتقدمة.

الفوائد والأحكام:

١- فرح أهل الكتاب واستبشارهم وإيمانهم وتصديقهم بما أنزل على النبي ﷺ من القرآن الكريم؛ لما في كتبهم من البشارة به والشهادة على صدقه، ولما فيه من تصديق ما أنزل إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٢- إنكار بعض الأحزاب من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار بعض ما أنزل من القرآن مما لا يوافق أهواءهم ومعتقداتهم الباطلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٥- أن الرسول ﷺ إنما أمر بعبادة الله تعالى وحده وألا يشرك به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾.

٦- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والبعد عن الشرك؛ لأن الله أمر به رسوله ﷺ، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٧- أن الشرك يضاد التوحيد وينافيه، ولا يجتمع معه أبدًا.

٨- أنه ﷺ إنما أمر بالدعوة إلى الله تعالى وتوحيده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾

٩- أن المآب والمرجع إلى الله في جميع الأمور، والمصير في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

١٠- الامتنان والتنويه بكون القرآن ذا حكم بالحق والعدل وذا حكمة، أي: محكمًا

متقنًا، وبكونه عربيًّا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

١١- التحذير من اتباع أهواء أهل الكتاب والمشركين بعد نزول القرآن وظهور الحق، وأنه لا ولي من الله ولا واق لمن اتبع أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

١٢- ليس في تحذيره ﷺ من اتباع أهواء أهل الكتاب دلالة على وقوع ذلك منه، فلا غضاضة في ذلك، وقد قال الله تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، بل فيه تحذير للأمة- وخصوصًا علماءها- من اتباع سبل أهل الأهواء بعد ظهور الحق لهم وعلمهم به.

١٣- أنه ﷺ ليس بدعًا من الرسل الذين قبله، الذين جعل الله لهم أزواجًا وذرية، بل له الأسوة بهم في ذلك، فلا يقدح في رسالته ﷺ كونه له أزواج وذرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

١٤- أن الإتيان بالآيات وخوارق العادات والمعجزات ليس أمره إلى الرسل، بل إلى إذن الله عز وجل وأمره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٥- أن لكل أجل ووقت- لإتيان الآيات، وإنفاذ الوعيد، ومجيء العذاب، وغير ذلك- كتابًا مكتوبًا محددًا لا يتجاوزه؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

١٦- محو الله عز وجل لما يشاء من الأحكام والأقدار والأرزاق والآجال، وإثبات ما يشاء منها؛ لقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ .

١٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٨- كتابة الله عز وجل مقادير كل شيء في أم الكتاب عنده- اللوح المحفوظ- مما يشاء محوه ومما يشاء إثباته، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

١٩- تأكيد الله عز وجل لنبيه ﷺ وقوع العذاب الدنيوي العاجل بالمكذبين؛ إما في حياته ﷺ بحيث يراه، وإما بعد وفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى

نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

وقد أراه عز وجل ما قرت به عينه ﷺ من هلاك الكثيرين منهم بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين.

٢٠- أن الرسول قد يتوفى ولا يرى ما توعد الله به المكذبين من قومه أو بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، أي: قبل ذلك.

٢١- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ الرسالة، وعلى الله عز وجل الحساب، أي: محاسبة الخلائق ومجازاتهم بأعمالهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

٢٢- الإنكار على المكذبين عدم النظر والاعتبار بنقص الأرض من أطرافها بما يحل فيها من القوارع وهلاك الأنفس والثمرات ومحو البركات، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

٢٣- أن في حلول المصائب والكوارث في الأنفس والأموال والديار ما يوجب التفكر والاعتبار واستبانة الحق لذي عينين.

٢٤- حكم الله عز وجل في الخليقة ما شاء من أحكام قدرية وشرعية وجزائية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾.

٢٥- نفوذ حكم الله تعالى، فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾.

٢٦- سرعة حساب الله عز وجل للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٢٧- مكر المكذبين من الأمم السابقة، وكيدهم لرسلهم، وكفرهم بما جاؤوا به من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، ومكر الله تعالى بهم باستدراجهم وأخذهم بأنواع العقوبات الشديدة والمثلات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أي: فمكر الله تعالى بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ

وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

٢٨- أن لله عز وجل المكر جميعًا؛ لسعة علمه وتمام قدرته، فهو خير الماكرين، ومكره لا يدافع ولا يمانع، ومكر غيره بالنسبة لمكره أشبه بالعدم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾.

٢٩- تحذير المشركين وتهديدهم بأن يحل بهم ما حل بالمكذبين الماكرين قبلهم من العقوبات.

٣٠- علم الله عز وجل وإحاطته بما تكسبه كل نفس؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾، وفي هذا تحذير من كسب الشر، ووعيد لمن كسبه، وترغيب في كسب الخير، ووعد لمن كسبه.

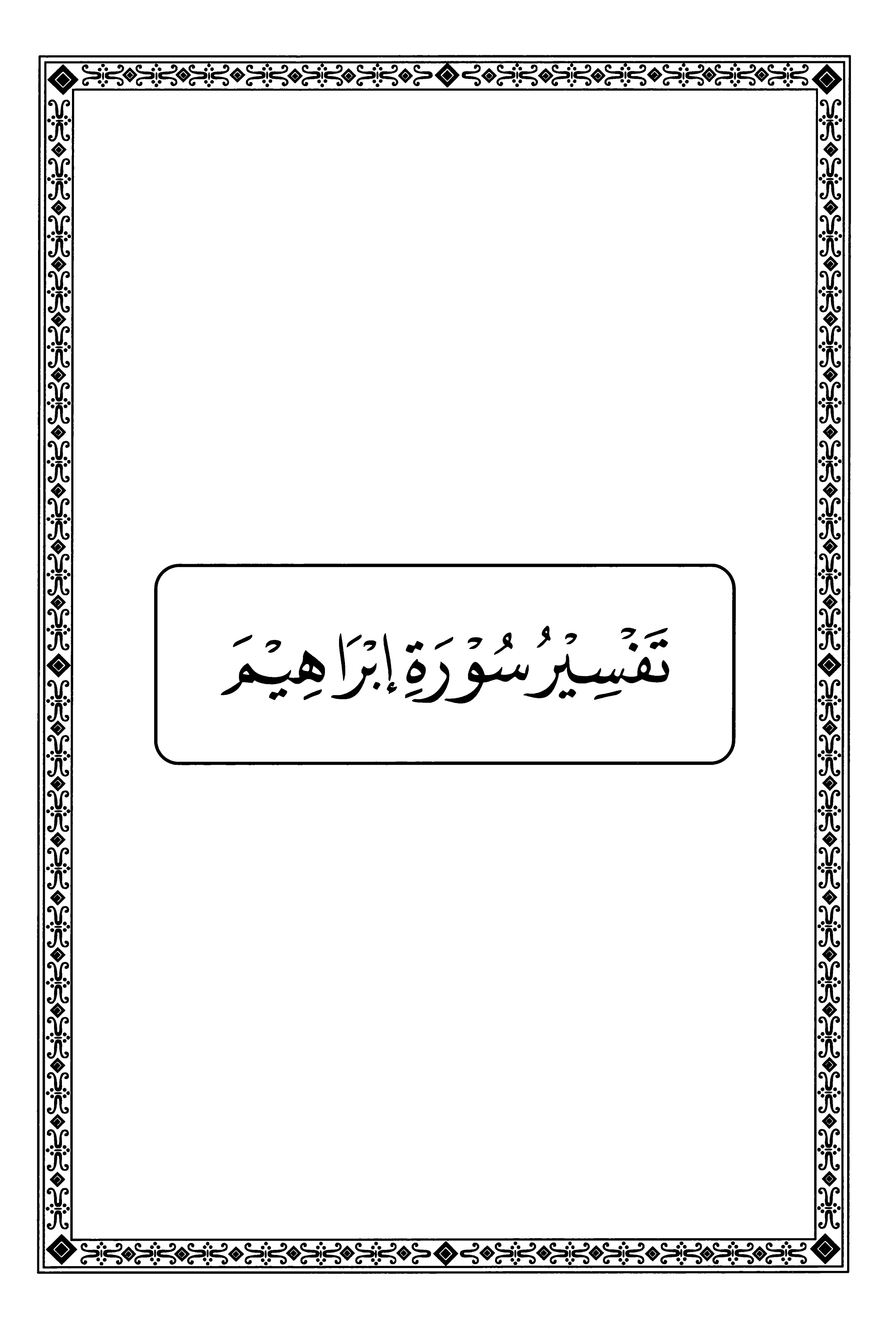
٣١- الوعيد والتهديد للكفار بسوء العاقبة، والوعد للرسول ﷺ والمؤمنين بحسن العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أي: وسيعلم الكفار مستقبلًا لمن تكون عقبى الدار الحسنة، وأنها للمؤمنين، وأن لهم سوء الدار.

٣٢- إنكار الكفار لرسالته ﷺ وتكذيبهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾.

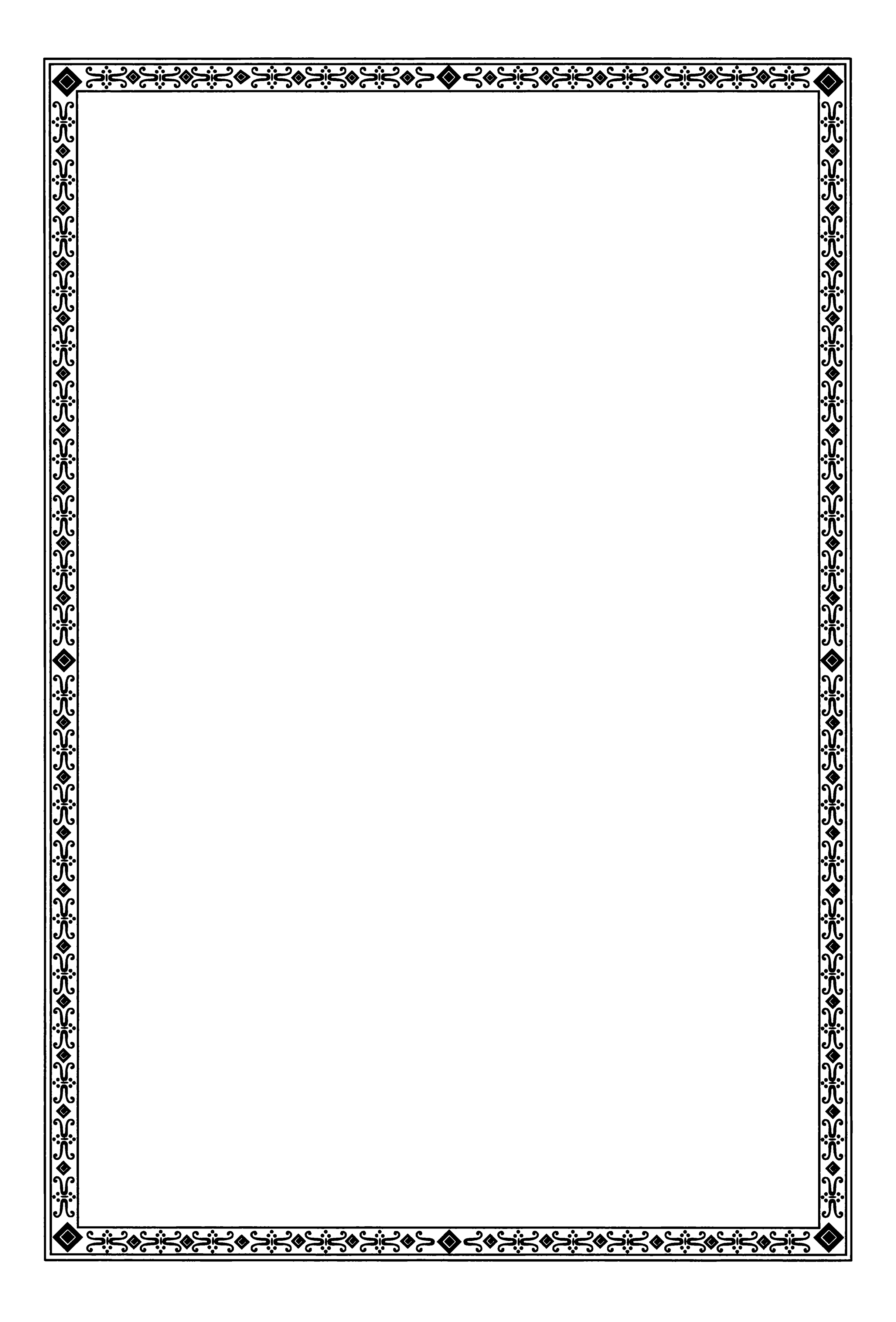
٣٣- كفايته عز وجل شهيدًا على صدق رسوله ﷺ فيما جاء به، بوحيه عز وجل إليه، وتأييده له ونصره، وإقراره له، وشهيدًا على كفر المشركين وتكذيبهم له ﷺ، وعلى تبليغه رسالة ربه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: حسبي الله شهيدًا بيني وبينكم فهو خير الشاهدين.

٣٤- شهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى المنصفين بصدقه ﷺ فيما جاء به، وتصديقه والإيمان به؛ وذلك لتصديق كتبهم وبشارتها به، وتصديقه لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ



المقدمــة

أ- اسم السورة:

سميت سورة إبراهيم بهذا الاسم؛ لذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيها، ودعواته التي تضرع بها إلى ربه عز وجل في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

جمهور العلماء على أنها مكية، وقيل: فيها آيتان نزلتا في المدينة، وهما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾، قيل: نزلتا في قتلى بدر من المشركين.

والصحيح: أنها كلها مكية.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة إبراهيم بتعظيم القرآن الكريم، وبيان الحكمة من إنزاله، وهي إخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان، وسلوك صراط الله المستقيم، وبيان سعة ملك الله تعالى وتمام قدرته، ووعيد الكافرين الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله، وبيان شدة ضلالهم، وبيان أنه عز وجل ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم؛ لطفاً منه بعباده، وامتناناً عليهم، فيضل عز وجل من يشاء بعدله ويهدي من يشاء بفضله، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

٢- ذكر إرساله عز وجل موسى عليه السلام بالآيات، لنفس الحكمة التي أنزل من أجلها القرآن الكريم وتذكيره لقومه بنعم الله عليهم، وإنجائهم من آل فرعون، وتحذيرهم من كفر نعم الله، وبيان أن النعم تزيد بشكرها، وأن الله غني عن العالمين ولا يضره كفر من كفر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

٣- بيان ما حل بالأمم السابقة الذين كفروا بما أرسل رسلهم، وشكوا في دعوتهم. وتأكيد رسلهم ثبوت وأحقية ما دعوهم إليه، واعتراض هؤلاء الكفار على رسلهم بأنهم بشر مثلهم، وتحديهم لهم بالإتيان بحجة بينة. ورد الرسل عليهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ ﴾ إلى قوله : ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾.

٤- تهديد الذين كفروا لرسلهم بإخراجهم من أرضهم إن لم يعودوا في ملتهم، ووعد الله لرسله بالنصر والتمكين، وإهلاك الظالمين، وإسكانهم مكانهم، وتهديد الجبارين المعاندين بالخيبة، و بجهنم وصديدها وعذابها الغليظ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ ﴾.

٥- تصوير أعمال الذين كفروا بربهم في بطلانها واضمحلالها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ

ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

٦- التنبيه على الغاية من خلق الله السموات والأرض، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

٧- بيان سوء حال التابعين والمتبوعين من أهل الباطل يوم القيامة، وعدم إغناء بعضهم عن بعض، وتحتم مصيرهم جميعاً إلى العذاب، قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

٨- براءة الشيطان من بني آدم يوم القيامة، واعترافه بأن وعد الله هو الحق، وإلقاؤه الملامة عليهم في استجابتهم لدعوته وتبعيتهم له، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

٩- وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم الجنات وخلودهم فيها، وما لهم فيها من النعيم.

١٠- تشبيه الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، وكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة، ووعده عز وجل بتثبيت الذين آمنوا، ووعيده بإضلال الظالمين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

١١- ذم حال المكذبين الذين استبدلوا نعمة الله عليهم بالكفر والشرك بالله، وحلول دار البوار جهنم، والمصير إلى النار، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟

نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

١٢- أمر الله عباده بإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله سراً وعلانية، ما داموا في زمن الإمهال، قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

١٣- إثبات كمال قدرة الله تعالى، وتعداد نعمه على خلقه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

١٤- ذكر دعاء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام بالأمن، وله ولبنيه بتجنيبهم عبادة الأصنام، وذكر إسكانه من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام لإقامة الصلاة ودعائه بجعل أفئدة من الناس تهوي إليه، ورزقهم من الثمرات ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

١٥- ثناء إبراهيم عليه السلام على ربه بعلمه بما يخفى وما يعلن وعلمه بكل شيء، وسماعه الدعاء، وحمده على هبته له إسماعيل وإسحاق، ودعائه ربه أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته وأن يتقبل دعاءه، وسؤاله المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم القيامة.

١٦- بيان عاقبة الظالمين، وتهديدهم ووعيدهم بعذاب يوم القيامة وأهواله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ .

١٧- أمر الرسول ﷺ بإنذار الناس، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى. وسؤال الظالمين تأخيرهم؛ لإجابة دعوته وإتباع الرسل. وتقريعهم وتوبيخهم على ما كان منهم في الدنيا من إنكار الآخرة والمكر الكبار، وبيان مكرهم وكيدهم لرسول الله ﷺ، قال تعالى : ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

١٨- بيان صدق وعده عز وجل رسله بنصرهم وإثابتهم، والانتقام من الظالمين، قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

١٩- وصف أحوال يوم القيامة، وأهواله، وحال المجرمين فيه، وبيان عدل الله جل شأنه، ومجازاة كل بما عمل، وسرعة حسابه، وأن هذا القرآن بلاغ للناس يرتقون به إلى أعلى المقامات، وإنذار لمن خالفه، ودليل على وحدانية الله تعالى في إلوهيته وربوبيته وتذكير لأولي الألباب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾.

قوله: ﴿الٓر﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة أوائل السور في مطلع سورة البقرة.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾، أي: هذا كتاب أنزلناه إليك، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد القرآن الكريم، ونُكِّر «كتاب» للتعظيم؛ لأن القرآن أعظم كتب الله، وأشرف الكتب على الإطلاق، أنزله الله عز وجل على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أشرف الخلق، وأفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام، في أشرف البقاع: مكة البلد الحرام، على خير الأمم أمة محمد ﷺ.

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ اللام: للتعليل، أي: إنما أنزلنا عليك يا محمد هذا الكتاب العظيم؛ لأجل أن تخرج الناس كلهم، بسببه، وبما فيه من البيان والهداية والإرشاد، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي،**

وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١).

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: من ظلمات الجهل والضلال والكفر والغي، إلى نور العلم والهدى والإيمان والرشاد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وجَمَع «الظلمات» وأَفرد «النور»؛ لأن طُرُق الباطل كثيرة متشعبة ملتوية، وطريق الحق طريق واحد عدل مستقيم، لا اعوجاج فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، أي: بأمر ربهم وتوفيقه وعونه لهم.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وبيان وتفسير له، أي: إلى دين العزيز الحميد وسبيله، بمعرفة الحق والعمل به، والعلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

و«العزيز» و«الحميد» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، القاهر الذي لا يغالب ولا يمانع. يقال: عَزَّ يعَزُّ، بفتح العين: إذا صَلُب، وعَزَّ يَعِزُّ بكسر العين: إذا امتنع، وعَزَّ يَعُزُّ بضم العين: إذا غَلَب.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وأوامره ونواهيه الشرعية والقدرية، وعلى نعمه الظاهرة والباطنة، والتي من أعظمها وأجلها إنزال هذا الكتاب العظيم، وبعثه محمدًا ﷺ وإرساله رحمة للعاملين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «اللهُ» بالرفع على الاستئناف، فهو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

وقرأ الباقون: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالكسر على الاتباع، بدل من «العزيز» أو «الحميد»، أو عطف بيان، ولا يصح أن يعرب صفة؛ لأن أسماءه عز وجل كلها تابعة لاسمه «الله» بمعنى أنها أوصاف له وهو موصوف بها.

والمعنى: الله الذي له جميع الذي في السموات والذي في الأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، والذي يجب أن يدين له الخلق ويعبدوه وحده دون سواه، ويسلكوا سبيله وصراطه المستقيم.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، وتخويف وتحذير، أي: وويل للكافرين بما أنزل إليك يوم القيامة.

﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، أي: من عذاب عظيم، شديد عليهم، لا يقدر قدر شدته إلا الذي وصفه بذلك، وهو الله شديد المحال.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، أو في محل جر بدل من «الكافرين»، أو صفة له.

﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ أصلها «يحبون»، والسين والتاء للتأكيد.

والمعنى: الذين يؤثرون الحياة الدنيا ويقدمونها على الآخرة، فعملهم للحياة الدنيا، واهتمامهم بها وبزينتها الفانية؛ لركونهم إليها، واطمئنانهم بها، وغفلتهم عن الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [يونس: ٧].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: وينصرفون بأنفسهم عن دين الله وصراطه المستقيم، بالإعراض بقلوبهم عن النظر والتدبر في آيات الله الكونية والشرعية، والتولي بأبدانهم عن الانقياد لشرع الله، كما يصدون غيرهم ويصرفونهم عن سبيل الله ودينه

القويم وصراطه لمستقيم.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: ويبغون سبيل الله عوجًا، أي: يطلبون ويريدون ويحبون أن تكون سبيل الله معوجة مائلة؛ لتوافق أهواءهم، أو لينفروا الناس منها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ الإشارة إلى الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

والضلال البعيد الذي يتعذر رجوع سالكه إلى الحق، واهتداؤه إليه، أي: أولئك في جهل وضلال بعيد عن الحق والهدى؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وصدوا عن سبيل الله، فضلوا عنها وأضلوا وأرادوها معوجة وفقًا لأهوائهم، فأي ضلال أبعد من هذا؟!

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: ٤].

امتن عز وجل بإنزال الكتاب عليه ﷺ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتوعّد الكافرين، وبيّن إغراقهم في الضلال، ثم أتبع ذلك بالامتنان على الأمم، وبيان قيام الحجة عليهم بأنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم، كما أرسل محمدًا ﷺ بلسان قومه العرب.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾، «من» في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما أرسلنا أيَّ رسول إلا بلسان قومه، أي: بلغتهم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يُبين لهم البيان التام، ويبلغهم البلاغ المبين ما أرسله الله به إليهم، وما يدعوهم إليه؛ وليفهموا عنه قوله ويفهم منهم، نعمة من الله تعالى، وإقامة للحجة عليهم.

وفي هذا امتنان من الله تعالى بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه بلغة قومه اللغة العربية أفصح اللغات وأكملها وأوسعها، وإقامة للحجة عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، أي: فيضل الله بعدله عن الحق

بعد هذا البيان وإقامة الحجة ﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاء إضلاله من العباد، ﴿وَيَهۡدِي﴾، أي: ويوفق بفضله إلى الحق ﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاء هدايته من عباده.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾، أي: وهو سبحانه ذو العزة التامة والقوة والقهر والغلبة، الذي لا يغالب ولا يمانع.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التام، كونًا وشرعًا وجزاء، وذو الحكمة البالغة الغائية والصورية.

ومن عزته عز وجل تفرده بالهداية والإضلال، ومن حكمه وحكمته هدايته بفضله من كان أهلًا للهداية، وإضلاله بعدله من كان أهلًا للضلال.

و«العزيز»، و«الحكيم» من أسمائه عز وجل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓر﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم، وأنه أعظم كتب الله تعالى، وأشرف الكتب على الإطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بالتنكير.

٣- إثبات صفة العلو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٤- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه بحرف وصوت، وغير مخلوق.

٥- إثبات رسالته ﷺ، وإنزال القرآن إليه وتشريفه ﷺ بذلك، وبخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾.

٦- أن الحكمة من بعثته ﷺ وإنزال القرآن عليه ليخرج الناس بسبب هذا القرآن وما فيه من الهداية والإرشاد من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٧- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾.

٨- أن طريق الحق واحد، وطرق الباطل كثيرة متشعبة؛ لجمع الظلمات، وإفراد النور.

٩- شتان بين الكفر والإيمان، شتان شتان، فالكفر ظلمات بعضها فوق بعض؛ كما قال

تعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، والإيمان نور على نور، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

والكافر كالمتحير وسط دياجر الظلمات، لا يدري كيف يتجه، ولا إلى أين يذهب، والمؤمن على نور من ربه يمشي سويًّا على صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٢﴾ [الملك: ٢٢].

فشتان بين الأرض والسماء، وبين الثرى والثريا، شتان بين من يتخبط وسط حالك الظلمات، وبين من هو على نور من ربه، نور الأرض والسموات، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [هود: ٢٤].

شتان بين ساع في إعتاق نفسه وخلاصها، وبين ساع في إيباق نفسه وهلاكها، وصدق الله العظيم: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وصدق نبيه المصطفى ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(١).

وقد أحسن القائل:

وما الناس إلا عاملان، فعامل ... يتبر ما ينبي، وآخر رافع(٢)

١٠ - أن هداية من اهتدى وخروجه من الظلمات إلى النور لا تكون إلا بإذن الله تعالى وتقديره الكوني، وهكذا ضلال من ضل؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

١١ - إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلف؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡ﴾.

١٢ - أن صراط الله تعالى هو النور؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ فقوله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بيان وتفسير للنور.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص٥٦).

١٣- إثبات اسم الله تعالى «العزيز» وصفة العزة التامة له- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾.

١٤- إثبات اسم الله تعالى: «الحميد» وأنه المحمود في أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه الشرعية والقدرية، وعلى نعمه الظاهرة والباطنة، ومن أعظمها بعثته ﷺ وإنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾.

١٥- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الحميد» زيادة كمال إلى كمال، فهو محمود في عزته، بخلاف المخلوق، فإنه قد يذم بسبب عزته؛ لما فيه من الغشم والظلم وعدم الحكمة.

١٦- تعظيم الله عز وجل لصراطه؛ لإضافته إلى نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ وذلك لاستقامته واعتداله ونوره وهدايته إلى الله عز وجل، ومرضاته، والسعادة في الدنيا والآخرة.

١٧- تعظيم الله عز وجل لنفسه ببيان واسع ملكه، وتمام قدرته، وكمال تدبيره وتصرفه، ونفوذ أمره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

١٨- وعيد الكافرين به عز وجل وبما أنزل على رسوله ﷺ وتهديدهم بالعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾.

١٩- ذم الكافرين لما هم عليه من إيثار الحياة الدنيا على الآخرة والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجًا، وبيان إغراقهم في الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾.

٢٠- ينبغي الحذر من الركون إلى الحياة الدنيا، وإيثارها على الآخرة، والصد عن سبيل الله؛ لأن هذا من أعمال الكافرين وصفاتهم.

٢١- وجوب الاستعداد للآخرة، وعدم الانشغال عنها بالدنيا وزهرتها الفانية.

٢٢- حقارة الحياة الدنيا، وأنها لا تعدل شيئًا بالنسبة للآخرة.

٢٣- حب الكافرين وإرادتهم أن تكون سبيل الله معوجة؛ موافقة لأهوائهم؛

لقوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾.

٢٤- أن سبيل الله وصراطه عدل مستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٢٥- امتنان الله تعالى على هذه الأمة وعلى الأمم السابقة أنه ما أرسل رسولًا إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم البيان التام، نعمة من الله تعالى عليهم، وإقامة للحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾.

٢٦- استحباب تعلم اللغة العربية؛ لفهم كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ؛ وهو واجب في حدود ما لا يقوم دين المرء إلا به.

٢٧- أن الإضلال والهداية بيد الله عز وجل، يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

٢٨- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم» وأنه ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٣٠- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم» كمال إلى كمال.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ⑥ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ الواو مستأنفة، واللام موطئة للقسم، أي: ولقد أرسلنا موسى بن عمران عليه السلام إلى قومه بني إسرائيل ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الباء للمصاحبة، أي: بآياتنا البينات العظيمة الدالة على صدقه وصحة ما جاء به؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، «أن» تفسيرية، والجملة تفسير لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء مقدرة، أي: بأن أخرج قومك من الظلمات إلى النور، أي: أخرجهم بهذه الآيات وما فيها من الدلائل والحجج، من ظلمات الجهل والضلال والكفر إلى نور العلم والهدى والإيمان، أي: كما أرسلناك إلى قومك وأنزلنا إليك القرآن؛ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، لقد أرسلنا قبلك موسى بآياتنا إلى قومه؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

فلم تكن بدعًا من الرسل، ولم تكن رسالة موسى وغيره من الرسل عليهم السلام قبلك مختلفة عن رسالتك، فكل منكم أرسل بالآيات لإخراج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾، أي: وعظهم ترغيبًا وترهيبًا بتذكيرهم نعم الله تعالى وأياديه عليهم وعلى أوليائه المؤمنين. ونقمه وعقوباته لأعدائه الكافرين والعصاة.

أي: وذكرهم بنعم الله تعالى، وأياديه عليهم، وإحسانه إليهم، بإنجائه إياهم من آل

فرعون، وإخراجهم من أسر عدوهم فرعون وقهره وظلمه وعذابه المهين، وتوريثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وفلق البحر لهم، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم؛ كما قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية: ٦].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: بنعم الله تبارك وتعالى»(١).

قال الشاعر:

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملْكَ فيها أن ندينا(٢)

وأيضًا: وذكرهم بأيام الله، أي: بوقائعه بالمكذبين والكافرين من الأمم السابقة وعقوباته لهم وإهلاكهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ليشكروا نعم الله تعالى عليهم، ويحذروا نقمه.

قال ابن القيم: «وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أيامًا»؛ لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس، أي: بالوقائع التي كانت في تلك الأيام»(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. الإشارة تعود إلى أيام الله ونعمه عليهم وعلى أوليائه، ونقمه وعقوباته لأعدائه، والتذكير بها.

﴿لَآيَاتٍ﴾، أي: لعبر وعظات، واللام: للتوكيد.

---

(١) أخرجه احمد ٥/ ١٢٢، وذكر ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٣٩٨ أنه روي موقوفًا، قال: «وهو أشبه».

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم انظر: «شرح القصائد السبع» لابن الأنباري ص٣٨٨.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٧.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾، أي: لكل صبار على الضراء والبلاء، وعلى طاعة الله تعالى، وعن معصيته.

﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله تعالى بنسبتها لله تعالى، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على طاعته، واستعمالها في مرضاته.

عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**»(١).

قال قتادة: «نعم العبد، إذا ابتلى صبر، وإذا أعطي شكر»(٢).

وقدم الصبر على الشكر؛ لأن الشكر عاقبة الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم: ٦].

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: واذكر يا محمد بنفسك ولقومك حين قال موسى لقومه- امتثالًا لأمر الله له بتذكيرهم أيام الله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: تذكروا نعمة الله عليكم، واذكروها، واشكروها، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم.

قال ابن القيم: «الذكر رأس الشكر.. والشكر جلّاب النعم، وموجب للمزيد».

وقال بعض السلف: «ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عنك»(٣).

﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾، أي: حين أنجاكم، أي: خلصكم وأنقذكم.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد- أمر المؤمن كله خير ٢٩٩٩، وأحمد ٥/ ٣٣٢- ٣٣٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٥٩٨.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨.

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: من فرعون وقومه، وعذابهم لكم، واستذلالهم وإهانتهم لكم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: يذيقونكم أسوأ العذاب وأشده.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ تفسير وبيان لـ«سوء العذاب»، أي: يذبحون من ولد ووجد من أبنائكم الذكور؛ مخافة أن يكون من بينهم النبي الذي يكون على يديه هلاك فرعون وزوال ملكه، وهو موسى عليه السلام.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، أي: ويستبقون نساءكم، أي: ويتركون إناثكم فلا يقتلونهن.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة تعود إلى إنجائه عز وجل إياهم من آل فرعون، أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ومن سوء تعذيبهم لكم ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أي: نعمة عظيمة عليكم من ربكم تستوجب عظيم الشكر، وامتحان عظيم منه تعالى لكم، هل تشكرون هذه النعمة أو تكفرونها؟

ويحتمل عود الإشارة إلى سوء العذاب الذي يسومه آل فرعون بني إسرائيل، من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، فهو لا شك بلاء من ربهم عظيم، فيه ابتلاء وتمحيص لهم، واختبار لصبرهم واحتسابهم.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فالبلاء والابتلاء كل منهما يكون في الخير والشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ويبتلى المرء بالنعمة كما يبتلى بالنقمة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

امتن عز وجل عليهم بتخليصهم من تعذيب آل فرعون لهم مما يوجب عليهم

شكره، ثم أتبع ذلك بتذكيره إياهم إعلامه ووعده لهم إن شكروا بالزيادة، وتحذيرهم إن كفروا من عذابه الشديد.

قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾، «تأذن» بمعنى: آذن وأعلم، قال الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماء — رب ثاو يمل منه الثواء(١)

«إذ»: ظرف متعلق بفعل محذوف، و«تأذن»، أي: أعلم إعلامًا مؤكدًا، أي: واذكروا حين آذنكم ربكم وأخبركم بوعده لكم، مرغبًا لكم في الشكر وحاثًّا لكم عليه.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن شكرتم، أي: إن شكرتم نعمتي، وذلك باعتراف القلب بنعم الله تعالى، ونسبتها إليه عز وجل والثناء عليه بها، والاستعانة بها على طاعته، واستعمالها في مرضاته.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: لأزيدنكم من نعمي.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ مثل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾، أي: والله لئن كفرتم نعمتي وجحدتموها، بنسبتها إلى غير الله، والإنكار لها، والاستعانة بها على معصية الله وصرفها فيما لا يرضي الله.

﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ جواب القسم (لئن كفرتم)، واللام في ﴿لَشَدِيدٌ﴾ للتوكيد، أي: إن عذابي لشديد لمن كفر نعم الله تعالى، وذلك بعقابكم على كفركم، وسلب النعمة منكم؛ كما في حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ﴾، أي: إن تكفروا نعمة الله وتجحدوها ﴿أَنتُمْ﴾ ضمير منفصل في محل رفع توكيد لفاعل «تكفروا».

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: والذي في الأرض من الناس جميعًا.

---

(١) البيت للحارث بن حلِّزة، انظر: «القصائد السبع» ص٤٣٣.

(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن ٤٠٢٢ - من حديث ثوبان رضي الله عنه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط المحذوف، والجملة تعليل للجواب المحذوف، أي: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض من الناس جميعًا فلن تضروا الله شيئًا، وإنما وبال ذلك على أنفسكم؛ لأن الله عز وجل غني عن طاعتكم وشكركم، وعن الخلق جميعًا، فلا يضره كفر الكافرين، ولا ينفعه شكر الشاكرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ٦]. وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وعن أبي ذر رضي الله، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه- عز وجل- أنه قال: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»(١).

﴿حَمِيدٌ﴾، أي: محمود بأجل المحامد في شرعه وقدره، وعلى سابغ نعمه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

٢- أن الحكمة من إرسال موسى عليه السلام بالآيات هي إخراج قومه من ظلمات الكفر إلا نور الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهي الحكمة من إرسال جميع الرسل.

٣- أن الكفر ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض، والإيمان نور على نور؛ لقوله

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب- تحريم الظلم ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

تعالى: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٤- أن طريق الحق واحد وطرق الباطل كثيرة متشعبة؛ لهذا أفرد النور وجمع الظلمات.

٥- أن من أعظم وسائل الدعوة التي أمر الله تعالى بها رسله، وأوصاهم بها هم وأتباعهم التذكير بنعم الله عز وجل على أوليائه وعباده المؤمنين، والتذكير بعقوباته لأعدائه الكافرين؛ لما في ذلك من الترغيب والحث على الإيمان، والترهيب والتحذير من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.

٦- أن في التذكير بنعم الله تعالى ونقمه عبرًا وعظات لكل مؤمن صبار عند الضراء، شكور حال السراء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٧- امتثال موسى عليه السلام أمر الله له بتذكير قومه بأيام الله، بتذكيره لهم نعمة الله عليهم في إنجائه إياهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، قتلًا لأبنائهم، واستحياء لنسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

٨- أن في إنجاء بني إسرائيل من آل فرعون وتعذيبهم نعمة من الله تعالى، وامتحان عظيم لهم هل يشكرون أو يكفرون، كما أن في سوم آل فرعون لهم سوء العذاب بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم أيضًا ابتلاء وتمحيصًا لهم واختبارًا لصبرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

٩- شدة ظلم آل فرعون لبني إسرائيل وتنكيلهم بهم، قتلًا لأبنائهم، واستحياء لنسائهم، وإذلالًا لهم وإهانة.

١٠- ينبغي تذكر نعم الله تعالى على الدوام وشكرها، وتذكر نقم الله وعقوباته، والحذر من موجباتها. قال أبو قلابة: «لا تضركم الدنيا إذا شكرتموها»(١).

(١) انظر: «الشكر» لابن أبي الدنيا ص٢٤ (٥٩)، «حلية الأولياء» ٢/ ٢٨٦، «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٧٢٠ (١٣١٤).

١١- تذكير بني إسرائيل بإعلام الله تعالى، وإخباره لهم بزيادته لهم إن شكروا، وتحذيره لهم إن كفروا من عذابه الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

١٢- الإعذار من بني إسرائيل، وإقامة الحجة عليهم بإعلامهم ما لهم إن شكروا، وما عليهم إن كفروا.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

١٤- وجوب شكر نعم الله تعالى، والحذر من كفرها.

١٥- أن النعم إذا شكرت قرت وزادت، وإذا كفرت فرت.

١٦- عظم جود الله تعالى وكرمه وزيادته الشاكرين من فضله.

١٧- شدة عذاب الله تعالى لمن كفر نعمه.

١٨- إثبات وتأكيد غنى الله تعالى تمام الغنى عن جميع خلقه، وعن طاعتهم وشكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

١٩- أن من كفر لا يضر إلا نفسه؛ لأن الله لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي.

٢٠- إثبات أنه عز وجل «حميد»، أي: محمود في أمره ونهيه، وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وعلى جميع نعمه الظاهرة والباطنة.

٢١- أن الغنى لا يُمدح إلا إذا قارنه كون صاحبه محمودًا على غناه؛ لكرمه وجوده؛ وأما إذا صاحبه الشح والبخل فإنه يذم؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين اسميه «الغني الحميد» أو وصفه بذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قيل: هذا من تمام قول موسى لقومه، فالخطاب لبني إسرائيل.

والأظهر أنه خبر مستأنف، والخطاب لهذه الأمة، والنبأ: الخبر الهام، أي: ألم يأتكم خبر الذين من قبلكم من الأمم، وما قابلوا به رسلهم من الكفر، وما جرى بينهم، وكيف كانت عاقبتهم، فتأخذوا من ذلك العظة والعبرة، والسعيد من وعظ بغيره.

الاستفهام: للإنكار عليهم، وفيه معنى التقرير، أي: قد أتاكم نبأ الذين من قبلكم،

وذلك بما قص الله في كتابه من قصصهم وبسطها، وبما تناقله الناس من أخبارهم وما رأوه من آثارهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾، ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل من «الذين»، وهذا وما بعده بيان وتفسير لقوله: ﴿نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كمدين وأصحاب الرس وقوم تبع، وغيرهم ممن انقرضوا وذهبت أخبارهم ممن لا يحصون كثرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٣٨].

﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكثرتهم واندراس أخبارهم وآثارهم.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: جاءتهم رسلهم بالآيات البينات والدلائل الواضحات، والحجج القاطعات الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله تعالى رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الفاء عاطفة، أي: فرد أولئك الأقوام أيديهم في أفواههم؛ تكذيبًا لرسلهم وعنادًا واستكبارًا؛ كما قال نوح عليه السلام ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝﴾ [نوح: ٧].

والمعنى: رفعوا أيديهم، ووضعوها على أفواه الرسل؛ ليسكتوهم، لما دعوهم إلى الله تعالى.

وقيل: المعنى: عضوا على أيديهم غيظًا على الرسل ودعوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقيل: وضعوا أيديهم على أفواههم، إخفاءً لشدة الضحك على كلام الرسل، سخرية منهم واستهزاء بهم.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾، أي: إنا كذبنا بالذي أرسلتم وجحدناه، فجمعوا في تكذيبهم وكفرهم بما جاؤوا به بين التكذيب والكفر بالفعل بالإشارة

والهيئة، وبين التصريح بالكفر بالقول المؤكد.

كما قال تعالى في سورة التغابن: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [الآيتان: ٥، ٦].

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾، «إن» واللام للتوكيد، أي: وإنا لفي شك وريب من الذي تدعوننا إليه من عبادة الله وحده وترك الشرك.

﴿مُرِيبٍ﴾، أي: موقع في الريبة والتهمة الشديدة، فلا نصدقكم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [إبراهيم: ١٠].

قوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾، أي: قالت لهم رسلهم ردًّا على قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وتكذيبًا لهم.

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، كما في قوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**أَوَفِي شك أنت يا ابن الخطاب؟**»(١).

وقدّم متعلق الشك للاهتمام به، أي: أفي وجود الله وربوبيته وإلهيته ووحدانيته شك؟

والجواب: لا، أي: لا شك فيه عز وجل، ولا يجوز أن يشك فيه.

ثم استدل على ذلك بالدليل القاطع فقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالق السموات والأرض ومبدعهما وما فيهما من العوالم على غير مثال سبق، فهذا دليل قاطع على أن لهما خالقًا مقتدرًا؛ لاستحالة وجود هذه المخلوقات العجيبة العظيمة من غير فاعل مختار؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥].

وأي دليل أعظم من هذا؛ ولهذا قالت رسلهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

قال ابن القيم: «أي: أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده، وأي

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٨، ومسلم في الطلاق ١٤٧٩، والترمذي في التفسير ٣٣١٨- من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم.

دليل أصح وأظهر من هذا المدلول، فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟! ثم نبّهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾»[١].

وقال السعدي[٢]: «وقد كذبوا في ذلك وظلموا؛ ولهذا قالت لهم رسلهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات حتى الأمور المحسوسة؛ ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه، ولا يصلح الريب فيه».

وكما قيل:

فكيــف يصــح في الأذهــان شيء ... إذا احتــاج النهــار إلى دليــل[٣]

ولهذا فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، وأنه الرب المالك المدبر، الذي يجب إخلاص الإلهية له، وحده لا شريك له، ولا يستحق العبادة سواه.

﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ اللام للتعليل، أي: يدعوكم لعبادته وحده لا شريك له؛ لأجل أن يغفر لكم من ذنوبكم بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ معطوف على «يغفر»، داخل ضمن جملة التعليل، أي: ولأجل أن يؤخركم، أي: يؤجلكم ويمهلكم في الدنيا، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت انتهاء أعماركم وحلول آجالكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فوعدهم على إجابة دعوته عز وجل بمغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل.

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال الذين كفروا من تلك الأمم لرسلهم مقالة السفهاء الجاهلين:

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، «إن» في هذا الموضع والذي بعده: نافية، بمعنى «ما»، أي: ما أنتم: إلا بشر مثلنا، أي: لستم ملائكة، فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة؟ وكيف نتبعكم وما نرى معكم حجة ظاهرة؟ كما قال أصحاب القرية لرسلهم الثلاثة: ﴿مَآ أَنتُمۡ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ١٢٧.

(٣) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٢٢٠).

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وقالت عاد في نبيهم هود: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

وقالت ثمود مخاطبين نبيهم صالحًا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: ٢٤]، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «تريدون»، أي: تريدون صدنا. و«ما» موصولة، أي: عن الذي كان يعبد آباؤنا، أي: تريدون صرفنا عن دين آبائنا.

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: فأتونا بحجة بينة، ودليل ظاهر، أي: مما نقترحه عليكم؛ وذلك لأن رسلهم جاؤوهم بالبينات؛ كما تقدم في قوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٩].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ إجابة على اعتراضهم واقتراحهم بقولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ الآية.

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، أي: ما نحن إلا بشر مثلكم نستوي معكم في البشرية كما تقولون، وليس في ذلك ما يمنع إرسال بشر إليكم، والمنة في ذلك لله يختار من يشاء لرسالته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ ولهذا قالوا:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: ولكن الله يمتن وينعم بالنبوة والرسالة على الذي يشاء من عباده، أي: على بعضهم، فيخصهم بهذه المنة والإنعام،

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤].

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ﴾، «ما» نافية، و«أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان، أي: وما كان ممكنًا ومستطاعًا لنا إتيانكم ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾، أي: بحجة ومعجزة وبرهان كما تقترحون، وعلى وفق ما تسألون.

﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: إلا بأمر الله الكوني والشرعي، فالأمر في ذلك ليس إلينا، بل لله تعالى وحده، وله الحكمة في إتيانكم بذلك أو منعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قدَّم المتعلِّق؛ لإفادة الحصر، أي: وعلى الله تعالى وحده فليعتمد المؤمنون ويفوضوا في جميع أمورهم، في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، مع تمام الثقة به عز وجل، والعلم بتمام كفايته، وكمال قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وفي قول الرسل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إظهار لتوكلهم على الله، ووجوب ذلك عليهم، وقوة ثقتهم بكفاية الله لهم، يؤكد هذا قولهم في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الواو عاطفة، و«ما» اسم استفهام، أي: ما الذي يمنعنا، أو أي شيء يمنعنا من التوكل على الله والاعتماد عليه، أو أي عذر لنا في أن لا نتوكل على الله، والاستفهام هنا للتعجب.

﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ قرأ أبو عمرو: «سبْلنا» بإسكان الباء، وقرأ الباقون بضمها ﴿سُبُلَنَا﴾.

والجملة: حالية، أي: والحال أنه قد هدانا سبلنا، أي: أرشدنا ووفقنا لصراطه المستقيم فعلمنا أننا على الحق، وعلمنا وجوب التوكل على الله عز وجل وكفايته لمن

توكل عليه.

قال ابن القيم: «فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا، وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره مضطر إلى توكله على الله، ولا يجد بدًّا من توكله، فإن التوكل يجمع أصلين:

علم القلب، وعمله.

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه»[(١)].

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، أي: والله لنصبرن، فأكدوا صبرهم بلام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد.

و«ما» مصدرية، أي: على أذاكم لنا، أو موصولة، أي: على الذي آذيتمونا، والمعنى: سنستمر على دعوتكم وتذكيركم ووعظكم، ولنصبرنّ على أذاكم لنا، ونوطن أنفسنا على ذلك؛ احتسابًا للأجر من الله تعالى، ونصحًا لكم وطمعًا في هدايتكم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يحتمل أن يكون هذا من بقية كلام الرسل عليهم السلام، فيكون تأكيدًا لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفيه تأكيد من الرسل على قوة توكلهم على الله في دفع كيد أعدائهم ومكرهم، وثقتهم بكفايته لهم، وقد كفاهم، وهذا كقول نوح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وقول هود عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨.

دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

ويحتمل أن يكون من كلام الله، ففيه تنويه بشأن المتوكلين على الله، وأنه لا ينبغي التوكل إلا على الله وحده.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾.

لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وصبرهم على أذاهم؛ ذكر مدى ما وصل الحال بقومهم من الأذى لهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ الآية.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ﴾، أي: متوعدين لهم ومهددين.

﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون: للتوكيد، أي: والله لنخرجنكم من أرضنا، فأكدوا وعيدهم وتهديدهم بلام القسم والقسم المقدر ونون التوكيد، أي: لنخرجنكم ونبعدنكم من أرضنا، وننفينكم من بين أظهرنا.

كما قال قوم لوط عليه السلام: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقال تعالى إخبارًا عن قريش: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٧٦﴾ [الإسراء: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

وأضافوا الأرض إليهم جهلًا منهم، وما علموا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال

تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ معطوف على ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ و«أو» عاطفة تفيد التخيير، أي: أنتم مخيرون بين أمرين: إما أن نخرجكم من أرضنا، أو تعودوا في ملتنا؛ كما قال قوم شعيب عليه السلام له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

ومعنى ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، أي: أو لترجعن في ملتنا، أي: في ديننا، وما نحن عليه من الشرك، وتتركوا ما جئتم به من الدعوة إلى عبادة الله وحده، وهذا أبلغ ما يكون في رد دعوة الرسل عليهم السلام؛ لأنه تخيير بين أمرين أحلاهما مر، يدل على أنه لا مطمع فيهم بعد هذا؛ ولهذا توعدهم عز وجل بالإهلاك، وطمأن رسله بنصرهم وإسكانهم الأرض من بعدهم فقال:

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأوحى إلى الرسل ربهم؛ تأييدًا وطمأنة لهم وبشارة:

﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بيان لجملة: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ واللام لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، فأكد الجملة: بلام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد، أي: والله لنهلكن الظالمين، بأخذهم بأنواع العقوبات وإهلاكهم، بسبب ظلمهم بكفرهم بالله وتوعدهم رسله بإخراجهم من أرضهم.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ معطوف على «نهلكن»، وهو في مقابل قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ فانقلب السحر على الساحر، فحيث توعدوا الرسل بإخراجهم من أرضهم، وليس هذا بمقدورهم، وعد القوي العزيز القدير الرسل بإسكانهم الأرض؛ لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

وقد أكد هذه الجملة بثلاث مؤكدات: لام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد، والخطاب للرسل وأتباعهم المؤمنين، أي: لنجعلنكم تسكنون الأرض من بعدهم ونمكنكم فيها ونورثكم إياها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾ [الأحزاب:

٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وإهلاك الظالمين وإسكان الرسل وأتباعهم الأرض هو وعد الله تعالى لرسله بنصرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ الإشارة إلى ما وعد الله تعالى به الرسل وأتباعهم من نصرهم وإسكانهم الأرض، بعد إهلاك الظالمين، أي: ذلك الوعد بالنصر والتمكين.

﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾، أي: للذي خاف مقام الله تعالى واطلاعه عليه في الدنيا، فراقبه وأحسن العمل؛ كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وللذي خاف قيامه وموقفه بين يدي الله عز وجل في الآخرة للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وفي الحديث في ذكر السبعة الذي يظلهم الله في ظله يوم، لا ظل إلا ظله قال: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»(٢).

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قرأها يعقوب بإثبات الياء: «وعيدي» وصلًا ووقفًا، وقرأها

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورش عن نافع بإثباتها في الوصل دون الوقف، وقرأ الباقون بحذفها مطلقًا تخفيفًا ومراعاة للفواصل.

والمعنى: وخاف وعيدي، أي: خاف ما توعدت به من كفر بي وعصاني، فبادر إلى الإيمان وطاعة الله تعالى.

ولم يقل: ذلك لكم، بل قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إيماء إلى العلة في حصولهم على هذا النصر والتمكين، وهي خوفهم مقام الله ووعيده.

ولم يقل: ذلك لكم؛ لأنكم خفتم مقامي وخفتم وعيدي؛ ليشملهم هذا الوعد وغيرهم ممن خاف مقام الله ووعيده.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾، أي: واستفتح الرسل، أي: طلبوا من الله الفتح والنصر لهم على أعدائهم الظالمين، والاستفتاح: طلب الفتح والنصر؛ كما قال شعيب وقومه: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ويحتمل عود الضمير في «استفتحوا» على الظالمين المكذبين للرسل، أي: واستفتح الظالمون على أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولا مانع من أن يكون كل منهما مرادًا، فقد استفتح رسول الله ﷺ يوم بدر واستنصر، كما استفتح المشركون في ذلك اليوم على أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ١٩].

﴿وَخَابَ﴾ معطوف على مقدر، أي: فنصر الله رسله وأتباعه، وأفلحوا وربحوا، ﴿وَخَابَ﴾، أي: وخسر الخسران المبين، وهلك.

﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: كل متعاظم شديد التكبر على الخلق وعن قبول الحق.

﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق مكابر، معارض للحجة، مشاق للرسل، وبين «خاف» و«خاب»، وبين «وعيد» و«عنيد» جناس غير تام.

والمراد بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الكفرة المشركون الظالمون المكذبون لرسل الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾

ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤- ٢٦].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد..**»(١).

ولم يقل: «وخابوا» مع العلم بأن المراد بهم الظالمون أعداء الرسل؛ لذمهم والتسجيل عليهم بوصف التجبر والعناد، وأن ذلك سبب خيبتهم، وأن كل من سلك سبيل التجبر والعناد فعاقبته الخيبة والخسران.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾، أي: من وراء هذا الجبار العنيد جهنم، أي: من أمامه جهنم، وهي له بالمرصاد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢] مآله إليها، ومقره فيها، خالدًا مخلدًا فيها أبد الآباد.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو: «غساق»، غسالة أهل النار، وما يسيل ويخرج من أجسادهم وأجوافهم من القيح والصديد والدم، في غاية النتن، في غاية البرودة؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [ص: ٥٧]، أي: حميم في غاية الحرارة، وغساق في غاية البرودة.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ التجرع: تكلف الجرع، والجرع: البلع، أي: يحاول ابتلاعه ويتغصصه ويتكرهه؛ لقهره وإجباره على ذلك، ومن شدة ما هو فيه من العطش، عله يبل صداه، ويروي ظمأه وهيهات ذلك.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، أي: لا يستطيع ابتلاعه؛ لقذارته وشدة نتنه، وسوء طعمه وشدة برودته أو حرارته.

روُي عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾؛ قال: «**يقرب إلى فيه، فيتكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره**»، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٠، وأخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه ٢٥٧٤- وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]» (١).

وعن أسماء بنت السكن رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» (٢).

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾، أي: يحيط به الموت بأسبابه وآلامه وسكراته.

﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من بدنه وجوارحه، ومن كل جهة من أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، أي: وما هو بميت فمستريح مما نزل به؛ لأن الله قضى أنهم لا يموتون إلا الموتة الأولى؛ كما قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، أي: ومن وراء هذا العذاب، أي: بعده ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ آخر أشد وأعظم منه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى المعذَّب نفسه، وهذا أصح، أي: ومن وراء هذا الجبار العنيد، أي: أمامه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، أي: قوي شديد، أشد وأغلظ مما هو فيه، ومن الذي قبله وأدهى وأمر؛ كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٤- ٦٨]، وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٦٥، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٨٣، والطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٦٢٠، وقال الترمذي: «حديث غريب».
(٢) أخرجه احمد ٦/ ٤٦٠، وأخرجه أبو داود في الأشربة بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣- ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١- ٤٤].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٥- ٥٨].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ المثل: الحالة والصفة العجيبة، أي: مثل حال الذين كفروا بربهم وصفتهم ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أو مبتدأ، أي: أعمالهم التي يظنون أنها تنفعهم مما يثاب عليه المؤمنون، كصلة الرحم، وقرى الضيف، وإطعام الفقراء، وإعتاق الرقيق، ونحو ذلك.

﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، أي: مثلها في بطلانها وضياعها واضمحلالها.

﴿كَرَمَادٍ﴾ نُكِّر للاحتقار والتقليل له ولأعمالهم. و«الرماد» ما يتبقى من الحطب وغيره عند إحراق النار له، وهو من أدق وأخف الأشياء.

﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «الرياح» بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿ٱلرِّيحُ﴾، أي: عصفت به بشدة الريح فطيَّرته.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، أي: شديد عصف الريح وهبوبها، أي: فإنه يتطاير، ولا يبقى منه شيء، بل يذهب ويضمحل.

قال ابن القيم: «وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابًا... فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادًا، فهم

وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار»(١).

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، أي: لا يقدرون أن ينتفعوا بشيء من الذي كسبوه، أو من كسبهم يوم القيامة؛ لذهابه سدى، وبطلانه واضمحلاله، كاضمحلال الرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف، فلا يقدر منه على شيء، وإنما كانت أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف؛ لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير الله، وعلى غير مراده، والله إنما يتقبل من المتقين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقد يشمل قوله ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ الآية أعمالهم الكفرية من الكيد للرسل، ودعوتهم وأذيتهم لهم ومحاربتهم، فكل هذه الأعمال تذهب أدراج الرياح سدى بنصر الله عز وجل للرسل والمؤمنين، وإهلاكه للمكذبين الظالمين.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ الإشارة للكفر وما يوجبه من بطلان الأعمال واضمحلالها وضياعها وعدم القدرة على شيء منها.

أي: ذلك هو التيه والجهل والخطأ (ٱلْبَعِيدُ) البعيد كل البعد عن الحق والهدى.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين شركهم وكفرهم وتكذيبهم له ﷺ، وقد جاءتهم أخبار الذين كفروا من الأمم قبلهم، وما جرى بينهم وبين رسلهم ونصر الله لرسله

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٩.

والمؤمنين، وإهلاك الكفرة المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية.

٢- يجب أخذ العظة والعبرة مما حل بالذين كفروا من الأمم السابقة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية.

٣- كفر قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم من الأمم ممن لا يعلمهم ولا يحصيهم إلا الله تعالى، وتكذيبهم بما جاءتهم به رسلهم من الآيات البينات وتشكيكهم بدعوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

٤- تثبيت قلب النبي صلى الله عليه سلم وتسليته والمؤمنين بذكر كفر الأمم السابقة- على كثرتهم- وما لقي منهم رسلهم من التكذيب والتشكيك في دعوتهم والأذى لهم ولأتباعهم.

٥- أن هناك الكثير من الأمم الكافرة المكذبة للرسل من بعد قوم نوح وعاد وثمود اندرست أخبارهم، وانمحت آثارهم ممن لا يحصون كثرة ولا يعلمهم إلا الله.

٦- إقامة الرسل الحجة على أممهم بما جاؤوا به من الآيات البينات والحجج والدلائل الواضحات؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٧- تكذيب الأمم المذكورة ومن بعدهم من الأمم لرسلهم ومكابرتهم، وعملهم على إسكاتهم وتسكير أفواههم عن الدعوة إلى الله، وكفرهم برسالاتهم وتشكيكهم في دعوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

٨- شدة إنكار الرسل على من كفر بما أرسلوا به وشكك في دعوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

٩- قوة حجة الرسل في الرد على من كفر برسالاتهم وشكك في دعوتهم؛ لقولهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: أيشك في الله خالق السموات والأرض

ومبدعهما على غير مثال سبق، وفي وحدانيته ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

١٠- أن الغرض من إرسال الرسل وإنزال الكتب دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، واتباع شرعه؛ لمغفرة ذنوبهم، وتأجيلهم إلى نهاية آجالهم، ثم مصيرهم إلى رحمته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١١- شدة عتو الذين كفروا من الأمم السابقة، وعنادهم لرسلهم، وطعنهم في رسالاتهم؛ لكونهم بشرًا مثلهم، وليسوا ملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

١٢- تمسك مشركي الأمم السابقة بما كان عليه آباؤهم من عبادة الأصنام وتقليدهم لهم على جهل وضلال؛ لقولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وهذا من أسباب ضلال كثير من الأمم.

١٣- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾.

١٤- مطالبتهم رسلهم بالإتيان بما يقترحونه عليهم من الآيات والحجج؛ تحديًا لهم وتعجيزًا؛ لقولهم ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

١٥- رد الرسل على أممهم وإفحامهم لهم بأن كونهم بشرًا لا يمنع أن يمن الله عليهم بإرسالهم؛ لقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٦- حكمة الله تعالى البالغة في كون الرسل إلى بني آدم كلهم من البشر، بل كل منهم بلسان قومه؛ ليبين لهم.

١٧- أن اصطفاء الله تعالى من يشاء من عباده لرسالاته من أعظم المنة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٨- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَشَآءُ﴾.

١٩- إثبات عبودية جميع الخلق لله عز وجل عبودية خاصة أو عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٠- أن الإتيان بالآيات والمعجزات ليس أمره إلى الرسل عليهم السلام، وإنما أمر

ذلك إلى الله عز وجل وإذنه؛ لقول الرسل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢١- أن الرسل عليهم السلام إنما هم مبلغون عن الله رسالاته، مظهرون لما يؤيدهم به من آياته.

٢٢- توكل الرسل- عليهم السلام- على الله تعالى وثقتهم التامة بكفايته لهم، وأن ذلك واجب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٢٣- وجوب توكل المؤمنين على الله تعالى وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

٢٤- تأكيد الرسل- عليهم السلام- توكلهم على الله، إذ ليس هناك ثمة شيء يمنعهم من ذلك؛ لهدايته عز وجل لهم صراطه المستقيم، الذي يقتضي ويوجب تمام التوكل عليه عز وجل لقولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾.

٢٥- اعتراف الرسل- عليهم السلام- بهداية الله تعالى لهم اعتراف الشاكرين، مما يزيدهم هداية منه وتوفيقًا.

٢٦- إظهار الرسل عليهم السلام لأقوامهم وإشهارهم لهم تجلدهم بالصبر على أذاهم تيئيسًا لهم من التراجع عن دعوتهم، وثقة منهم بنصر الله تعالى- لهم، لقوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾.

٢٧- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا.

٢٨- أذية أعداء الرسل لهم، وأن كل من سلك طريقهم في الدعوة إلى الله تعالى سيناله من الأذى مثل ما نالهم، فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يوطن نفسه بالصبر والتحمل، وأن يعلم أن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وكما قيل:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود

٢٩- وجوب التوكل على الله تعالى وحده، دون غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

٣٠- تهديد الذين كفروا من أولئك الأقوام لرسلهم بإخراجهم من أرضهم، ونفيهم من بلادهم إن لم يرجعوا إلى ملتهم بالشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

٣١- بشارة الله تعالى لرسله ووعده لهم بإهلاك أعدائهم الظالمين وإسكانهم الأرض من بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

٣٢- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

٣٣- أنه لا ولاية شرعية على الأرض لغير الرسل وأتباعهم المؤمنين.

٣٤- أن الرسل إنما استحقوا النصر هم وأتباعهم المؤمنون على أعدائهم الكافرين؛ لخوفهم من الله ومراقبته لهم، وخوفهم القيام بين يديه، وخوفهم من وعيده؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

٣٥- استفتاح الرسل وأتباعهم المؤمنين بنصر الله لهم على أعدائهم الكافرين، وحصول ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾.

٣٦- استفتاح الكفار على أنفسهم واستعجالهم العذاب غرورًا منهم، ورجوعهم بالخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٣٧- أن الكفار إنما باؤوا بالخيبة والخسران والهزيمة بسبب تجبرهم وعنادهم.

٣٨- أن كل من تجبر وتكبر عن قبول الحق، وعاند من يدعوه إلى الله، فعاقبته الخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٣٩- الوعيد لمن كفر وتجبر وعاند بجهنم وحرها الشديد، وسقيه من ماء صديد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

٤٠- عظم ما يلاقيه من كفر وتجبر وعاند من العذاب، فهو يتقلب بين جهنم وحرها الشديد وبين الصديد وسوء مذاقه وطعمه ونتنه وبرده الشديد.

٤١- شدة عطش أهل النار واضطرارهم إلى شرب الصديد مما يصعب بلعه، ولا يكاد الشارب يسيغه؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

٤٢- بلوغ عذاب الواحد من أهل النار نهايته في الشدة والألم، في بدنه كله وجميع جوارحه مما يجعل الموت يأتيه من كل مكان، وما هو بميت؛ لأن الله قضى أن لا يموتوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

٤٣- أن من بعد هذا العذاب بجهنم والماء الصديد عذاب أغلظ وأشد منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

٤٤- أن مثل أعمال الكفار في اضمحلالها وبطلانها وصيرورتها هباءً منثورًا، لا ينتفعون بها، ولا يقدرون على شيء منها؛ كرماد اشتدت به الريح في يوم شديد العصف؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

٤٥- أن من اختار الكفر والتجبر والعناد الموجب لعذاب جهنم وتجرع الصديد، وما وراء ذلك من العذاب الغليظ فقد ضل الضلال البعيد؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «خَالِقُ» بالألف وكسر اللام ورفع القاف، وخفض «السمواتِ والأرضِ».

وقرأ الباقون بفتح اللام والقاف من غير ألف، ونصب ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالكسر ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بالفتح.

والاستفهام للتقرير، والخطاب لكل من يصلح له، أي: ألم تشاهد وتعلم أن الله خلق السموات والأرض بالحق، والباء للملابسة، والحق: ضد اللعب والعبث والباطل، أي: أن الله خلق السموات والأرض بالحق والعدل، ما خلقهما لعبًا وعبثًا وباطلًا.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ

فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

والمراد أنه- عز وجل- ما خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات لعبًا وعبثًا وباطلًا، وإنما خلقهما ليعبده الخلق ويعرفوه، ويستدلوا بهما وما فيهما على تمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون سواه، وأنه لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لأمر عظيم، وهو عبادته وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ(1)

وقال الآخر:

الأمر جد وهْو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(2)

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣].

وفيه التهديد للمشركين خاصة، تأكيدًا لقوله قبل هذا: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

والمعنى: إن يشأ يذهبكم إذا كفرتم به وخالفتم أمره، ويأت بقوم غيركم يؤمنون به ويطيعونه.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾، أي: الذهاب بكم والإتيان بخلق جديد.

﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، أي: بممتنع، أو بعظيم، بل هو سهل عليه جدًا، إذا كفرتم وخالفتم أمره، لعظمته وتمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥- ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

(١) البيت للطغرائي. انظر: «لامية العجم» (ص١٢٤).

(٢) انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» (١٤٣/ ١).

ﵟثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُمﵞ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓﵞ [المائدة: ٥٤].

ويحتمل أن المعنى: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدكم بالبعث خلقًا جديدًا، ويقوي هذا الاحتمال ما ذكره بعد ذلك من أحوال القيامة.

فيكون في الآيات دليل على قدرته على البعث والمعاد؛ كما قال تعالى: ﵟمَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍﵞ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﵟوَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِﵞ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﵟلَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِﵞ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﵟأَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣ﵞ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﵟأَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ﵞ [يس: ٧٧- ٨٢].

قوله تعالى: ﵟوَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١ﵞ.

لما ذكر قدرته عز وجل التامة على إذهاب المكذبين، والإتيان بخلق جديد، وأن ذلك ليس عليه بعزيز، أتبع ذلك بذكر أحوال المكذبين يوم القيامة، وتخاصمهم في المحشر، وفيه ترهيب للمشركين، وأنهم غير معجزين.

قوله: ﵟوَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗاﵞ، أي: وبرز الخلائق لله وحده كلهم جميعًا برهم وفاجرهم، وذلك يوم القيامة حين ينفخ في الصور، أي: خرجوا كلهم من قبورهم،

واجتمعوا في براز من الأرض ظاهر، ليس فيه شيء يستر أحدًا، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ولا يخفى منهم أحد.

و«برزوا» بمعنى يبرزون يوم القيامة، وإنما جيء بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر الله به لصدقه وصحته وتحقق وقوعه- كأنه قد وقع ووجد؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ وهم الأتباع المقلدون ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم القادة المتبعون المقلَّدون، الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى، وأشركوا به وكفروا، وخالفوا رسله وعاندوهم. والسين والتاء للمبالغة.

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾، أي: إنا كنا في الدنيا لكم تبعًا مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، وقد أمرتمونا بالضلال وزينتموه لنا فأغويتمونا وضللنا.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام للتوبيخ، وفيه معنى النفي، أي: لن تغنوا عنا من عذاب الله من شيء.

و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للنفي، أي: فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله أي شيء، مهما قل، أي: أنكم لن تغنوا عنا من عذاب الله أيّ شيء؛ ولهذا ﴿قَالُواْ﴾، أي: قال القادة المتبوعون:

﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، أي: لو وفقنا الله إلى الحق ﴿لَهَدَيۡنَـٰكُمۡ﴾، أي: لدللناكم عليه وأرشدناكم إليه، أي: ولكن الله حرمنا التوفيق للهداية فضللنا، وأغويناكم كما غوينا، وحق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾، أي: سواء علينا وعليكم ﴿أَجَزِعۡنَآ﴾، أي: أجزعنا من العذاب ﴿أَمۡ صَبَرۡنَا﴾، «أم»: حرف عطف، أي: أم صبرنا على العذاب.

﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ تعليل لقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ ، و«من» كسابقتها زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لنا أيُّ محيص، أي: ما لنا أيّ مهرب ولا خلاص ولا نجاة مما نحن فيه من عذاب الله وناره؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ

تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦- ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وهذه المحاجة في النار بعد دخولهم فيها ومقاساتهم عذابها وحرها.

أما تخاصمهم في المحشر فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سبأ: ٣١- ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: وقال الشيطان الذي هو سبب إغواء بني آدم وضلالهم مخاطبًا أهل النار متبرئًا منهم؛ ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم، وغبنًا إلى غبنهم،

وحسرة إلى حسرتهم.

﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: لما قضى الله الأمر بحساب الخلائق والفصل بينهم، ودخل أهل الجنة الجنة، ودخل أهل النار النار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾، «إن»: للتوكيد، أي: إن الله وعدكم فيما أنزل من كتبه وعلى ألسنة رسله إن أنتم آمنتم به واتبعتم رسله.

﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الوعد الحق، أي: الوعد الصادق الثابت الذي لا يخلف، بالسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

أي: وعَدَكم الله وعدًا لا يخلف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ أنا ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، أي: كذبت موعدي، أي: وعدتكم الوعود الكاذبة، ومنَّيتكم الأمانيّ الباطلة، وغرّرت بكم؛ كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: وما كان لي عليكم من حجة ولا دليل على صدق ما وعدتكم به ودعوتكم إليه، ولا قوة وغلبة أقهركم بها وأجبركم على اتباعي.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن دعوتكم إلى الباطل فاستجبتم لي بمجرد دعوتي لكم؛ لهوى في أنفسكم، واتباعًا لشهواتكم.

﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليوم فيما حصل منكم وما انتهيتم إليه من دخولكم النار وتعذيبكم فيها.

﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ الأمارة بالسوء، إذ قبلتم دعوتي اتباعًا لأهواء أنفسكم، فأوبقتموها وأهلكتموها.

وجملة ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ تفيد معنى الحصر، أي: لا تلوموا إلا أنفسكم، وفي هذا تبكيت لهم وزيادة حسرتهم، كما قيل:

فنفسك لُمْ ولا تَلُم المطايا ... ومت كمدًا فليس لك اعتذارُ(١)

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ قرأ حمزة وخلف بكسر الياء «بمصرخيِ»، وقرأ الباقون بنصبها: ﴿بِمُصۡرِخِيَّ﴾.

والإصراخ: الإغاثة والإنقاذ، مأخوذ من الصراخ، أي: ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من عذاب النار.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾، أي: وما أنتم بمنقذي ومخلصيّ مما أنا فيه من العذاب والنكال في النار.

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾، «ما»: مصدرية، أي: إني كفرت بإشراككم إياي من قبل، أي: جحدت ذلك وتبرأت منه، فلست شريكًا لله، ولا تجوز عبادتي، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٤].

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك بالله وطاعة الشيطان والإعراض عن الحق واتباع الباطل.

﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للقلوب.

ومع أن الشيطان أراد تخفيف الملام عن نفسه وإشراك أتباعه في تبعة ضلالهم؛

(١) انظر: «الزهرة» (ص٨٤) بترقيم الشاملة.

لانصياعهم لما يدعوهم إليهم دون دعوة الحق، فإن في إنطاقه بهذا إعلان الحق، وإظهار الحقيقة، وشهادة عليهم، أشبه بشهادة جوارحهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾.

لما ذكر مآل الكفار الظالمين الأشقياء، وما صاروا إليه من الخزي والنكال والتقريع والتبكيت والعذاب الأليم، ذكر مآل المؤمنين السعداء بإدخالهم الجنة، يتمتعون بنعيمها وأنهارها، وتحيتهم فيه سلام.

قوله: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الذين آمنوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم كالصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين والجهاد وصلة الأرحام، وغير ذلك، مما يجتمع فيه الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول ﷺ، وحذف الموصوف واكتفى بذكر الصفة «الصالحات»، لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

﴿جَنَّٰتٖ﴾ هي ما أعده الله لإقامة أوليائه من البساتين والمنازل والغرفات.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الجملة في محل نصب صفة لـ«جنات»، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار السارحة بلا أخدود، يصرفونها كيف شاؤوا، يشربون منها، ويغتسلون فيها، ويتمتعون برؤيتها.

أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين في تلك الجنات إقامة أبدية، لا يتحولون عنها، ولا يُخرجون منها، ولا يموتون.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: بإذن وأمر ربهم الكوني وعنايته الخاصة بهم.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾، أي: تحيتهم في تلك الجنات التي يحيون بها من ربهم ومن ملائكته، والتي يحيي بعضهم بعضًا بها.

﴿سَلَامٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير وإثبات أن الله خلق السموات والأرض بالعدل والحق لأمر عظيم، وهو أن يعبده الخلق، ويستدلوا بهما على عظمته وتمام قدرته ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

٢- إثبات عظمة الله عز وجل وعظيم مخلوقاته، وقدرته التامة على إذهاب الخلق والإتيان بغيرهم، وعلى بعثهم بعد موتهم، وأنه لا يمتنع عليه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍأَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾.

٣- تهديد المشركين الظالمين بإذهابهم والإتيان بخلق جديد يؤمنون بالله ويطيعونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾.

٤- إثبات صفة المشيئة لله عز وجل وهي الإرادة الكونية القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾.

٥- بروز الخلائق كلهم لله جميعًا من قبورهم واجتماعهم جميعًا في صعيد واحد، لا يخفى منهم أحد، يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

٦- محاجة أهل النار ومراجعة بعضهم بعضا؛ الضعفاء والمستكبرون، الأتباع والمتبوعون؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ

أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ الآية.

٧- ينبغي الحذر من الاستكبار وأهله، فهو سبب لبطر الحق ورده، وأهله يدعون الناس ويحملونهم على ذلك.

٨- ندم الأتباع وحسرتهم لاتباعهم من لا يغنون ولا يدفعون عنهم من عذاب الله من شيء، وخيبة أملهم فيهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

٩- يجب الحذر من التقليد الأعمى واتباع الآخرين دون تبصر وعلم.

١٠- تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، أحوج ما يكونون إليهم، وفي أصعب المواقف وأشدها، واعترافهم ضمنًا أنهم هم الذين أضلوهم، وأنهم لا يغنون عنهم من عذاب الله شيئًا؛ لقولهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ الآية.

١١- انقطاع العلائق بين الخلائق يوم القيامة، فلا أحد يغني عن أحد، بجلب نفع أو دفع ضرر.

١٢- احتجاج المستكبرين المتبوعين لما هم عليه هم وأتباعهم من الضلال بالقدر؛ لقولهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولا حجة في القدر.

١٣- أن هداية التوفيق مما اختص الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

١٤- أنه لا مفر ولا مهرب من عذاب الله، سواء جزع المعذبون أم صبروا، وأنى لهم الصبر؟ لقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦].

١٥- تبرؤ الشيطان من أوليائه وأتباعه، بعد قضاء الأمر ودخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار، مما يزيدهم أسى وحسرة وندامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية.

١٦- إقرار الشيطان واعترافه آنذاك أن وعد الله حق، وأن وعوده كذب وتغرير وأمانٍ باطلة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

١٧- أنه لا سلطان للشيطان، ولا حجة له، ولا دليل على صحة وصدق ما يدعو إليه، بل الحجة والدليل على خلافه، ولا قوة له ولا غلبة يقهر بها الناس ويجبرهم على اتباعه، وإنما أطاعه أكثر الخلق بمجرد دعوته وتزيينه الباطل لهم؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

١٨- تنصل الشيطان من مسؤوليته عن ضلال أتباعه، وإلقائه اللوم على أوليائه وأتباعه، وأنى له ذلك؟ فكل منهما ملوم؛ لقوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾.

١٩- اعتراف الشيطان بضعفه وعدم استطاعته إغاثة أوليائه وإنقاذهم مما هم فيه من العذاب؛ كما غرر بهم ومنّاهم الأماني الباطلة؛ كما أنهم لا يستطيعون إنقاذه من ذلك؛ لقوله: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾.

٢٠- كفر الشيطان وجحوده وإنكاره أن يكون شريكًا لله، وبراءته من شرك من أشركوه، لقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد للظالمين المشركين بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٢- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لإتباعه ما أعد للظالمين من العذاب الأليم بذكر إدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات، وما لهم فيها من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية.

٢٣- أنه لا بد من الجمع بين إيمان القلب والباطن وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٢٤- لا بد أن يكون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة النبي ﷺ

وهديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٥- خلود أهل الجنة وإقامتهم فيها أبد الآباد؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٢٦- إثبات الإذن الكوني القدري لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

٢٧- أن دخول المؤمنين الجنات وما لهم فيها من النعيم، وخلودهم فيها كل ذلك بإذن ربهم وتقديره وتوفيقه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

٢٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ وتشريفهم بإضافة اسمه عز وجل إلى ضميرهم.

٢٩- أن تحية أهل الجنة فيها سلام، سلام من الله تعالى عليهم، ومن ملائكته، وسلام من بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

٣٠- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من ألوان النعيم الحسي والمعنوي؛ فـ«جنات» قطوفها دانية، وظلالها وارفة، وأنهارها سارحة، وتحيات وسلام، وخلود وإكرام، نسأل الله تعالى من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

لما بين ما أعد الذين كفروا من العذاب الأليم، وما أعد للذين آمنوا من النعيم المقيم ضرب مثلًا للإيمان والكفر، وأن مآل الأول الثبات والاستقرار، ومآل الثاني الخسار والبوار.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب لكل من يصلح له، أي: ألم تعلم.

﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، «كيف» اسم استفهام، وضرب المثل: تشبيه أمر معنوي معقول بشيء محسوس، تقريبًا لمعنى ذلك الأمر، وهو من نعم الله تعالى على العباد؛ لما فيه من الإيضاح والبيان، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا

يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ هي كلمة التوحيد والإيمان والإسلام؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

و﴿طَيِّبَةٗ﴾، أي: نافعة، يطيب بها قول صاحبها وفعله، ويرفع بها عمله، ويصلح بها حاله ومآله.

﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة أطيب الشجر ثمرًا، وأعظمها نفعًا، وأثبتها أصلًا، وأعلاها فرعًا، وأجملها شكلًا، وأبهاها منظرًا.

﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾، أي: جذرها وجذعها ثابت مستقر في الأرض، لا تزعزعها الرياح والعواصف.

﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: في العلو لطول ساقها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠]، أي: طوال.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ يقول: لا إله إلا الله، ثابت في قلب المؤمن، ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء»(١).

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾، أي: تؤتى مأكولها، أي: ثمرها طيبًا تامًّا من غير نقص؛ كما قال تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣].

﴿كُلَّ حِينِۭ﴾، أي: كل وقت.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَا﴾، أي: بأمر ربها الكوني القدري.

فشبه عز وجل كلمة الإيمان والإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، مع العلم بمعناها، والعمل بمقتضاها، في ثباتها في قلب العبد المؤمن، وما تثمره من الأعمال الصالحة التي ترفع إلى السماء كل حين بإذن الله عز وجل؛ بشجرة طيبة، وهي النخلة أثبتت الشجر أصلًا، وأطيبها ثمرًا، وأكثرها نفعًا، وأعلاها فرعًا، تؤتي

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء ١٥٩٨.

ثمرها كل حين بإذن ربها.

قال ابن القيم: «والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك».

وقال أيضًا: «والشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس؛ فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر، وإلا أوشك، أن تيبس، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم**»(١).

قال ابن كثير(٢): «والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر، في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار، في كل وقت وحين».

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل- المسلم، لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا، تؤتى أكلها كل حين**». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئًا قال رسول الله ﷺ: «**هي النخلة**». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد وقع في نفسي أنها النخلة. فقال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئًا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا»(٣).

﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا للمعاني وبيانًا لها، وإقامة للحجة، وإيضاحًا للمحجة.

---

(١) أخرجه الحاكم ١/ ٤ وقال: «رواته مصريون ثقات» ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي ١/ ٥٢: «رواه الطبري في الكبير وإسناده حسن». وانظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢، ١٣.

(٢) في «تفسيره» ٤/ ٤١٢.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة إبراهيم ٤٦٩٨، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١١، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٧.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتذكروا ويتعظوا ويعتبروا.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

لما ذكر مثل الكلمة الطيبة ذكر مثل الكلمة الخبيثة ترغيبًا وترهيبًا.

قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر والشركقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤].

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، أي: خبيثة المطعم، كشجرة الحنظل نحوها.

عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: **هي النخلة**، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قال: **هي الحنظلة**»(١).

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: اقتلعت واستؤصلت من فوق الأرض. والاجتثاث: قطع الشيء، مأخوذ من الجثة وهي: الذات.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ تأكيد لمعنى الاجتثاث، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: مالها أيّ قرار، أي: لا أصل لها، فلا عرق ثابت، ولا فرع عالٍ، ولا ثمرة زاكية، ولا ظل، ولا جنى، وكذلك الكفر لا أصل له، ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يستقبل منه شيء، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: يؤيدهم ويقويهم ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: بالقول الحق الصادق، وهو الكلمة الطيبة في الحياة

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣١١٩، وذكر أنه روي موقوفًا، وهو أصح.

الدنيا وفي الآخرة.

في الحياة الدنيا قولًا وعملًا بالهدى والإيمان واليقين ورد الشبهات، والإعراض عن الشهوات ولزوم الحق، والثبات والصبر في ذات الله.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «كنت كثيرا أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم، فقلت: يا أبة، من أبو الهيثم؟ فقال: لما أخرجت للسياط، ومدت يداي للعقابين، إذا أنا بشاب يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا. قال: أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ثمانية عشر ألف سوطًا بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان؛ لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن؛ لأجل الدين. قال: فضربت ثمانية عشر سوطًا بدل ما ضرب ثمانية عشر ألفًا، وخرج الخادم فقال: عفا عنه أمير المؤمنين»(١).

فكان هذا مما ثبت الله به الإمام أحمد رحمه الله في هذه المحنة.

وفي الآخرة بالثبات على الإسلام والموت على الإيمان والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، إذا قيل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد عليه الصلاة والسلام.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار قال: «**إن المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فذلك قوله:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾»(٢).

وفي رواية: «**فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: رب الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ**»(٣).

وفي حديث أنس رضي الله عنه: «**فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول**

(١) «صفوة الصفوة» لابن الجوزي ٢/ ٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٩٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧١، وأبو داود في السنة ٤٧٥٠.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٥- ٢٩٦، وأخرجه مسلم مختصرًا ٢٨٧١، والنسائي في الجنائز ٢٠٥٧، والترمذي في التفسير ٣١٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٩.

في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله»(١).

ولهذا كان ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «**استغفروا لأخيكم وسلوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل**»(٢).

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ بعدله عن القول الثابت وعن الحق.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والشرك والكلمة الخبيثة، بسبب ظلمهم وكفرهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

والمعنى: يجعلهم في عماية عن الحق وحيرة في الدنيا والآخرة وبعد عن طريق النجاة.

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: ويفعل الله الذي يشاء، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، فيثبت المؤمنين على الحق بفضله، ويضل الظالمين بعدله ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الاستفهام: للتقرير، وفيه معنى التعجب، أي: ألم تشاهد وتعلم، والمعنى: قد رأيت وعلمت.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ وهم كفار قريش وغيرهم، وبخاصة رؤوس الكفر منهم ﴿بَدَّلُواْ﴾، أي: استبدلوا نعمة الله وفضله ورحمته ببعثة محمد ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾ [الجمعة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

و«نعمة» مفرد مضاف إلى معرفة، فيعم كل نعم الله تعالى الدينية والدنيوية.

﴿كُفۡرٗا﴾ مفعول ثان لـ﴿بَدَّلُواْ﴾، أي: قابلوا نعمة الله تعالى بالكفر، فكفروا بما أنزل الله تعالى على رسوله من الوحي والهدى، وجحدوا رسالته ﷺ وكذبوه، وكفروا

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٣٨، ومسلم في الجنة وصفه نعيمها ٢٨٧٠، وأبو داود في السنة ٤٧٥١؛ والنسائي في الجنائز ٢٠٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز الاستغفار عند القبر للميت ٣٢٢١- من حديث عثمان رضي الله عنه.

نعم الله تعالى عليهم الدنيوية، من نعمة الخلق والرزق والأمن وغير ذلك.

﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، أي: وأنزلوا قومهم ممن اتبعوهم على الكفر والشرك ومحاربة الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، أي: دار الهلاك والخسار النار.

والمعنى: وتسببوا في إنزال قومهم دار البوار والخسار النار بدعوتهم إياهم إلى الكفر، ومخالفة أمر الله ورسوله؛ كما قال تعالى عن فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقال تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ومن ذلك تزيين صناديد قريش- كأبي جهل وأمثاله- لقومهم الخروج والقتال يوم بدر، فكانت نهايتهم الهزيمة النكراء في بدر الكبرى، ومصيرهم في القيامة إلى نار تلظى.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ هذا تفسير لـ«دار البوار»، «وجهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يدخلونها، ويغمرون فيها، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ويقاسون حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، أي: وساء وقبح المستقر والمسكن جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: واتخذوا لله شركاء ونظراء عبدوهم مع الله.

﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، ورويس عن يعقوب بفتح الياء: «ليَضلوا»، أي: ليستمروا على ضلالهم.

وقرأ الباقون بالضم: ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾، أي: ليُضلوا الناس عن سبيل الله وعبادته وحده لا شريك له- بعد أن ضلوا هم بأنفسهم- ويدعوهم إلى عبادة هؤلاء الأنداد والشركاء.

واللام لام العاقبة، ويجوز كونها للتعليل.

﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ تهديد ووعيد لهم، أي: قل لهم مهددًا ومتوعدًا: تمتعوا بكفركم وضلالكم وما أنتم فيه من النعم.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ﴾، أي: مرجعكم ومردكم ومآلكم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [يونس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

والتمتع: الانتفاع بالمتاع برهة ثم يزول، بزوال المتاع أو بزوال صاحبه؛ ولهذا وصفت الدنيا كلها بأنها متاع قليل؛ لأنها تنتهي وتزول ويزول أهلها.

ومن كان مصيره إلى النار فإنها تنسيه كل ما تمتع به في حياته، ولو حيزت له الدنيا بحذافيرها؛ كما قال ﷺ: «**يؤتي بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مربك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب**»(١).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾.

لما ذكر سوء حال الذين بدلوا نعمة الله كفرًا، ومصيرهم النار، وبئس القرار، انتقل لوعظ المؤمنين وترغيبهم بالأعمال الصالحة قبل يوم القيامة.

قوله: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: قل لعبادي الذين شكروا نعمة الله بالتصديق بها باطنًا بقلوبهم، والانقياد لها ظاهرًا بجوارحهم.

﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، حيث هي عمود الإسلام، وأعظم أركانه بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، وعنوان الإحسان في عبادة الله تعالى والقيام بحقه.

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، أي: ويخرجوا النفقات من الذي أعطيناهم من الرزق: الواجب منها كالزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد، ومن تجب عليهم نفقته، وغير ذلك.

والنفقات المستحبة: كالصدقات والهدايا ونحو ذلك، وفي هذا إحسان إلى عباد الله.

وأمر الذين آمنوا بإقام الصلاة والإنفاق من رزق الله أمر بالثبات على ذلك والاستمرار عليه والاستزادة منه؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

وكما في قول المؤمنين ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، أي: وفقنا وزدنا هداية وثبتنا عليه.

وفي قوله ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ تنبيه وإرشاد إلى أنه عز وجل الرازق، وأن المال ماله استودعهم إيّاه، واستخلفهم فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

قال الشاعر:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يومًا أن ترد الودائع(١)

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مصدران منصوبان على الحال، أي: خفية وجهرًا، أي: ينفقون خفية وعلانية، فالإنفاق خفية وسرًّا أقرب إلى الإخلاص لله تعالى؛ كما قال ﷺ في ذكر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(٢).

وهو أستر لحال المتصدق عليه، وفيه رفع للحرج عنه.

والإنفاق علانية دعوة للإنفاق، وتشجيع عليه، وترغيب فيه، وحث عليه، ومنافسة فيه، وفي الحديث: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل**

---

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»(١).

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه، أي: من قبل إتيان يوم، وهو يوم القيامة، ونكِّر للتعظيم.

﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «لا بيعَ» بالفتح.

وقرأ الباقون بالرفع ﴿لَّا بَيۡعٞ﴾ والجملة في محل رفع صفة لـ«يوم».

والمعنى: لا معاوضة فيه، فلا تقبل فيه فدية؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [الحديد: ١٥].

﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾، «خلال» جمع خُلة؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فلا خلة في ذلك اليوم ولا صداقة، ولا ينفع الخليل في الدنيا خليله في ذلك اليوم ولا الصديق صديقه، بل الحال كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].

وكما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: ١٢٣].

أي: من قبل أن يأتي يوم لا سبيل فيه إلى استدراك ما فات بمعاوضة وفدية، ولا باستعانة بخليل أو صديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم المرء لنفسه، ولينظر ما قدمه لغده، وليتفقد أعماله، وليستعد لسفره، ويحاسب نفسه قبل الحساب الأكبر.

وليس المراد بهذا نفي الخلة مطلقًا في ذلك اليوم، فإن الخلة ثابتة بين المتقين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤ من حديث المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنه.

لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾.

بعد أن توعد المشركين ورغب المؤمنين وأمرهم بإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله سرًّا وعلانية، والمبادرة بذلك قبل يوم القيامة ذكّرهم عز وجل بالعديد من نعمه عليهم، مما يوجب شكره وعدم كفره.

قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الله وحده ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: أوجدهما على عظمتهما واتساعهما وما فيهما من المخلوقات على غير مثال سبق، وجعل السماء سقفًا محفوظًا، والأرض فراشًا.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، أي: من العلو ﴿مَآءٗ﴾ وهو المطر.

﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾، أي: فأخرج بسبب هذا الماء من الأرض.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المختلفة الطعوم والأشكال والألوان والروائح والمنافع، من أنواع الحبوب والفواكه والخضروات وغير ذلك.

﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ تتمتعون به أنتم وأنعامكم؛ كما قال تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس: ٣٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾، أي: وسخر لكم السفن، أي: طوعها وذللها.

﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تجري، أي: تسير في البحر على ظهر الماء مع ما تحمله من الأحمال الثقيلة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾، أي: بأمره الكوني حيث يسر لكم صنعتها، وأقدركم عليها؛ لتحملكم وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾، أي: وذلل لكم الأنهار وطوعها لكم تنشق من

الأرض والجبال، وتجري على ظهر الأرض المسافات الطويلة من بلد إلى آخر؛ لتشربوا منها وتسقوا دوابكم وحروثكم وأشجاركم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وذلل لكم الشمس والقمر وطوعهما لكم يجريان بحساب دقيق لمصالحكم وحروثكم وأنعامكم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾ [الرحمن: ٥].

﴿دَآئِبَيْنِ﴾ حال، أي: مستمرين في الجريان والسير لا يفتران لا ليلًا ولا نهارًا، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: وذلل لكم الليل والنهار وطوعهما؛ يتعاقبان؛ يأتي هذا ويذهب هذا، ويذهب هذا ويأتي هذا؛ يزيد هذا وينقص هذا، وينقص هذا ويزيد هذا، ويعتدلان أحيانًا؛ كما قال تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝﴾ [فاطر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

جعل عز وجل الليل وقتًا للسكن، والنهار وقتًا للعمل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص: ٧١- ٧٣].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، أي: وأعطاكم من كل الذي سألتموه، أي: من كل الذي تحتاجونه وتسألونه بلسان الحال أو بلسان المقال، فجلب لكم كل أنواع الخيرات، ودفع عنكم الشرور والمضرات.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ الإحصاء: ضبط العدد، مشتق من الحصى؛ لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبًا للغلط، قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر[(١)]

والمعنى: وإن تعدوا نعم الله لا تستطيعوا إحصاءها وعدها، فضلًا عن القيام بشكرها؛ كما قال ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(٢)].

وقال صلى الله عليه سلم: «**اللهم لك الحمد غير مكفي ربنا ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا**»[(٣)].

قال ابن القيم: «سبحان من لم يجعل لأحد معرفة نعمه إلا بالعلم بالتقصير عن معرفتها.. فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرًا».

وقال الشاعر:

لو كل جارحة مني لها لغة تثني عليك بما أوليت من حَسَنِ
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن[(٤)]

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ اللام في «الإنسان»: للجنس، أي: جنس الإنسان ﴿لَظَلُومٌ﴾ اللام: للتوكيد، و«ظلوم» على وزن «فعول»، أي: شديد الظلم لنفسه ولغيره، وأظلم الظلم الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٦، وأبو داود في الصلاة ٨٧٩، والنسائي في التطبيق ١١٠٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٤١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة- ما يقول إذا فرغ من طعامه ٥٤٥٨، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٤٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٥٦، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٤- من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٤) البيتان نسبا في «صفوة الصفوة» لابن الجوزي ١/ ٥٤٩-٥٥١، لأبي الحسن محمد بن أحمد بن سمعون. ونسبا في «التعرف لمذهب التصوف» ص١٠٠، لأبي علي الروذباري.

﴿كَفَّارٌ﴾ بربه جحود لنعمه.

والمعنى: أن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم كفار إلا من هداه الله ووفقه.

فالمراد بالإنسان على هذا الكافر؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦].

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن الكريم بتشبيه الأمور المعنوية المعقولة بأشياء حسية لتقريب المعاني والإيضاح والبيان.

٢- تشبيه الكلمة الطيبة، كلمة الإيمان والإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، في رسوخها وثباتها في قلب المؤمن، وما تثمره من قوة اليقين والثبات على الحق، ومن الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله عز وجل والأعمال الصالحة التي ترفع إليه؛ بشجرة طيبة أصلها ثابت راسخ في الأرض، لا تزعزعها الرياح، تعطي أكلها وثمرها كل حين بإذن ربها، كالنخلة ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

٣- الحث على الإسلام والإيمان والإخلاص لله عز وجل والترغيب في طيب الكلام، وحسن العمل وصلاحه.

٤- إثبات الإذن الكوني القدري لله عز وجل لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق حتى الجماد؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهَا﴾.

٦- أن الحكمة من ضرب الأمثال للناس لأجل أن يتذكروا ويتعظوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٧- تشبيه الكلمة الخبيثة: كلمة الكفر والشرك في عدم ثباتها وبطلانها وزوالها، وما تثمره من الأعمال والأقوال الباطلة بشجرة خبيثة كشجرة الحنظل- اجتثت من فوق الأرض وقلعت من أصلها، فلا ثبات لها ولا قرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

٨- التنفير من الكلمة الخبيثة كلمة الكفر والشرك والتحذير منها ومن ثمارها وآثارها؛ لأن الله شبهها بشجرة خبيثة منبتًا وثمرة، فلا ثبات لها، واجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وثمرتها غاية في الخبث طعمًا ولونًا وغير ذلك.

٩- جمع القرآن بين الترغيب في الخير والترهيب من الشر، بين الحث على الإيمان، والتحذير من الكفر.

١٠- أن الوصف بالطيب والخبث يطلق على الكلام ويطلق على الأعيان كما يطلق على المعاني وعلى الأشخاص[(١)].

١١- تثبيت الله تعالى- الذين آمنوا- بفضله- بسبب إيمانهم- بالقول الثابت، والكلمة الطيبة في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيثبتهم في الدنيا على الإيمان، ويثبتهم في الآخرة عند السؤال في قبورهم وفي عرصات القيامة، وعلى الصراط، وعند الميزان، وعند تطاير الصحف.

١٢- حاجة العبد الشديدة إلى تثبيت الله تعالى له في الدنيا والآخرة؛ لهذا ينبغي له أن يسأل الله تعالى الثبات، كما كان ﷺ يكثر من قوله «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[(٢)]، وكما في قول الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

قال ابن القيم: «وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].. وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]»[(٣)].

---

(١) راجع الكلام على قوله تعالى في سورة المائدة ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [الآية: ١٠٠].
(٢) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٤٠- من حديث أنس رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن».
(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦.

١٣- إثبات الدار الآخرة ويوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

١٤- إضلال الله عز وجل الظالمين بالشرك والكفر- عدلًا منه بسبب ظلمهم- عن الصراط المستقيم والطريق القويم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٥- وجوب الحذر من الظلم بالشرك والكفر، فإنه سبب للضلال.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأنه يفعل ما يشاء، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

١٧- التقرير والتعجب من حال الذين بدلوا نعمة الله ببعثته ﷺ كفرًا بما أنزله الله تعالى عليه، وجحودًا لرسالته ﷺ، وأحلوا قومهم وأتباعهم دار البوار والخسار؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

١٨- أن دار البوار والخسار الذي لا خسار بعده هي جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾.

١٩- نزول الكفار بجهنم وحلولهم فيها واصطلاؤهم بلهيبها، وأنها بئس المستقر؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

٢٠- وجوب شكر نعمة الله تعالى- بالإيمان به، والاستعانة بها على طاعته، والحذر من كفرها.

٢١- ينبغي الحذر من دعاة الشر والكفر والضلال؛ لأنهم دعاة إلى النار؛ كما قال تعالى عن فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

٢٢- اتخاذ المشركين أندادًا لله وشركاء ونظراء؛ ليستمروا على الضلال عن سبيل الله ويُضلوا غيرهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

٢٣- تهديد الكافرين وتوعدهم وتحقير ما هم فيه من المتاع؛ لأن مصيرهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

٢٤- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢٥- أمر المؤمنين بإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله، أي: بالدوام على ذلك والاستمرار والثبات عليه والاستزادة منه؛ لقوله تعالى: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٢٦- لا بد من الجمع بين إيمان الباطن وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٢٧- أن الصلاة لا تكون صلاة، ولا تنفع صاحبها إلا إذا أقيمت إقامة صحيحة بشروطها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: يصلوا.

٢٨- أهمية الصلاة؛ لأنها ثاني أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، وعمود الإسلام، وأهمية الإنفاق من رزق الله بإخراج الزكاة وغير ذلك، لأن الزكاة أعظم أركان الإسلام بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية؛ لهذا خص الصلاة والإنفاق بالذكر.

٢٩- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء الحقوق الواجبة في المال، والندب إلى صلاة النوافل وإلى الصدقة والهدية، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٣٠- أن الرازق هو الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٣١- أن المطلوب في الإنفاق بعض الذي رزق الإنسان، وهو القليل فلم يكلف الله الإنسان إنفاق ماله كله.

٣٢- جواز الإسرار والإعلان بالإنفاق، زكاة كان ذلك أو صدقة أو هدية أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وأن الإسرار أولى وأفضل؛ لأن الله قدمه، ولأنه أقرب للإخلاص.

٣٣- ينبغي المبادرة بالأعمال الصالحة، من إقام الصلاة، والإنفاق، وغير ذلك قبل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

٣٤- أن يوم القيامة لا معاوضة فيه ولا فدية، ولا ينفع الخليل في الدنيا خليله في

ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

٣٥- تذكير الله عز وجل الخلق بعظمته وبالعديد من نعمه، ليشكروه ولا يكفروه، من خلق السموات والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإخراج الثمرات به، رزقًا لهم، وتسخير الفلك والأنهار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وإيتائهم من كل ما سألوه، وغير ذلك من نعمه التي لا يمكن إحصاؤها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

٣٦- عظمة الله عز وجل وتمام قدرته وخضوع جميع المخلوقات له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

٣٧- أن من أعظم مخلوقات الله ودلائل كمال قدرته خلق السموات والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإخراج الثمرات، وتسخير الفلك تجري في البحر، وتسخير الأنهار والشمس والقمر والليل والنهار.

٣٨- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، أي: فأخرج بسببه.

٣٩- الامتنان على الخلق بإيتائهم من كل ما سألوه، بلسان المقال أو بلسان الحال، أي: كل ما احتاجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

٤٠- أن نعم الله تعالى- على العباد كثيرة لا حصر لها، ولا يستطاع عدها، ولا إحصاؤها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

٤١- أن الإنسان ظلوم في إشراكه بربه ومخالفة أمره، ظلوم لنفسه ولغيره

﴿كَفَّارٌ﴾ بربه جحود لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ لا يستثنى من هذا إلا من رحمه الله وهداه ووفقه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾، أي: واذكر حين قال إبراهيم عليه السلام.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، أي: يا رب ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، أي: صير هذا البلد «مكة البلد الحرام» آمنا، وقال في سورة البقرة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] بالتنكير، وهذا- والله أعلم- لما كان أرضًا، أي: قبل بنائه، وقال هنا: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ بالتعريف؛ لأن هذا- والله أعلم- بعد بنائه.

قال ابن كثير(١): «ولهذا قال هنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق في ثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضًا، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقد ابتدأ إبراهيم عليه السلام دعواته هذه بسؤال ربه الأمن للبيت الحرام؛ لأن الأمن به قوام أمر الدين والدنيا، ولا قيام لشيء من ذلك بدون الأمن؛ ولهذا امتن الله تعالى به على الناس في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٤٣١.

ﵟٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَﵞ [المائدة: ٩٧].

وقال تعالى: ﵟفَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤ﵞ [قريش: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﵟأَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡﵞ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﵟأَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧ﵞ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﵟوَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاﵞ [آل عمران: ٩٧].

وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﵟأَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡﵞ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﵟإِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاﵞ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

قال السعدي[1]: «فاستجاب الله دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمته قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم».

ﵟوَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَﵞ لما دعا عليه السلام للبيت بالأمن دعا لنفسه ولبنيه بالأمن من الشرك فقال: ﵟوَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَﵞ، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب، أي: اجنبني وبني عبادة الأصنام، أي: بعّدني وبني، أي: اجعلني وإياهم جانبًا بعيدًا عن عبادتها، واجعلنا مجتنبيها، أي: ووفقنا لاجتنابها والابتعاد عنها.

قال ابن القيم: «فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنيب فعله عز وجل ولا سبيل إلى فعلهم إلا بفعله»[2].

والمراد بقوله ﵟوَبَنِيَّﵞ ما يشمل البنات على سبيل تغليب الذكور على الإناث، فدعاؤه عليه السلام لجميع ذريته.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ١٤٤.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٧.

وقال ابن كثير[١].: «وينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته به».

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾، أي: الأصنام.

﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾، أي: كن سببًا في ضلال كثير من الناس؛ لافتتانهم بعبادتهن.

﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية، والاتباع: تمام الموافقة، أي: فمن وافقني والتحق بي وسار على ملتي، وكان حنيفًا مسلمًا.

﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ فقال: «**وماذا أعددت لها؟**» قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ. فقال: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»[٢].

وعن أبي وائل قال: قال عبد الله بن مسعود: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**»[٣].

قال الشافعي:

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعهْ

وأكره من بضاعته المعاصي ... وإن كنا سواءً في البضاعهْ

فأجابه الإمام أحمد:

تحب الصالحين وأنت منهم ... محب القوم يلحق بالجماعه[٤]

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملة شرطية كسابقتها، أي: ومن خالف

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٤٣١.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٨٨، ومسلم في البر والصلة ٢٦٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٦٩، ومسلم في البر والصلة ٢٦٤١.

(٤) انظر: «بلغة السالك لأقرب المسالك» (٤/ ٧٣٥).

أمري وسار على غير ملتي ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: فإنك ذو مغفرة واسعة لذنوب التائبين من عبادك، ذو رحمة واسعة، تسع جميع خلقك. وهذا- والله أعلم- محمول على رجائه عليه السلام المغفرة والرحمة لمن عصاه ممن كان على ملته، أو محمول على رجائه المغفرة والرحمة له بأن يوفقه الله لاتباع ملته فتشمله مغفرة الله تعالى ورحمته.

وقال السعدي(١): « وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية. وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي**» وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد- وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله صلى لله عليه وسلم بما قال- وهو أعلم- فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك»(٢).

وبهذا الدعاء وبهذا البكاء منه ﷺ دلالة على عظم شفقته ﷺ على أمته، شفقة فاق بها شفقة أبيه إبراهيم الخليل- عليهما الصلاة والسلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾، أي: أسكنت بعض ذريتي. يعني: ابنه إسماعيل عليه السلام الذي أسكنه مع أمه هاجر، وهو دعاء له ولذريته.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ٤٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٠٢.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ الوادي: الأرض بين الجبال، وهو وادي مكة ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، أي: لا يصلح للزرع؛ لكثرة حجارته وقلة مائه، لا سكن فيه، ولا داع ولا مجيب؛ ولهذا تضرع إبراهيم عليه السلام إلى ربه بهذا الدعاء متوكلًا عليه.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يقيموا الصلاة، وخص الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات البدنية، فمن أقامها كان مقيمًا لدينه، وهي علامة الإيمان وعمود الإسلام.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، أي: فصيّر قلوبًا من الناس تميل إليهم، وتحن إلى الموضع الذي هم ساكنون فيه، وتسرع إليه.

وقد استجاب الله دعوته فأخرج من ذرية إسماعيل محمدًا ﷺ أفضل رسله وخاتمهم، الذي ولد في مكة البلد الحرام، أفضل بقاع الأرض، وأحبها إلى الله، وبعثه الله وأنزل عليه القرآن أفضل كتبه فيها، فدعا إلى الحنيفية ملة إبراهيم، وإلى دين الإسلام، آخر الأديان وأكملها، وفرض الله عليه وعلى أمته الصلاة وغيرها من الفرائض والشرائع، وفرض عز وجل حج البيت الحرام، فصار هذا البيت موئلًا للناس للحج والعمرة والصلاة والاعتكاف والعبادة، وصارت تجبى إليه ثمرات كل شيء، فأقبل إليه كل من يريد الله والدار الآخرة، وصار كل من حجه أو اعتمره لا يكاد يقضي منه وطرًا، وكلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه إليه وولعه فيه، وهذا- والله أعلم- سر إضافته تعالى البيت إلى نفسه الشريفة.

وقصده الكثيرون للتجارة وطلب الرزق، وكل ذلك ببركة دعاء الخليل عليه الصلاة والسلام.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: وأعطهم من الثمرات المختلفة.

وقد استجاب الله دعاءه فصارت تجبى إليه ثمرات كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، أي: لأجل أن يشكروا نعمتك بالاعتراف بها ظاهرًا وباطنًا، ونسبتها إليك، والاستعانة بها على طاعتك وذكرك وشكرك، وحسن عبادتك.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾.

بهذا الثناء العظيم والدعوات المباركة ختم خليل الرحمن دعاءه ربه، فاستلهم- وفقك الله- هذا الثناء وهذه الدعوات العظيمة، ينفعك الله بها.

قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾، «ما» في الموضعين: موصولة، أي: يا ربنا إنك أعلم بأحوالنا منا، تعلم الذي نخفيه، أي: الذي نضمره ونسره من النوايا ومكنونات الصدور، ومن الأعمال والأقوال، وغير ذلك، وتعلم الذي نعلنه، أي: الذي نظهره ونجهر به. فتعلم أن قصدي في هذه الدعوات الإخلاص لك ورضاك.

وقدّم ذكر علمه بما يخفون؛ لأن السر والعلانية عنده عز وجل سواء؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، فأخبر بعلمه بما يخفون وما يعلنون، ثم أخبر بأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من ذكر العام بعد الخاص. وقدم قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ للاهتمام.

و«من» في قوله: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ولا يخفى على الله أيُّ شيء في الأرض ولا في السماء، مهما كان سرًّا أو علانية، باطنًا أو ظاهرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، صغيرًا أو كبيرًا؛ لأنه رب كل شيء وخالقه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: وصف المحمود بصفات الكمال والثناء عليه مع المحبة والتعظيم، ﴿لِلَّهِ﴾ اللام: لام الاستحقاق والاختصاص، أي: الحمد التام الكامل مستحق لله تعالى، وخاص به.

﴿ٱلَّذِي وَهَبَ لِي﴾، أي: الذي أعطاني ورزقني.

﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾، أي: على كبر سني، وحال الإياس من الأولاد، ﴿إِسۡمَٰعِيلَ

وَإِسۡحَٰقَ﴾ حيث ولد إسماعيل وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة، وولد له إسحاق وعمره مائة سنة، وكان لا يولد له من قبل.

فهبته عز وجل له الولد نعمة، وكونها في حال الإياس من الولد نعمة أخرى، واصطفاء الله تعالى لهم وجعلهم أنبياء صالحين أجل وأفضل.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، «إن»: حرف توكيد ونصب، واللام: للتوكيد، أي: إن ربي لسميع قريب مجيب الدعاء ممن دعاه، وقد دعوته فاستجاب لي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

والدعاء هنا يشمل دعاء العبادة والثناء، ودعاء المسألة والطلب، وكل منهما عبادة؛ ولهذا قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠]»(١).

فالمراد بالسمع هنا: السمع الخاص، وهو سمع الإجابة.

قال ابن القيم: «قول إبراهيم هنا ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام؛ لأنه يسمع كل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء، ودعاء الطلب. وسمع الرب تبارك وتعالى له: إثابته على الثناء، وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا»(٢).

قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠﴾.

تضرع الخليل عليه السلام- إلى ربه بأنه أسكن بعضًا من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيته المحرم؛ ليقيموا الصلاة، داعيًا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وأن يرزقهم من الثمرات؛ لعلهم يشكرون، ثم قبيل ختام هذه الدعوات المباركة وتأكيدًا على أهمية الصلاة وعظم شأنها دعا ربه أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته، وأن يتقبل دعاءه.

قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: محافظًا عليها، مقيما لحدودها، كما شرعها الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزكاة ٢٩٦٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٢٨، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٨.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، أي: واجعل من ذريتي مقيمين للصلاة.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة: «دعائي» بإثبات الياء ساكنة، وقرأ الباقون: ﴿دُعَآءِ﴾ بحذفها تخفيفًا.

وقوله: ﴿وَتَقَبَّلْ﴾ معطوف على «اجعلني» والدعاء كما تقدم: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، أي: وتقبل عبادتي: وأجب سؤالي ودعواتي.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي﴾ والمغفرة ستر الذنب، والتجاوز عن العقوبة، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن كانوا معصومين عن الخطأ في تبليغ ما أرسلوا به، وعن الوقوع في الكبائر، إلا أنهم ليسوا معصومين عن الوقوع في بعض الصغائر.

وأيضًا: فليس في سؤالهم المغفرة دلالة على حصول الذنب منهم، وقد كان نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد ولد آدم يستغفر الله في المجلس مئة مرة(١).

﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾، أي: واغفر لوالدي، وهذا الدعاء قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقدّم طلب المغفرة لنفسه؛ لأنها أولى، قال ﷺ: «**ابدأ بنفسك**»(٢).

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: واغفر للمؤمنين كلهم.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾، أي: يوم تحاسب عبادك وتجازيهم على أعمالهم، خيرها وشرها.

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله عز وجل للنبي ﷺ بذكر دعاء إبراهيم عليه السلام ربه للبلد الحرام

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣٤، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب». وأخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٨١٤، إلا أنه قال: «سبعين في اليوم».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٩٧، وأبو داود في العتق ٣٩٥٧، والنسائي في البيوع ٤٦٥٢- من حديث جابر رضي الله عنه.

بالأمن، ودعائه لنفسه ولذريته وثنائه على ربه عز وجل وحمده له، وتذكير أمته ﷺ بتلك الدعوات المباركة.

٢- إثبات نبوة إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ الآيات.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لإبراهيم؛ لقوله عليه السلام ﴿رَبِّ﴾، ﴿رَّبَّنَآ﴾، ﴿رَبِّي﴾.

٤- أن دعاء الله وسؤاله باسم ووصف الربوبية من أعظم الأدعية وأفضلها وأقربها للقبول والاستجابة؛ لما فيه من الذل والخضوع لله تعالى، والإقرار والاعتراف له بأنه الخالق المالك المدبر الذي بيده العطاء والمنع؛ ولهذا كان جل دعاء إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات وفي غيرها، وكذا دعاء الأنبياء عليهم السلام باسم الرب ووصف الربوبية.

٥- أهمية الأمن؛ لأنه لا يستقيم أمر الدين والدنيا إلا به؛ ولهذا ابتدأ به الخليل عليه السلام في دعائه ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وامتن الله به على سكان الحرم، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال ﷺ: «**من أصبح آمنًا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(١).

٦- فضيلة الخليل- عليه السلام، وأنه قدوة وإمام في التوحيد والإخلاص لله تعالى، والحذر من الشرك وعبادة الأصنام، ومعرفة خطره، والبراءة منه؛ لهذا ابتدأ بعد دعائه ربه بأمن البلد الحرام بدعائه ربه أن يؤمنه وبنيه من عبادة الأصنام، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

٧- أن من أحق الناس بالدعاء له بعد دعاء المرء لنفسه الدعاء للبنين والذرية لتثنية

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١- من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه وكانت له صحبة- وقال الترمذي: «حسن غريب».

إبراهيم بالدعاء لبنيه؛ لقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٨- أن على العبد أن يسأل الله أن يجنبه الشرك والمعاصي، وأن يوفقه لاجتنابها والابتعاد عنها، ويعمل بنفسه على اجتنابها والبعد عنها.

٩- خطر الشرك وعبادة الأصنام، وأنهن سبب لضلال كثير من الناس؛ لقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

١٠- أن أكثر الناس على ضلال فلا يغتر بكثرة الظالمين؛ لقوله: ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

١١- إعلان الخليل عليه السلام أن من تبعه في إخلاص التوحيد لله والبعد عن عبادة الأصنام فهو منه، ومن أهل ملته الحنيفية، وبراءته ممن عصاه، مع رجائه هدايته والمغفرة والرحمة له؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢- حسن ظن إبراهيم عليه السلام بربه، وعدم انقطاع رجائه من هداية الله تعالى لمن عصاه من الناس؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقد فاقه في هذا نبينا محمد ﷺ حين قال: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

أما عيسى عليه السلام فقد قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] مسلمًا الأمر فيهم لله عز وجل، وختم بقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأدبًا مع الله، وبعدًا عن الإدلال على ربه.

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١٣- إثبات سعة مغفرته عز وجل ورحمته؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٤- إسكان إبراهيم عليه السلام بعض ذريته، وهو ابنه إسماعيل مع أمه هاجر بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم؛ لأجل أن يقيموا الصلاة؛ لقوله عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٥- حكمة الله تعالى في جعل بيته المحرم في واد غير ذي زرع، قليل ماؤه، جبلية صخرية أرضه، ولعل من حكمة ذلك أن تظهر قدرته التامة في جعل هذا البيت مأوى للأفئدة، ومثابة للناس وأمنًا.

١٦- قوة توكل إبراهيم عليه السلام على ربه في حفظه عز وجل لابنه إسماعيل وأمه وتوليه- سبحانه- إياهما وعنايته بهما، مع أنه أسكنهما في واد غير ذي زرع، ليس فيه داع ولا مجيب.

١٧- أن من حفظ الله حفظه الله في دينه ودنياه وأخراه وفي نفسه وولده وأهله وماله وغير ذلك، وقد قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»[١].

وهذا المعنى يغيب عن كثير من الناس إلا من رحمه الله ووفقه.

١٨- دعاؤه عليه السلام بجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، ورزقهم من الثمرات؛ ليشكروا الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

١٩- وجوب شكر نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، من الرزق وغير ذلك.

٢٠- أن ما يشهده البلد الحرام من توافد الناس إليه من كل فج عميق، ومن كل حدب وصوب للحج والعمرة والطواف والصلاة والاعتكاف والعبادة، أو لطلب الرزق، أو لجلب الأرزاق إليه والثمرات والخيرات، مما لا يكاد يوجد في أي بلد سواه، كل ذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل دعاء إبراهيم عليه السلام واستجابة الله عز وجل لدعائه.

---

(١) سبق تخريجه.

٢١- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فإبراهيم عليه السلام أنزل ابنه إسماعيل وأمه هاجر في هذا الوادي القفر طاعة لله تعالى عند بيته المحرم؛ ليقيموا الصلاة، فجعل الله هذا البيت مثابة للناس وأمنا، تجبى إليه ثمرات كل شيء.

٢٢- ثناؤه عليه السلام على ربه عز وجل بعلمه ما يخفون وما يعلنون، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢٣- حمده عليه السلام لله عز وجل على هبته له على كبره ابنيه: إسماعيل وإسحاق- عليهما السلام- استجابة لدعائه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾.

٢٤- أن الواهب للذرية هو الله عز وجل وهو المستحق للحمد على ذلك.

٢٥- قدرة الله التامة على هبة الذرية، ولو خالف ذلك ما كان معتادًا من كبر الزوجين أو عقمهما أو أحدهما، ونحو ذلك؛ لأن الله وهب إبراهيم ابنيه: إسماعيل وإسحاق بعد ما كان شيخًا كبيرًا، وزوجه عجوزًا عقيمًا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ [الذاريات: ٢٩].

٢٦- ثناؤه عليه السلام على ربه بسماعه الدعاء واستجابته له؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

٢٧- إثبات صفة السمع لله عز وجل فهو يسمع الدعاء وجميع الأقوال والأصوات.

٢٨- دعاؤه عليه السلام ربه أن يجعله مقيم الصلاة، وأن يجعل من ذريته مقيمين لها.

٢٩- عظم أمر الصلاة وأهميتها وعناية الخليل عليه السلام بها، فقد ذكر أولًا أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم؛ لأجل أن يقيموا الصلاة، ثم دعا قبيل ختام هذه الدعوات ربه أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته.

٣٠- تضرعه عليه السلام وإلحاحه على ربه بقبول دعواته؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾.

٣١- سؤاله عليه السلام ربه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم حسابه عز وجل للخلائق ومجازاته لهم بأعمالهم؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

وهذا الدعاء من إبراهيم لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

٣٢- إثبات الحساب والجزاء على الأعمال.

٣٣- تعظيم إبراهيم عليه السلام لربه وإخلاصه له التوحيد، فقد نادى ربه باسم الربوبية وصفتها مع كل دعوة من هذه الدعوات، وكرر ذلك تسع مرات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، أي: ولا تظنن الله، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: لا تحسبن الله غافلًا عن الذي يعمله الظالمون، أو عن عملهم، أي: لا تحسبه إذا أنظرهم وأجلهم وأمهلهم أنه غافل عنهم وعما يعملونه من الشرك والكفر والكيد للدعوة ومحاربة الله ورسوله والمؤمنين، وأنه لا يعاقبهم، بل يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عدًّا، ويمهلهم ولا يهملهم. والمراد بـ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ مشركو مكة وغيرهم من أهل الشرك والكفر والمعاصي.

وقوله ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ بالتعريف دلالة على أن كفار مكة بلغوا الغاية في الظلم من الظلم بين العبد وبين ربه، والظلم لنفسه، والظلم للآخرين، من الشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب، والكفر والمعاصي، والكيد للدعوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة: ٤٦]، أي: الشرك العظيم.

وفي الآية تسلية للرسول ﷺ، ووعد له أكيد، ووعيد للظالمين المشركين شديد، قال ميمون بن مهران: «هي وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم»(١).

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾، أي: ينظرهم ويوجلهم؛ استدراجًا لهم ليزدادوا إثمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣، القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١].

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ** ﷺ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»(٢).

﴿لِيَوْمٍ﴾، أي: ليوم عظيم، شديد، ثقيل، عسير، على الكافرين غير يسير، وهو يوم القيامة، ونكّر للتعظيم.

﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ في محل جر صفة «ليوم»، أي: ترتفع فيه الأبصار، أي: العيون، فلا تتحرك ولا تطرف من شدة الخوف والفزع؛ لعظم ما ترى من أهوال ذلك اليوم، يُبيِّن هذا قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧].

﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: مسرعين إلى إجابة الداعي إلى الوقوف بين يدي الله عز وجل مادي أعناقهم من شدة الخوف؛ كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: ٤٣- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٧٠٣- ٧٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٢٨٦، ومسلم في البر والصلة ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨- من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه.

يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴿١٠٨﴾ [طه: ١٠٨].

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، أي: رافعي رؤوسهم، أو مطأطئي رؤوسهم من الذل.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، أي: لا يرجع إليهم طرفهم لحظة، بل شاخصة أبصارهم من شدة الهول والفزع.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾، أي: خاوية خربة، ليس فيها شيء من الخير، قد ارتفعت عن أماكنها وبلغت الحناجر من شدة الهول والهم والغم والحزن والخوف والقلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: حذر المشركين والكفار من قريش وغيرهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: حين يأتيهم العذاب في الآخرة: عذاب القيامة وأهوالها وعذاب النار، مبيناً لهم الأعمال الموجبة للعذاب ليجتنبوها، وأحوال المعذبين ليرتدعوا.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالشرك والكفر والتكذيب، وظلم أنفسهم وظلم غيرهم، نادمين على ذلك، ولات ساعة مندم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

، أي: يا ربنا أنظرنا وأجلنا إلى وقت قريب، أي: ردنا إلى الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾

[المنافقون: ٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]،، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾، أي: نستجب لما دعوتنا إليه من الإيمان، وترك الكفر والشرك والمعاصي.

﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: ونتبع الرسل فيما دعونا إليه من التوحيد وشرائع الإيمان.

وهذا لأجل أن يتخلصوا من العذاب، وإلا فهم كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ ولهذا قال الله تعالى لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أولم تكونوا حلفتم من قبل، أي: في الحياة الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، «من» لتنصيص العموم في النفي، أي: ما لكم أيّ زوال عن الدنيا وانتقال منها إلى الآخرة، وأنه لا بعث ولا جزاء، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

أي: فها قد تبين حنثكم في إقسامكم وكذبكم فيما تدعونه.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: وسكنتم في حياتكم الدنيا ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر والتكذيب لرسل الله من

الأمم السابقة، كقوم نوح، وعاد وثمود وغيرهم.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾، أي: ظهر لكم وعلمتم كيف فعلنا بهم، وذلك من خلال ما أخبرناكم به عنهم في القرآن، ومن خلال ما تشاهدون مما بقي من آثار منازلهم وقراهم وديارهم المدمرة، ومن خلال ما يتناقله الناس من أخبارهم، حيث أخذناهم بأنواع العقوبات والمثلات، وأهلكناهم بسبب ظلمهم.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ وذلك بتشبيه الأمور المعنوية المعقولة بأشياء حسية، لتقريب المعاني، وزيادة الإيضاح والبيان، وإزالة اللبس والشك عنكم، ولكنكم لم تنتفعوا بذلك، ولم تعتبروا وتتعظوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ الذي تمكنوا منه وقدروا عليه، والمكر: الكيد والتدبير لإلحاق الأذى بالآخرين، أي: وقد مكروا وكادوا للرسول ﷺ ودعوته وللمؤمنين كل ما في وسعهم، وبالغوا في العتو والعناد والشرك والكفر والمخالفة؛ كما مكر المكذبون من الأمم السابقة مكرهم، وكادوا للرسل ودعوتهم؛ كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢].

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ وعيد وتهديد لهم، أي: هو محيط به علمًا وقدرة على المكر بهم مقابل مكرهم برسله ودعوتهم، وجزاء مكرهم عنده، ووبال مكرهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قرأ الكسائي: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى، ورفع الثانية، وقرأ الباقون ﴿لِتَزُولَ﴾ بكسر الأولى ونصب الثانية.

أي: وإن كان مكر المكذبين للرسل وبما جاؤوا به من الحق من عظمه ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾، «من» سببية، أي: لتزول بسببه الجبال الراسيات عن أماكنها لو كان

لها أن تزول؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾

وفي هذا تعريض بثبات الرسول ﷺ والمؤمنين كثبات الجبال الراسيات، فلا يزعزعهم مكر الماكرين من المشركين وغيرهم.

وقيل: «إن» في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ نافية بمعنى «ما» فيكون المعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي: أن مكرهم ما ضر الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم، فيشبه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧]، والقول الأول أصح وأظهر.

الفوائد والأحكام:

١- التهديد والوعيد للظالمين، وبيان أن الله ليس بغافل عما يعملونه من الشرك والكفر والمعاصي والعتو والعناد، ولا ينبغي أن يظن ذلك أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٢- أن الله عز وجل لا يغفل، لكنه يمهل ولا يهمل.

٣- تسلية الرسول ﷺ وتهديد الظالمين.

٤- التحذير من الظلم بالشرك وما دونه، ومن ظلم النفس، وظلم الآخرين.

٥- تأخير عذاب الظالمين وتأجيله إلى يوم القيامة؛ استدراجًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾.

٦- عظم أهوال يوم القيامة، وسوء أحوال الظالمين في ذلك اليوم، من شدة الخوف والفزع والقلق، فالأبصار منهم شاخصة، والخطا منهم حثيثة مسرعة لإجابة الداعي، والرؤوس منهم مقنعة مرتفعة أو مطأطئة، والطرف منهم لا يرجع، والأفئدة منهم خاوية خربة، مرتفعة عن أماكنها، قد بلغت الحناجر؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾.

٧- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بإنذار الناس وتحذيرهم يوم يأتيهم العذاب، ببيان أسباب ورودهم العذاب، وأسباب النجاة منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الآية.

٨- طلب الظالمين في ذلك اليوم التأخير إلى أجل قريب، والرجعة إلى الدنيا؛ ليجيبوا دعوة الله، ويتبعوا رسله؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ وهيهات لهم ذلك.

٩- تقريع المشركين المكذبين وتذكيرهم- بعد أن رأوا العذاب وطلبوا الرجعة إلى الدنيا- بإقسامهم من قبل في الدنيا ما لهم من زوال، أي: إنما هي الحياة الدنيا فقط، ولا معاد بعد الموت، ولا حياة ولا جزاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾.

١٠- تقريعهم وتوبيخهم لعدم أخذهم العظة والعبرة مما حل بالمكذبين قبلهم، وقد سكنوا مساكنهم، ورأوا آثار التدمير في ديارهم، وعلموا كيف فعل الله بهم، وما أوقعه بهم من العقوبات، وضرب الله لهم الأمثال؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

١١- أن السعيد من وعظ بغيره، فيجب أخذ العظة والعبرة مما حل ويحل بمن خالف أمر الله عز وجل.

١٢- أن مخالفة أمر الله بالشرك والكفر والمعاصي ظلم للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

١٣- الإنذار والإعذار ببيان ما فعل الله بالمكذبين من الأمم السابقة، وأن الله تعالى لا يعاقب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾.

١٤- نعمة الله تعالى على العباد بضرب الأمثال؛ لتقريب وبيان الأمور المعنوية المعقولة؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

١٥- مكر الكفار والمكذبين للرسل ما بوسعهم من المكر والكيد لرسل الله، وتكذيب دعوتهم، والصد عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾.

١٦- علم الله بمكر المكذبين لرسله ودعوتهم، وتهديده عز وجل لهم، وأخذهم، ومكره بهم بأنواع العقوبات في الدنيا، والعذاب في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾.

١٧- عظم مكر المكذبين لرسله وكيدهم لهم ولدعوتهم، مما تكاد أن تزول منه الجبال عن أماكنها لو كان لها أن تزول؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ الفاء عاطفة، أو رابطة لجواب شرط مقدر، والخطاب للنبي، وفيه تسلية له ﷺ وتثبيت لقلبه، ويجوز أن يكون الخطاب له ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: فلا تظنن الله مخلف وعده رسله بنصرهم ونجاتهم وسعادتهم وإثابتهم بالثواب الجزيل هم وأتباعهم في الدنيا والآخرة، وفي خذلان أعدائهم وإهلاكهم وعقابهم في الدنيا والآخرة.

وفي هذا تقرير وتأكيد لوعده لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٥٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ الجملة فيها تعليل لما قبلها، أي: لأن الله عزيز ذو انتقام، له العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، فلا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، «ذو» بمعنى: صاحب، أي: ذو انتقام ممن كفر به، وخالف أمره وارتكب نهيه وما يغضبه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ

عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١، المرسلات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩، المطففين: ١٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ هذا من علامات القيامة وأهوالها، فتبدل الأرض بأرض كالفضة البيضاء، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النَّقي، ليس فيها معلم لأحد**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**على الصراط**»(٢).

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه الطويل في سؤال اليهودي له ﷺ قال: أين الناس ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هم في الظلمة دون الجسر**»(٣).

قال السعدي(٤): «وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعًا صفصفًا لا ترى عوجًا ولا أمتًا».

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، أي: وتبدل السموات غير السموات. قال السعدي: «وتكون

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- يقبض الله الأرض يوم القيامة ٦٥٢١، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٩٠. وقرص النقي: الخبز الحواري، وهو الذي نخل مرة بعد مرة.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- البعث والنشور، وصفة الأرض يوم القيامة ٢٧٩١، والترمذي في تفسير سورة إبراهيم ٣١٢١، وابن ماجه في الزهد- ذكر البعث ٤٢٧٩، وأحمد ٦/ ٣٥.

(٣) أخرجه مسلم في الحيض ٣١٥.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ١٥١.

السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى- بيمينه».

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، أي: وخرج جميع الخلائق من قبورهم لله ظاهرين لا يخفى على الله منهم شيء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

﴿الْوَاحِدِ﴾، أي: الأحد الفرد، ذو الوحدانية التامة، في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته وعظمته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١].

و«الواحد» من أسمائه عز وجل.

﴿الْقَهَّارِ﴾ من أسماء الله عز وجل، أي: الذي قهر كل شيء، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب وذلت لعزته الشدائد الصلاب، وكل ما في الكون تحت تصرفه وتدبيره.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: وتشاهد المجرمين بكفرهم وفسادهم وارتكابهم الجرائم والموبقات.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة.

﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾، أي: قد قرن وربط بعضهم إلى بعض، وقرنت أيديهم وأرجلهم بالأغلال والقيود والسلاسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣].

والأصفاد: جمع: «صفاد»، وهو: القيد والغل، وهي: الأغلال والقيود والسلاسل، قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: ٤].

قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا(١)

(١) انظر: «شرح القصائد السبع» ص٤١٢، «جامع البيان» ١٣/ ٧٤٠.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾، أي: ثيابهم التي يلبسونها ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو مادة تهنأ بها الإبل، أي: تطلى وتدهن بها إذا أصابها الجرب، وهي سريعة الاشتعال، منتنة شديدة الحرارة، وقيل: هو النحاس المذاب.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: تعلو وتصلى وتلفح وجوههم النار؛ كما قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**»(١).

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ اللام: للتعليل، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: لأجل أن يجزي الله في القيامة كل نفس بالذي كسبته، أو بكسبها من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: إن الله سريع الحساب قريبه؛ لأن حسابه آت لا محالة، وكل آت قريب؛ كما قال تعالى ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]؛ ولأن الدنيا كلها في الآخرة قليل، وعمر الإنسان فيها مهما طال فهو قليل.

ولأن الإنسان يجد شيئًا من جزاء عمله خيرًا كان أو شرًّا بعد فعله، ويظهر أثره عليه، فإذا عمل حسنة أو سيئة في الليل ظهر أثرها على وجهه وعلى تصرفاته في النهار.

وأيضًا هو عز وجل ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: يحصي أعمال عباده ويحاسبهم بأقل وقت، فلا يحتاج إلى مزيد وقت لحسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز- التشديد في النياحة ٩٣٤، وأحمد ٥/ ٣٤٢.

لأنه خالقهم، وهو أعلم بهم، ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم وأعمالهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤] وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾، أي: هذا القرآن بلاغ للناس كلهم، أي: تبليغ وإيصال لهم رسالة ربهم؛ كما قال تعالى عن الرسل: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وأيضًا بلاغ لهم يستيقظون به من غفلتهم، ويصلون به إلى رضا ربهم وجنتِه، والنجاةِ من النار، والسعادةِ الأبدية، وفي حديث الثلاثة: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بِك**»[1].

﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾، أي: ولأجل أن ينذروا به، أي: بهذا القرآن، أي: يوعظوا ويحذروا ويخوفوا به عقاب الله وعذابه في الدنيا والآخرة بما تضمنه من ذكر عقوبات المكذبين في الدنيا ووعيدهم في الآخرة، أي: فيه إقامة الحجة عليهم والتحذير لهم، فيه الوعد والوعيد، والإعذار والإنذار.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، أي: ولأجل أن يعلموا أنما الله إله واحد، بالاستدلال بما في هذا القرآن من الآيات والحجج والبراهين والدلائل على وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، أي: وليتعظ ويعتبر أصحاب العقول بما في هذا القرآن، فيهتدون به إلى الصراط المستقيم الذي فيه سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

وإنما خص «أولو الألباب»؛ لأنهم هم الذين تهديهم عقولهم إلى الأخذ بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، بخلاف بقية الخلق فهم لا ينتفعون بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد ٢٩٦٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

الفوائد والأحكام:

١- تحقيق الله تعالى لرسله عليهم الصلاة والسلام ما وعدهم به، هم وأتباعهم، من النصر والتأييد والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، وإهلاك أعدائهم، وأنه- سبحانه- لا يخلف وعده رسله، ولا ينبغي لأحد أن يظن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

٢- كمال عزته عز وجل وقوته وقهره، وشدة انتقامه ممن كفر به وخالف أمره وعصاه، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

٣- إثبات القيامة وأهوالها وأحوالها.

٤- أن من أهوال القيامة تبديل الأرض غير الأرض، وتبديل السموات غير السموات؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

٥- عظمة الله تعالى وقدرته التامة، وأنه لا يعجزه شيء، حيث يبدل الأرض والسموات هذه المخلوقات العظيمة، كما خلقها أول مرة.

٦- ينبغي أن يعتبر ويتعظ ابن آدم الضعيف الذي يريد دوام الحال من تبديل الأرض والسموات مع عظمها، فيعلم أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحي القيوم، فكل من عليها فان، وكل شيء هالك إلا وجهه الكريم.

قيل: مات فلان قالوا: ما سبب موته؟ أجيب بأنه صعد على السطح فسقط فمات. فقالوا: لماذا يصعد؟ ثم قيل: مات فلان. قالوا: ما سبب موته؟ أجيب بأنه نزل في بئر فسقط فمات. فقالوا: لماذا ينزل البئر؟ ثم قيل: مات فلان. قالوا ما سبب موته؟ أجيب بأنه كان يقود السيارة بسرعة فوقع له حادث فمات. فقالوا: لماذا يسرع في القيادة؟

ثم قيل: مات فلان. قالوا: ما سبب موته؟ أجيب بأنه مات على فراشه، أو وهو واقف عند الإشارة، أو جالس على مكتبه فقالوا: خف من هذه. هذا لسان حال الإنسان ومقاله، يريد دوام الحال، ودوام الحال من المحال.

٧- خروج الخلائق كلهم من قبورهم، وبروزهم لله تعالى في مكان لا يخفى على الله منهم شيء، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

٨- إثبات اسم الله تعالى «الواحد» وأنه ذو الوحدانية في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

٩- إثبات اسم الله تعالى: «القهار» وأنه ذو القهر والغلبة، دانت لعظمته الرقاب، وخضعت لجبروته الشدائد الصلاب، وكل شيء تحت تصرفه وتدبيره.

١٠- تهديد المجرمين ووعيدهم، وبيان سوء حالهم يوم القيامة، فهم في الأصفاد مقرنون، وسرابيلهم من قطران، وتعلو وجوههم النار، جزاء إجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

١١- فضيحة المجرمين والتنكيل بهم، بجعل الرسل والمؤمنين يرون ما هم فيه من العذاب.

١٢- التحذير من الإجرام وسلوك طريق المجرمين.

١٣- أن بعث الله الخليقة وإعادتهم يوم القيامة؛ لمجازاة كل نفس بما كسبت؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

١٤- سرعة حساب الله وقربه، وسرعة إحصائه لأعمال العباد، ومجازاتهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

١٥- أن القرآن الكريم بلاغ للناس، به إيصال رسالة ربهم إليهم، وبه إيصالهم إلى النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾.

١٦- أن القرآن إنذار للناس وتحذير لهم من عذاب الله تعالى بما اشتمل عليه من أخبار المكذبين من الأمم السابقة، وعقوباتهم الدنيوية، وما توعدوا به في الآخرة.

١٧- دلالة القرآن الكريم بما فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات والدلائل والبراهين الساطعات على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

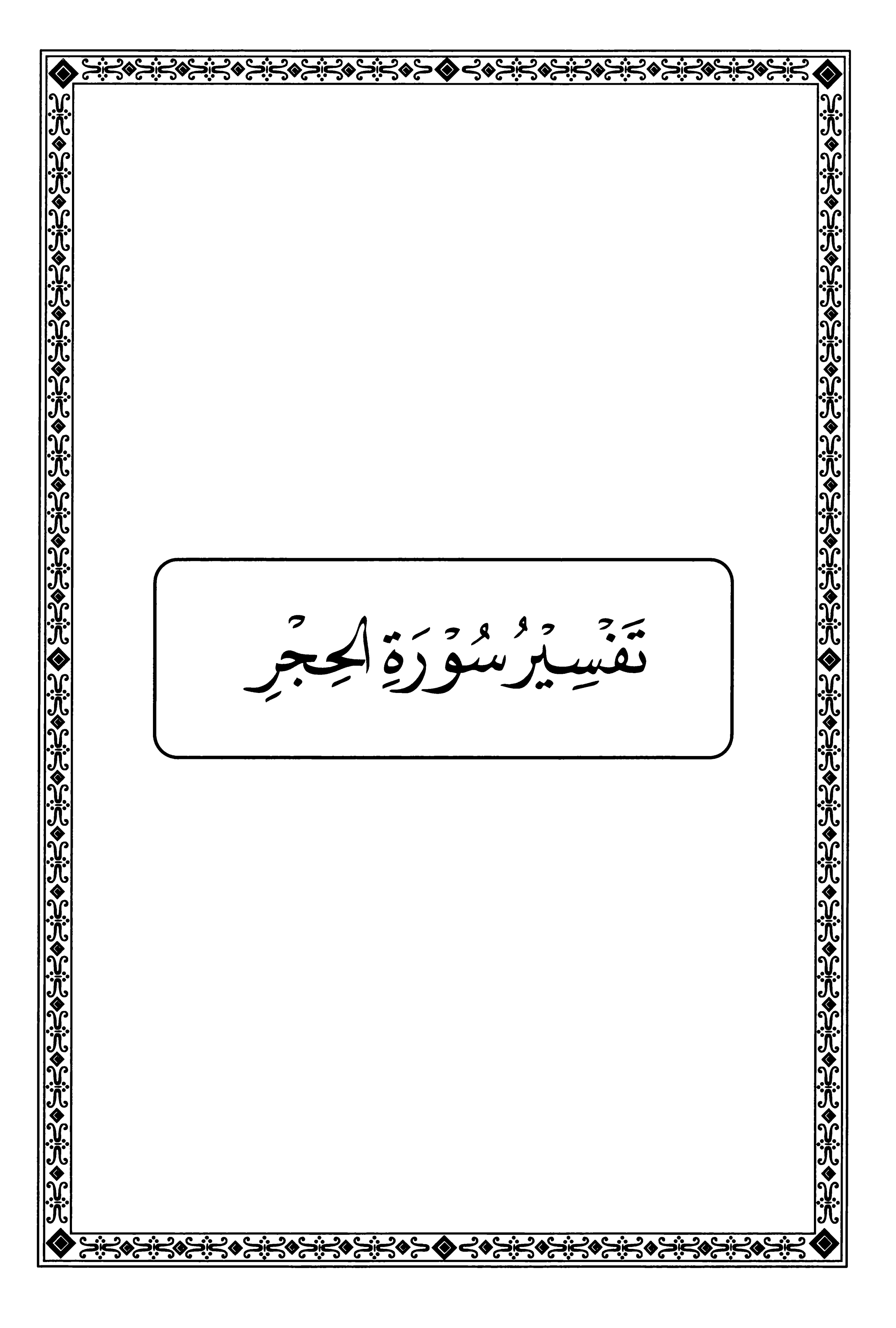
١٨- أن القرآن الكريم فيه التذكرة والعظة لمن كان ذا لب وعقل ينتفع بعقله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

١٩- التعريض بمن لم يتذكروا بأنه لا ألباب لهم ولا عقول؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

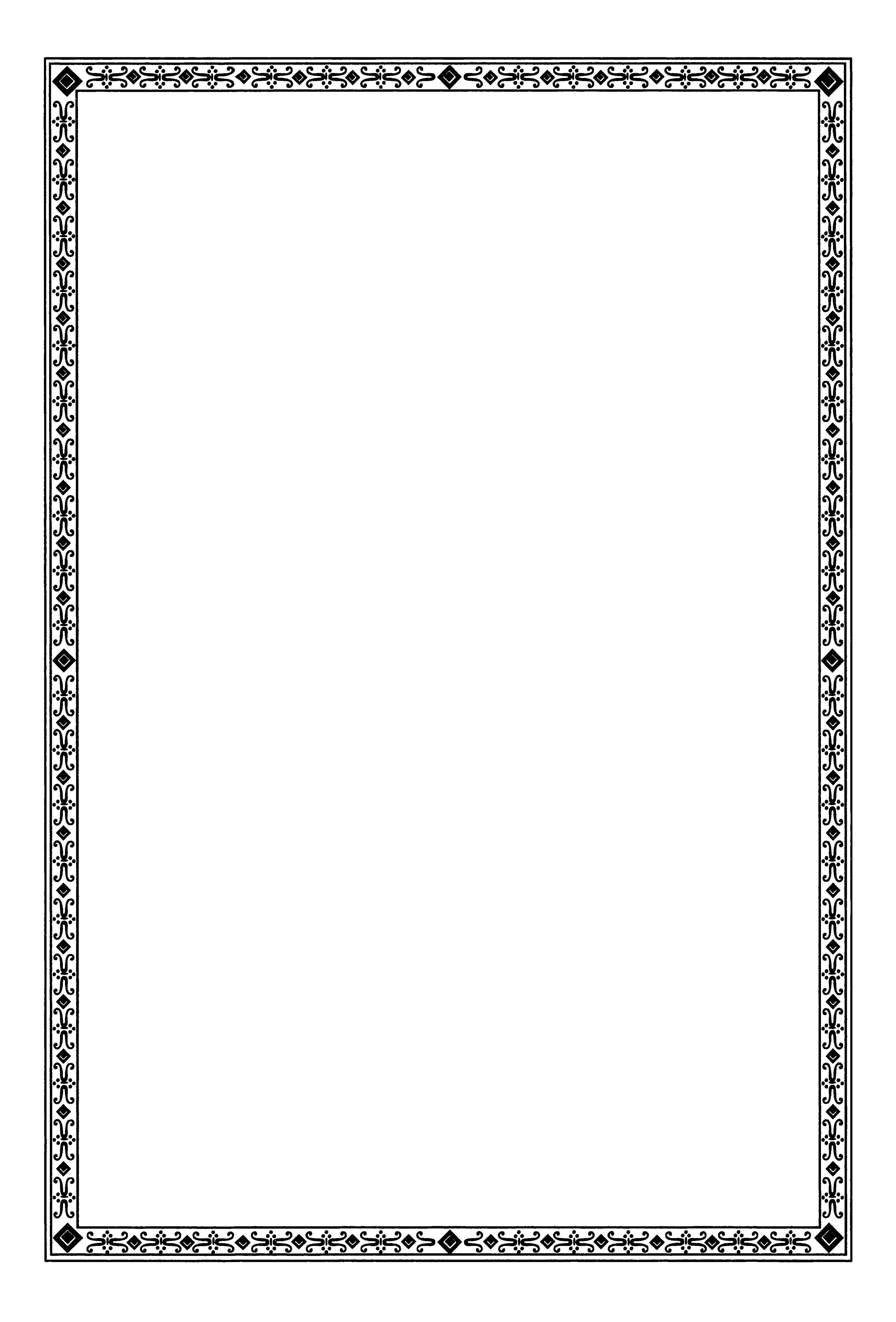
٢٠- الترغيب بالتذكر والاتعاظ بالقرآن، والترهيب من الغفلة والإعراض عنه.

٢١- أن الله عز وجل- قد أقام الحجة على الخلق وأنذرهم، وأعذر منهم بإنزاله هذا القرآن العظيم.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ الحِجۡرِ



المقدمـــة

أ- اسم السورة:

سميت سورة «الحجر» بهذا الاسم؛ لذكر «الحجر» فيها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾، ولم يذكر اسم «الحجر» في غيرها من السور.

وأصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح- عليه السلام- وكانوا ينزلون «الحجر»، وهو المعروف الآن بـ«مدائن صالح» في «محافظة العلا» بين خيبر وتبوك. وقد مرَّ النبي ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة الحجر بمكة، فهي مكية باتفاق المفسرين.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة الحجر بتعظيم القرآن الكريم، كما هو الشأن في عدد من السور قبلها: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

٢- إنذار الذين كفروا وتهديدهم بسوء عاقبتهم، وأن لهلاكهم وقتًا معلومًا، لا يسبقونه ولا يستأخرون عنه، كغيرهم من الأمم المهلكة قبلهم: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾.

٣- ذم المشركين، وذكر أذيتهم للنبي ﷺ واتهامهم له ﷺ بالجنون، وطلبهم إتيانه لهم بالملائكة ليصدقوه، ورده- عز وجل- عليهم ببيان أن إنزال الملائكة إليه سبحانه، وما ينزلهم إلا بالحق، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

٤- إثبات إنزاله- عز وجل- القرآن وتكفله بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

٥- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بذكر إرساله عز وجل الرسل قبله في الأمم السابقة واستهزائهم بجميع رسلهم، وبيان حكمته عز وجل في ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى

قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾، أي: من المكذبين قبلهم للرسل والوحي وفي عقوبات الله تعالى لهم. وبيان بعدهم عن الهدى، وعن اتباع الحق، مهما أوتوا من الآيات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٦- ذكر دلائل كمال عظمته تعالى وتمام قدرته وخلقه، وحسن تدبيره، ونعمته وحكمته، وسعة علمه، ومنها: أن جعل في السماء بروجًا، وزينها للناظرين وحفظها من كل شيطان رجيم، ومد الأرض، وألقى فيها رواسي، وأنبت فيها من كل شيء موزون، وجعل فيها معايش للخلق وأرزاقًا، وما من شيء إلا عنده خزائنه وما ينزله إلا بقدر معلوم، وأرسل الرياح لواقح فأنزل من السماء ماء، فأسقاهم منه وما هم له بخازنين، وهو الذي يحيي ويميت ويرث الأرض ومن عليها، ويعلم المستقدمين منهم والمستأخرين ويحشرهم إنه حكيم عليم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

٧- ذكر خلق آدم- عليه السلام- من صلصال من حمإٍ مسنون، وخلق الجان من قبل من نار السموم، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وسجودهم طاعة لله تعالى، وامتناع إبليس عن السجود استكبارًا، وإنكار الله عز وجل عليه وتقريعه إياه، وإخراجه له من الجنة، والحكم عليه باللعنة إلى يوم الدين، وإجابته له في طلب الإنظار لإغوائهم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ

﴿لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾.

٨- بيان عظم ما أعد الله تعالى للمتقين من ألوان النعيم الحسي والمعنوي: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾.

٩- وجوب الجمع بين رجاء الله تعالى ومغفرته ورحمته، وبين الخوف من عذابه ونقمته: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾.

١٠- ذكر قصة ضيوف إبراهيم- عليه السلام- من الملائكة حين دخلوا عليه فسلموا ووجل منهم: ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣﴾، وتعجبه عليه السلام من أن يولد له ولد مع ما هو عليه من الكِبَر، وسؤاله لهم عن شأنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾.

١١- ذكر ما دار بين لوط- عليه السلام- وبين رسل الله تعالى من الملائكة، وإنكاره لهم، وبيانهم له أنهم جاؤوا بما كان قومه يشكون فيه من العذاب، وأنهم جاؤوا بالحق وإنهم لصادقون، وأمرهم له بأن يسري بأهله على الكيفية التي ذكر الله، وإخباره بأن الله قضى بأن دابر قومه مقطوع مصبحين، وذكر ما جرى من مدافعته- عليه السلام- لقومه عن ضيوفه، وأخذهم بالصيحة، وجعل ذلك عبرة للمعتبرين، وآية للمؤمنين: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾.

١٢- الإخبار بظلم أصحاب الأيكة، قوم شعيب عليه السلام، وانتقام الله منهم: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾.

١٣- ذكر تكذيب أصحاب الحجر المرسلين بتكذيبهم نبيهم صالحًا- عليه السلام- وإيتائهم الآيات، وإعراضهم عنها، وما منحهم الله من القوة حيث ينحتون

من الجبال بيوتًا آمنين، وأخذ الصاعقة لهم مصبحين: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾.

١٤- بيانه عز وجل أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والعدل ولإقامة الحق والعدل ولعبادته- سبحانه وتعالى- وحده، وتأكيد إتيان القيامة، وأمره ﷺ بالصفح الجميل حتى يأتي الله بأمره: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾.

١٥- الامتنان عليه ﷺ بإيتائه السبع المثاني «الفاتحة» والقرآن العظيم، وإنعامه بذلك تشريفًا وتكريمًا له ﷺ؛ ولهذا نهاه الله تعالى أن يمد عينيه إلى ما دون ذلك مما متع الله به أزواجًا منهم، ولا يحزن على من أعرض منهم، وأمره أن يخفض جناحه للمؤمنين، وأن يستمر في إنذار المكذبين، وبيان أن الله سيسألهم أجمعين عن أعمالهم، وأن يصدع بما يؤمر، ويعرض عن المشركين، وأن الله سيكفيه المستهزئين المشركين بالله، وتوعده عز وجل لهم، وأمره عز وجل له ﷺ بالاستعانة على ما يلقاه منهم بعبادة الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ① رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ
كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ② ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ وَمَآ
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ④ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ ⑤ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَّوْ مَا تَأْتِينَا
بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ⑦ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا
مُّنظَرِينَ ⑧ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⑨﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ①﴾.

قوله: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة يونس ويوسف والرعد.

﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ونُكِّر «قرآن» للتعظيم والتفخيم، كما عُرِّف «الكتاب» بـ«ال» للتعظيم والتفخيم، وسمي الكتاب «قرآنا» أخذًا من «القَرء» وهو «الجمع»؛ لأنه يجمع سورًا وآيات كثيرة، وأخذاً من القراءة؛ لأنه مقروء، قرأه جبريل- عليه السلام- على الرسول ﷺ، وقرأه الرسول ﷺ على أمته، ويقرؤه المؤمنون.

﴿مُّبِينٍ﴾ اسم فاعل صفة لـ«قرآن» مأخوذ من «أبان» اللازم والمتعدي:

من «أبان» اللازم الذي معناه: «بان»، أي: ظهر ووضح. والمعنى على هذا: وقرآنٍ بيِّنٍ واضح؛ لأن الله عز وجل بَيَّنه وفصّله، كما قال عز وجل مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ⑰ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ⑱ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ⑲﴾ [القيامة: ١٦- ١٨]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③﴾ [فصلت: ٣].

ومن «أبان» المتعدي الذي معناه «بَيَّن»، أي: أَوْضَحَ ما يحتاج إلى بيان، والمعنى على هذا: وقرآنٍ مبيِّنٍ للحقِّ من الباطل، والحلال والحرام، والمشروع والممنوع، ولكل ما

تحتاجه الأمة في أمر دينها ودنياها، بأوضح لفظ وأدلة على المقصود، مما يقيم الحجة ويقطع العذر، ويوجب الانقياد له، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢﴾.

قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بتخفيف الباء: ﴿رُّبَمَا﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: «ربَّما» كافة ومكفوفة، و«رب» حرف جر.

﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: يحبون ويتمنون.

﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ «لو»: مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يود»، أي: يودون كونهم مسلمين.

والمعنى: أنهم سيندمون عند كشف الغطاء وحضور الموت، وعند عرضهم على النار على ما كانوا عليه من الكفر في الدنيا، ويتمنون أنهم أسلموا، وأنى لهم ذلك؟

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] وقال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

قوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و«التمتع»: الانتفاع بالمتاع، أي: اتركهم ولا تبال بهم ودعهم منغمسين في المآكل والمشارب، والتمتع في الملذات الجسدية، والدوران في فلك الشهوات والحياة البهيمية، معرضين عما يدعوهم إليه القرآن من الحياة الروحية والمعنوية والكمال النفسي والسعادة الأبدية.

وليس المعنى أن يترك دعوتهم، وإنما المعنى: ألا يشغله عدم إيمانهم مع الاستمرار على دعوتهم، كما قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ

ٱلدُّنْيَاۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾، أي: ويشغلهم الأمل والطمع في الدنيا وطول البقاء فيها عن التوبة والإنابة والاستعداد للآخرة، مغترين بما خولهم الله من النعم- مع ما هم عليه من الكفر- استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣، القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد لهم، أي: فسوف يعلمون مستقبلًا حين رؤيتهم العذاب ضلالهم، وبطلان ما هم عليه من الكفر، وسوء عاقبته، وأن للإمهال أجلًا معلومًا، كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [النجم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾ [المرسلات: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ [محمد: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ «من» هنا وفي قوله: ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾، زائدة من حيث الأعراب، وتفيد من حيث المعنى: التنصيص في عموم النفي، أي: أيّ قرية. والقرية: المدينة، مأخوذة من «القري» وهو الجمع؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين.

﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا ولها مكتوب معلوم، أي: أجل مقدر، ووقت محدد لإهلاكها، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥١، ٥٢].

والمعنى: وما دمرنا من قرية من القرى الظالمة المكذبة للرسل وأخذنا أهلها بالعقوبة وقضينا عليها إلا ولها أجل مقدر، فلما حان أجلها أهلكناها.

وفي هذا تعريض بالتهديد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ بألا يغتروا بإمهال الله لهم، فإن الله عز وجل يمهلهم ولا يهملهم، ولكل أمة أجل، ولكل أجل كتاب، كما قال

تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ بيان لقوله: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾، أي: ما تسبق أيّ أمة أجلها، أي: تفوته وتتقدم قبل حلوله، بأن تؤخذ وتعاقب قبل حلول أجلها المقدر المحدد المعلوم.

﴿وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ﴾، أي: وما يستأخرون عن أجلهم المقدر لهلاكهم المحدد المعلوم، بل تؤخذ كل أمة في أجلها المقدر المحدد المعلوم. والسين والتاء للتأكيد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾، أي: وقال الكفرة المكذبون للنبي ﷺ استهزاء وسخرية واستخفافًا به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾، أي: حسب زعمك وادعائك، وليس هذا إقرارًا منهم بذلك أو امتداحًا له ﷺ؛ لقولهم بعده: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

و«الذكر»: القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: في زعمك إنزال الذكر عليك، وفي دعوتك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا، وظنك أننا سنتبعك ونترك دين آبائنا لمجرد قولك.

والمجنون: الذي أصابه مس من الجن.

قوله: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ «لوما»: حرف تحضيض بمعنى: «هلا»، أي: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون على صحة ما جئت به، وعلى صدقك، كقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ

مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١].

وكقول فرعون قبلهم لموسى عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥٢].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنت من الصادقين فيما جئت به مما تدعونا إليه، أي: فإن لم تأتنا بالملائكة فلست من الصادقين، وهذا من أعظم الكفر والجحود.

قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾.

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بنونين، الأولى مضمومة، والثانية مفتوحة، وكسر الزاي، ونصب ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

وروى أبو بكر عن عاصم: «تُنَزَّل الملائكةُ» بتاء مضمومة وفتح النون والزاي، ورفع الملائكة.

وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم فتحوا التاء: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

«إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة، أي: إلا تنزيلًا متلبسًا بالحق، أي: بالأمر والشيء الحق المقضي، إما بالرسالة والوحي، وإما بالعذاب الحاق على المكذبين للرسل، كما تنزلت لعذاب قوم لوط.

ولو تنزلت الملائكة لعُجِّل للمنزل عليهم العذابُ ولما أُمهلوا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ «إذًا» ظرف بمعنى «حين»، أي: وما كانوا حين ننزل الملائكة- إن لم يؤمنوا- ﴿مُّنظَرِينَ﴾، أي: ممهلين ومؤخرين ومؤجلين؛ فصار طلبهم تَنزُّل الملائكة تعجيلًا لأنفسهم بالهلاك والدمار.

مع أنهم مهما أوتوا من الآيات فلن يؤمنوا؛ لأنه ليس طلبهم إتيانه بالملائكة للاسترشاد والاهتداء إلى الحق، وإنما ذلك من باب المكابرة والعناد والتعجيز، كما قال

تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

ويكفيهم من الآيات- لو كانوا صادقين- هذا القرآن العظيم؛ ولهذا امتن الله- عز وجل- بإنزاله، وأخبر بتكفله بحفظه:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«نا» ضمير في محل نصب اسم «إن»، و«نحن» ضمير منفصل مؤكد للضمير «نا».

وتكلم عز وجل بضمير العظمة وأكد ذلك؛ لأنه- عز وجل- هو العظيم حقًّا ذو العظمة التامة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي**»(١).

و«الذكر»: القرآن الكريم، وسمي القرآن ذكرًا؛ لأن الله ذكر فيه ما يحتاجه الخلق في أمر دينهم ودنياهم، وفيه تذكير وعظة وعبرة لمن أراد أن يتذكر، وفيه شرف له ﷺ ولقومه، كما قال ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾، أي: لهذا الذكر، وهو القرآن الكريم.

﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، أي: لحافظون له حال إنزاله من استراق السمع، وبعد إنزاله من التغيير والتبديل والتحريف، والزيادة والنقصان، وغير ذلك، في ألفاظه ومعانيه، وقد أكد عز وجل هذا الوعد بـ«إنَّ» ولام التوكيد، تأكيدًا لحفظه- عز وجل- لكتابه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٢- تعظيم آيات الكتاب والقرآن المبين؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

٣- إقامة الحجة على العباد ببيان القرآن وإيضاح الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ

(١) سبق تخريجه.

مُّبِينٍ﴾.

٤- ندامة الذين كفروا على كفرهم عند الموت ومعاينتهم العذاب، ولات ساعة مندم، وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين، وهيهات وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾.

٥- أن الندم لا ينفع بعد فوات الأوان، وإذا فات الفوت فلا ينفع الصوت.

٦- أن الآخرة إنما هي دار جزاء، لا مجال فيها للاستعتاب والعمل.

٧- تهديد الذين كفروا ووعيدهم بالعذاب وسوء العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾.

٨- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه بأمره بترك أمر الذين كفروا، فعقابهم إليه- عز وجل- فلا يحزن عليهم ولا يبالي بهم ولا يستبطئ عقابهم.

٩- أنه ليس على الرسول ﷺ إلا البلاغ، أما هداية الخلق وحسابهم فذلك إلى الله عز وجل.

١٠- تمتيع الكفار بالنعم من المآكل والمشارب وغير ذلك- مع ما هم عليه من الكفر- استدراجًا لهم، وأنه عز وجل يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ، كما قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

١١- أن الانغماس في المآكل والمشارب ومتع الحياة الدنيا، والانشغال بالآمال الطوال العراض، من أعظم أسباب الضلال والكفر والمعاصي؛ مما يوجب الحذر من ذلك، قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

١٢- وجوب الحذر من الاغترار بطول الأمل، والانشغال به عن العمل؛ ففي الحديث: «أن رسول الله ﷺ خط خطًّا في الأرض، ثم خط حوله خطوطًا...»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الشاعر:

نؤمل آمالًا ونرجو نتاجها ... وعلّ الردى مما نرجِّيه أقربُ
ونبني القصور المشمخرات في الهوى ... وفي علمنا أنا نموت وتخرب(١)

وقيل:

وإياك والآمال فالعمر ينقضي ... وأسبابها ممدودة من ورائه(٢)

١٣- أن الله- عز وجل- ما أهلك من قرية إلا بأجلها المحدد المعلوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾.

١٤- أن لكل أمة أجلًا لهلاكها، لا تسبقه ولا تستأخر عنه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾.

١٥- التعريض بتهديد المشركين المكذبين للنبي ﷺ فلا يغتروا بإمهال الله لهم، فإنه يمهل ولا يهمل، فلهم أجل، كما أن لكل أمة أجلًا، ولكل أجل كتابًا.

١٦- استهزاء المشركين بالرسول ﷺ؛ لقولهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، فهم لا يقولون هذا تصديقًا بأنه أنزل عليه الذكر، ولا مدحًا ولا تشريفًا له بذلك، وإنما سخرية منه، واستخفافًا به، أي: يا من يزعم ويدعي أن أنزل عليه الذكر.

١٧- اتهامهم ورميهم له ﷺ بالجنون؛ إذ كيف يدعوهم لاتباعه وترك دين آبائهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾.

١٨- عظم ما لقيه ﷺ من قومه من الاستخفاف به والأذى له، ورميهم له بالجنون، كما لقي الرسل قبله نحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

وهذا مما يوجب على الدعاة إلى الله تعالى والمصلحين أن يعلموا أن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق، تحفه الأشواك، كما قال ﷺ:

---

(١) البيتان للشاعر ابن عثيمين. انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» (١٤٨/١)، «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧، «دواوين الشعر العربي على مر العصور» ٨/٨٩ .

(٢) البيت لابن مشرف. انظر: «ديوانه» (ص٧٨).

«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[(١)].

١٩- شدة عتو الكافرين وتكذيبهم للنبي ﷺ، ومطالبتهم- عنادًا منهم- أن يأتيهم بالملائكة؛ ليشهدوا على صدقه؛ لقولهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾.

٢٠- إثبات وجود الملائكة، ووجوب الإيمان بهم.

٢١- أن الله- عز وجل- ما ينزل الملائكة إلا بالحق، أي: إلا بالأمر والشيء الحق المقضي؛ إما الوحي، وإما العذاب الحاقّ على المكذبين للرسل، كما تنزلت لعذاب قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٢- أن الله عز وجل لو أنزل الملائكة- حسب اقتراح المشركين- ما كانوا بعد نزول الملائكة- إن لم يؤمنوا- منظَرين، فيكون طلبهم الإتيان بالملائكة تعجيلًا لإهلاك أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

٢٣- إثبات تنزيله- عز وجل- الذكر، والامتنان بذلك على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، وأنه أعظم آية على صدقه ﷺ.

٢٤- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾.

٢٥- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق، تكلم به- عز وجل- بحرف وصوت.

٢٦- تسمية القرآن الكريم بالذكر؛ لأن الله ذكر فيه ما يحتاجه العباد في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، فيه التذكرة والعظة والعبرة، وفيه شرف له ﷺ ولقومه، وغير ذلك.

٢٧- تكفل الله- عز وجل- بحفظ القرآن حال تنزيله وبعد تنزيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وفي هذا بشارة للمؤمنين وإغاظة للمكذبين المشركين.

كما أن فيه تأكيدًا لكونه من عنده عز وجل، وشهادة على صدق من جاء به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

في هذه الآيات تسلية للنبي ﷺ، وتقوية وتثبيت لقلبه، وتهديد ووعيد للمشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك يا محمد.

﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: «شيع» جمع شيعة، وهي: الفرقة والطائفة التي أمرها واحد، أي: في فرق الأولين وطوائفهم وجماعاتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ «من»: زائدة إعرابًا مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما يأتيهم أيّ رسول، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا كانوا به يسخرون، استخفافًا منهم بالرسل، وتكذيبًا لهم وعنادًا- كما هو حال قومك معك، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ الكاف: للتشبيه، والضمير في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾، وفي قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعود إلى «الذكر»، ومعنى ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾، أي: ندخله، أي: كذلك نسلك هذا الذكر، أي: ندخله في قلوب المجرمين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: لا يؤمنون بهذا الذكر، أي: لا يصدقون به، أي: سلكناه وأدخلناه في قلوبهم غير مؤمنين به، بل مكذبين، وهذا ما يدل عليه ظاهر السياق وهو أن الضميرين يعودان إلى شيء واحد وهو «الذكر».

وقيل: المعنى: كذلك نسلك الشرك والضلال والاستهزاء والتكذيب في قلوب المجرمين، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: لا يؤمنون بالذكر؛ وبهذا قال أكثر المفسرين.

والأظهر القول الأول، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٢٠١﴾ [الآيات: ١٩٨- ٢٠١].

قال ابن القيم- بعد أن ذكر القول الثاني والقائلين به-: «وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ ، فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم، وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟ قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذَّبًا به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدَّقًا به.

وهذا هو مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به، فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم.

فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل: لتقوم عليه بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه الحق، وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدّق به مؤمن به مرضي به. وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفرًا من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه»(١).

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السنة: العادة المألوفة والمتكررة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والمعنى: وقد مضت سنة الله تعالى في الأولين بإهلاك المكذبين للرسل، وإنجاء الرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣، ٢١- ٢٢.

لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

وفي الآية تعريض بل تهديد للمكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم، معاملة للنظير بنظيره، كما أن فيها تسلية للنبي ﷺ وبشارة له وللمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ذكر عز وجل كفر المجرمين بالذكر وعدم إيمانهم به، ثم أتبع ذلك بذكر شدة عتوهم وعنادهم ومكابرتهم للحق.

قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الواو: استئنافية، و«لو»: شرطية غير جازمة.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾، أي: على هؤلاء المجرمين المكذبين للنبي ﷺ.

﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: مدخلاً من السماء آية لهم.

﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾، أي: فصاروا طول وقتهم فيه، ﴿يَعْرُجُونَ﴾، أي: يصعدون، ورأوا ذلك رأي العين.

﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الكاف: «سُكِرت»، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿سُكِّرَتْ﴾.

أي: لقالوا من شدة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم وإنكارهم لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، أي: سحرت، أو سدت وحبست عن الإبصار، أي: لجحدوا أن يكونوا رأوا شيئًا.

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ «بل»: للإضراب، وفي إقحام كلمة «قوم» إشارة إلى أن السحر قد تمكن منهم جميعًا وبلغ منهم مبلغه حتى صار من خصائص قوميتهم، أي: بل نحن قوم سحرنا، فما رأيناه هو تخيلات ليس له حقيقة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧].

الفوائد والأحكام:

١- إرسال الله- عز وجل- الرسل في الأمم السابقة، لإقامة الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾.

٢- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وختم الرسل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾.

٣- إطباق الأمم على الاستهزاء برسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ [الزخرف: ٦، ٧].

٤- تسلية الرسول ﷺ وتثبيت قلبه وتقويته، تجاه استهزاء المشركين به، بذكر استهزاء المكذبين بالرسل من قبله، والمصائب إذا عمت خفت، وليس هو ﷺ ببدع من الرسل.

٥- صبره ﷺ على ما لقي من الاستهزاء والأذى من قومه، وكذا الرسل من قبله، مما ينبغي أن يكون نبراسًا للدعاة إلى الله تعالى والمصلحين، فطريق الدعوة محفوف بالمكاره، ومن صبر ظفر.

٦- عدم انتفاع المجرمين والكفار بالقرآن وعدم إيمانهم به؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

٧- حكمة الله تعالى في سلكه الذكر في قلوب الفريقين فآمن هؤلاء، وكفر به هؤلاء، كما قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

٨- تهديد ووعيد المجرمين المكذبين للنبي ﷺ بإهلاكهم، كما هي سنة الله تعالى

الثابتة والماضية في المكذبين الأولين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٩- شدة عتو المشركين وعنادهم ومكابرتهم وإنكارهم للآيات حتى لو عاشوا وقائعها، ورأوها عيانًا بيانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

١٠- أن طلب المشركين وسؤالهم الإتيان بالآيات ليس لقصد الاسترشاد والاهتداء، وإنما من باب المكابرة والعناد والتعجيز.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

لما ذكر شدة عتو الكافرين ومكابرتهم أتبع ذلك بذكر الدلائل والآيات على عظمته وتمام قدرته وسابغ نعمه، وعلى صدق ما جاء به رسله من الحق وصحته، مما لا عذر معه لمن تولى وكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر و«قد»: للتحقيق ﴿جَعَلْنَا﴾، أي: خلقنا وأوجدنا.

﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾، أي: في السماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج: ١].

و«البروج»: جمع: «برج» مأخوذ من الظهور والعلو والارتفاع، ومنه سمّي «التَّبرج»؛ وهو إظهار المرأة زينتها أمام الرجال الأجانب.

والمراد بالبروج: منازل الشمس والقمر والكواكب، أو هي الكواكب نفسها.

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾، أي: حسّنّاها وجمّلناها بِحَبْكِ خلقها وإتقانه، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، وبالمصابيح والكواكب من الشمس والقمر والنجوم، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ

ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦].

﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ في حسنها وجمالها، المتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته.

﴿وَحَفِظۡنَـٰهَا﴾، أي: وحرسناها بالشهب وغير ذلك.

﴿مِن كُلِّ شَيۡطَـٰنٍ﴾: أي من كل شيطان من شياطين الجن.

﴿رَّجِيمٍ﴾ «فعيل» بمعنى: «مفعول»، أي: مرجوم حسًّا ومعنى، بالرمي بالشهب والإخراج من الجنة، والطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى وعن كل خير.

والمعنى: وحفظناها وحرسناها بالشهب من استراق شياطين الجن السمع، كما قال قائلهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡـَٔانَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩﴾ [الجن: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَـٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾ [الصافات: ٧- ١٠].

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي استرق السمع، أي: سرقه واختلسه.

﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾، أي: فتبعه ولحقه فأدركه، ﴿شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾، أي: بين ظاهر مضيء محرق، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾ [الصافات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلۡنَـٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان[١]»، قال عليّ[٢]: وقال غيره[٣]: «صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: ﴿ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، فيسمعها مسترقو السمع. ومسترقو

(١) الصفوان: الحجر الأملس.

(٢) هو: علي بن عبدالله المديني، شيخ البخاري في هذا الحديث.

(٣) يعني: غير سفيان بن عيينة في روايته لهذا الحديث.

السمع هكذا: واحد فوق آخر»- ووصف سفيان؛ ففرج بين أصابع يده اليمنى ونصبها فوق بعضها- «فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض»، وربما قال سفيان: «حتى تنتهي إلى الأرض، فتلقى في فم الساحر أو الكاهن، فيكذب معها مئة كذبة، فيقولون: ألن يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا؟ للكلمة التي سمعت من السماء»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

لما ذكر آياته السماوية أتبع ذلك بذكر آياته الأرضية للدلالة على عظمته وتمام قدرته وسابغ نعمه على العباد وصدق رسله.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ كقوله تعالى في سورة «ق»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [الآية: ٧].

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، أي: بسطناها ووسعناها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، أي: وضعنا في الأرض جبالًا رواسي، لتثبيتها من أن تميد وتضطرب بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: وأنبتنا في الأرض من كل شيء من أنواع النباتات من الزروع والحبوب والثمار والفواكه والخضروات وسائر النباتات متاعًا للعباد وأنعامهم، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿مَّوْزُونٍ﴾، أي: مقدر بقدر معلوم مضبوط، كما قال تعالى في الآية الآتية: ﴿وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجر ٤٧٠١.

نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾ [الحجر: ١٢].

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾، «معايش»: جمع «معيشة»، أي: وخلقنا وأوجدنا لكم في الأرض ما تعيشون وتحيون به وتصلح أحوالكم مما احتوت عليه الأرض من معادن وحجارة وما تخرجه من نبات وغير ذلك.

﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ «من»: موصولة، أي: والذي لستم له برازقين مما أنعم الله به عليكم وتكفل برزقه- من العبيد والإماء والدواب والأنعام- فخولكم عز وجل ما في ذلك كله من المنافع، وتكفل بأرزاقكم وأرزاقهم.

كما قال تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢١﴾

قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: وما من شيء من الأشياء، من الأمطار والأرزاق والخيرات وغير ذلك.

﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: أن عندنا خزائن كل شيء، وبأيدينا مفاتيح تلك الخزائن كلها، وبتدبيرنا وحكمتنا ورحمتنا يكون العطاء والمنع، والخفض والرفع، والضر والنفع.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ «إلا» أداة الحصر، أي: وما ننزل من شيء إلا بتقدير معلوم من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ يشمل ما ينزل من السماء كالمطر والرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث يشاء، عامًا ههنا وعامًا ههنا» (١)، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢١﴾.

ويشمل ذلك أيضاً: ما يوجد في باطن الأرض من معادن وغير ذلك، وما يخرج

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ٤٠.

منها من نبات وغيره، وما يوجد على ظهرها من أموال ورياش ودواب وأنعام وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]؛ لأن كل ذلك من رزق الله وبتقديره النازل من السماء، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

بعد الاستدلال بالآيات السماوية والأرضية انتقل إلى الاستدلال بما بين السماء والأرض من الرياح قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ قرأ حمزة: «الريح» بالإفراد.

وقرأ الباقون بالجمع: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾.

﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع «مُلَقِّح»: أي: أن الرياح تلقح السحاب فيمتلئ بالماء، كما تلقح الرياح الشجر فتصلح ثمرته.

ويجوز أن تكون: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع «لاقحة» مؤنث: «لاقح»، يقال: لقحت الريح: إذا حملت الماء، ولقحت الناقة: إذا حملت الجنين في بطنها.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأنزلنا من العلو، أي: من السحاب الذي في العلو، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿مَآءً﴾ وهو المطر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٤٨].

﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾، أي: جعلناه لكم سقيا، بحيث جعلناه نميرًا عذبًا سائغًا للشرب، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨- ٧٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل:١٠].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ﴾، أي: وما أنتم لهذا الماء ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾، أي: وما أنتم له بحافظين من أن يغور في الأرض، أو يكون مرًّا أجاجًا بعد أن كان عذبًا نميرًا، بل نحن ننزله

ونحفظه لكم في الأرض، ونحفظ عليكم عذوبته ونخرجه لكم معينًا وينابيع من خلال العيون والآبار والأنهار وغير ذلك؛ ليبقى لكم طول السنة تشربون منه، وتسقون أنعامكم وزروعكم وثماركم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ذكر عز وجل آياته الكونية في السماء والأرض الدالة على كمال قدرته، ثم أتبع ذلك بذكر تمام قدرته على إحياء الخلق وإماتتهم، وأنه الوارث للأرض ومن عليها؛ بدأ الخلق، ثم يميتهم، ثم يحيهم، ثم إليه يرجعون.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ﴾ «إن»: حرف توكيد، واللام للتوكيد.

﴿نُحْىِۦ﴾، أي: نوجد الحياة، حيث بدأنا الخلق وأوجدناهم من العدم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ١، ٢].

﴿وَنُمِيتُ﴾، أي: وبيدنا الإماتة، وهي سلب الحياة، بإخراج الروح من البدن.

وهذا إخبار عن تمام قدرته- عز وجل- على بدء الخلق وإماتتهم، وأنه هو الذي خلق الخلق بعد العدم، ثم يميتهم، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

كما يقول الذين كفروا وهم في النار: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١].

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾، أي: الوارثون للأرض وما عليها، الباقون بعد فناء الخلق وهلاكه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

بعد أن بين عز وجل كمال قدرته أتبع ذلك ببيان كمال علمه.

والسين والتاء في الموضعين للتأكيد والمبالغة، أي: والله لقد علمنا المستقدمين منكم ممن عاشوا وهلكوا من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرين ممن هم أحياء سيأتون إلى

يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ويجوز أن يكون له ولكل من يصلح خطابه، أي: وإن ربك يا محمد هو يجمعهم ليوم القيامة للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٥].

وأكدت الجملة بمؤكدين: «إن» وضمير الفصل «هو» للرد على إنكارهم الشديد للبعث.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، أي: إنه ذو الحكم التام والحكمة البالغة، وذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر آياته- عز وجل- الكونية في السماء والأرض وما بينهما وما فيهما من الدلائل على عظمته وتمام قدرته، وسابغ نعمته، وصدق رسله، وتفرده بالربوبية والألوهية، وإحياء الخلق وإماتتهم وردهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾...﴾ الآيات.

٢- تزيين السماء للناظرين بالبروج والكواكب والنجوم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ ، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الآية: ١٦]، وقال تعالى في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الآية: ٥].

٣- الترغيب في النظر في زينة السماء، والتأمل والتفكر في آيات الله الكونية.

٤- دلالة الزينة والجمال في مخلوقات الله- عز وجل- على عظيم قدرته، وبديع صنعه، واعتبار الزينة في الشرع، ومحبته- عز وجل- للجمال، كما قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

٥- حفظ السماء من كل شيطان رجيم مارد؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الآيتان: ٧، ٨].

٦- تسليط الشهاب التي يرمى بها من السماء على مسترقي السمع من مردة الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الآيات: ٨- ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

قال قتادة: «خلق الله النجوم لثلاث: زينة السماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها»، وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦][1].

٧- حكمة الله- عز وجل- ونعمته، حيث مد الأرض وبسطها ووسعها لمصالح العباد، وثبتها بالجبال الرواسي لئلا تميد بأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

٨- نعمة الله- عز وجل- وسعة رزقه في إنباته في الأرض من كل شيء، وجعل المعايش فيها للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾.

٩- أن كل ما ينبت في الأرض ويخرج منها من النبات موزون مقدر معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

١٠- سعة رزق الله وكرمه، وتكفله برزق العباد، ورزق من ليسوا له برازقين من المماليك والدواب والأنعام ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

١١- أن الرازق للخلق كلهم هو الله- عز وجل- وحده وأنه لا أحد من الخلق يستطيع رزق نفسه ولا رزق غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٤٤٢.

١٢- أنه ما من شيء إلا عند الله تعالى خزائنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾، أي: أن عنده- عز وجل- خزائن كل شيء.

١٣- أن الله- عز وجل- ما ينزل شيئًا من هذه الخزائن من الأمطار والأرزاق وغير ذلك إلا بمقدار محدد معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

١٤- قدرة الله تعالى التامة ونعمته العامة في إرسال الرياح تلقح السحاب والأشجار، وإنزال المطر من السماء سقيًا للعباد وأراضيهم ودوابهم وأنعامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾.

١٥- حفظ الله- عز وجل- لما ينزله من ماء في الأرض ليبقى سقيًا للعباد، فلا يغور، ولا يتغير لعجزهم عن خزنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾ [المؤمنون: ١٨].

١٦- إثبات قدرته- عز وجل- على الإحياء والإماتة، وعلى بدء الخلق وإعادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾.

١٧- أن الله تعالى هو الوارث للأرض ومن عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾.

١٨- إثبات كمال علم الله- عز وجل- وسعته، وعلمه المستقدمين من الخلائق من لدن آدم، والمستأخرين منهم إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾.

١٩- في إثبات تمام قدرته- عز وجل- وسعة علمه دلالة على كمال وعظمة خلقه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

٢٠- إثبات حشر الله- عز وجل- الخلائق، وجمعهم للحساب والجزاء على الأعمال؛ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾.

٢١- إثبات أنه- عز وجل- ذو الحكم التام كونًا وشرعًا وجزاءً، وأنه ذو الحكمة البالغة غائية وصورية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾.

٢٢- أنه- عز وجل- ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: ولقد أوجدنا وأنشأنا أصل خلق الإنسان بخلق آدم عليه السلام.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾، أي: من طين قد يبس وتحجر بعدما خمر، حتى صار له صوت وصلصلة كالفخار، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفة لـ«صلصال» أو بدل من قوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾. والحمأ: الطين إذا اسودّ وكرهت رائحته.

﴿مَّسْنُونٍ﴾ صفة لـ«حمأ»، أي: منتن أملس مصبوب.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: وأبو الجن وأصلهم إبليس، أوجدناه من قبل الإنسان، قيل: لأنه مخلوق من عنصر الحرارة، والحرارة قبل الرطوبة.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾، أي: من لهب نار شديد الحرارة لا دخان فيه، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥].

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقت الملائكة من نور،

وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: واذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة، اذكره بنفسك، واذكره لقومك.

﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾، أي: إني خالق جسدًا تامًّا من البشر، لا من الملائكة.

﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، أي: يكون خلقه من صلصال من حمإ مسنون، أي: من طين، كما قال تعالى في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [الآيتان: ٧١، ٧٢].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾، أي: فإذا سويت خلق هذا البشر، أي: أكملته وأتممته، وعدلته، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فدبت فيه الحياة، وأصبح كائنًا حيًّا.

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فبادروا بالوقوع على الأرض له ساجدين، أي: فبادروا بالسجود له إكرامًا واحترامًا.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾.

قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ امتثالًا لأمر الله تعالى.

وقوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد بعد تأكيد؛ ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيمًا لأمر الله- عز وجل- وإكرامًا واحترمًا لآدم- عليه السلام- حيث علم ما لم يعلموا.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ «إلا»: أداة استثناء بمعنى: «لكن»؛ لأن الاستثناء منقطع، ويجوز كون الاستثناء متصلًا.

(١) سبق تخريجه.

﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أبى»، أي: أبى كونه ساجدًا، أي: امتنع أن يسجد لآدم كفرًا وعنادًا واستكبارًا على أمر الله، وعلى آدم، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الآية: ٣٤]، وقال تعالى في سورة ص: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الآيتان: ٧٣، ٧٤]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الآية: ١١]، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٥٠]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ «ما» اسم استفهام للتوبيخ، أي: ما منعك، وما عذرك.

﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أي: من ألا تكون مع الساجدين، كما قال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ لم يقل: لا أسجد، وإنما قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾، فنفى الكون، وهو أشد في النفي والجحود.

وقوله: ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تعليل لتركه السجود لآدم، بأن هذا البشر خلق من هذا العنصر، أي: من عنصر الطين فهو حقير ذميم لا يستأهل السجود.

فاحتقر آدم وحسده، واستكبر وتطاول عليه، وأظهر له العداوة ولذريته، وافتخر بالباطل بعنصره الناري.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ۝٦١﴾ [الإسراء: ٦١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾.

قوله: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، أي: قال الله- عز وجل- لإبليس آمرًا له أمرًا كونيًّا لا يُخالف ولا يُمانع: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، أي: من الجنة ومن ملكوت السموات، ومن منزلتك التي كنت فيها في الملأ الأعلى.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ تعليل لأمره بالخروج من الجنة، أي: لأنك رجيم، أي: مرجوم مطرود مبعد عن رحمته وجنته وعن كل خير.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وإن عليك لعنة الله التي قضى بها عليك كونًا وقدرًا بالطرد والإبعاد عن رحمته وجنته وعن كل خير.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أي: إلى يوم الحساب الجزاء على الأعمال يوم القيامة، كما قال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ [الآيتان: ٧٧، ٧٨].

فأتبعه- عز وجل- لعنته التي لا تزال متصلة به متواترة عليه تلاحقه إلى يوم الجزاء، فيجازى بأشد اللعنة وأشد الجزاء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال إبليس لما أُخرج من الجنة ومن ملكوت السموات وطرد من رحمة الله وأيس من كل خير:

﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ فطلب النظرة إلى يوم بعث الخلائق يوم القيامة، وذلك من تمام حسده وشدة عداوته لآدم وذريته؛ ليسعى ما استطاع لإضلال أكبر قدر منهم وإهلاكهم والزج بهم معه في النار.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، أي: من المؤجلين المهلين ﴿إِلَىٰ

يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾، أي: إلى يوم الوقت المعلوم للبعث والقيامة، أي: إلى يوم الأجل المعدود المحدود للبعث والقيامة، أي: المعلوم لله- عز وجل- أجله ومتى يكون، والمعلوم للناس أنه حق ولا بد من وقوعه.

وكذا قال في سورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝﴾ [الآيتان: ٧٩- ٨١].

وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥].

وليس إجابة الله تعالى لسؤاله كرامة له، وإنما استدراج له، وابتلاء وامتحان له وللعباد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝﴾.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، أي: قال إبليس: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب إغوائك إياي، وإضلالك لي.

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اللام: لام قسم محذوف، وهو المصرح به في قوله في سورة ص: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝﴾ [الآيتان: ٨٢، ٨٣].

أي: لأزينن لذرية آدم في الأرض، أي: لأحسننَّ لهم، وأحببنَّ إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ولأرغبنهم في الإقبال على الحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها، والانشغال بها عن الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ معطوف على «أزيننّ» مع إعادة اللام للتأكيد.

والإغواء: الإضلال، والغواية: الضلال، أي: ولأضلنهم أجمعين، كما أغويتني وأضللتني، كما قال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ۝ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

فالشيطان لا يقتنع حتى يوقع الإنسان في الكفر والضلال، فإن عجز عن ذلك أوقعه في البدعة؛ لأنه من الصعب الرجوع عنها، فإن لم يستطع أوقعه في ترك الواجبات، فإن عجز عن ذلك أوقعه بفعل المحرمات، فإن لم يستطع ذلك أشغله بالمفضول عن الفاضل، فإن عجز عن ذلك أشغله بالمباحات، فيضيع عمره سبهللًا وحياته سدى، في التقلب والتفنن في أنواع المآكل والمشارب والمساكن والمراكب، والأسفار هنا وهناك، ويلقى الله غدًا مفلسًا، كما هو حال كثير من المسلمين اليوم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بكسر اللام: «المخلِصين» جمع «مُخلِص» اسم فاعل، أي: الذين أخلصوا لك العمل.

وقرأ الباقون بفتح اللام: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ جمع «مُخلَص» اسم مفعول، أي: الذين أخلصتهم أنت وطهرتهم واجتبيتهم.

و«إلا» في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾ أداة استثناء، والمعنى: إلا عبادك الذين أخلصتهم واجتبيتهم؛ لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم على الله، وإنما استثناهم لتحققه أنه لا سلطان له عليهم، كما قال تعالى في الآية الآتية: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قرأ يعقوب: «عليٌّ» بكسر اللام ورفع الياء وتنوينها، على أنها وصف من «العلو»، أي: هذا صراط عليٌّ، أي: طريق رفيعٌ

مستقيم، وقرأ الباقون: ﴿عَلَيَّ﴾ بفتح اللام والياء من غير تنوين، على أنها حرف الجر «على» اتصل بياء المتكلم، وهي هنا تعود إلى الله عز وجل، أي: هذا طريق موصلٌ إليَّ مستقيم معتدل، أي: أن الطريق المستقيم المعتدل يرجع إلى الله ويوصل إليه، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٩]. قال طفيل الغنوي:

مضوا سلفًا قصد السبيل عليهمُ وصرف المنايا بالرجال تشقلب(١)

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا.

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو عليَّ طريقها(١)

قال ابن القيم في ذكر السر في اختيار أداة «على»: «قيل: في أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النحل: ٧٩].

والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على دينه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «على»- على هذا المعنى- ما ليس في أداة «إلى»، فتأمله؛ فإنه سر بديع»(١).

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، أي: إن عبادي الذين آمنوا بي، وتوكلوا علي، وأخلصوا لي.

﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، أي: لا تَسَلُّطَ لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ولا سبيل لك عليهم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، وهو استثناء منقطع، أي: لكن من اتبعك وأطاعك وتولاك من الغاوين فلك عليهم سلطان؛ لأنهم اختاروا اتباعك وولايتك وطاعتك، على ولاية الله وطاعته.

و«الغاوين»: جمع «غاوي» وهو الضال الذي عرف الحق وتركه. وضده الراشد

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤.

وهو الذي عرف الحق فاتبعه. أما من ترك الحق من غير علم به فهو ضال فقط.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

وعيد شديد وتهديد أكيد للشيطان وجنوده وأتباعه من الغاوين.

قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾اللام: للتوكيد، و«جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

أي: وإن جهنم لموعد الشيطان وجنوده وأتباعهم من الغاوين أجمعين، أي: مكان اجتماعهم فيها كلهم جميعًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر؛ لأنها طباق بعضها فوق بعض، ومنازل حسب أعمالهم.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾، أي: لكل باب من أبواب جهنم جزء مقسوم من إبليس وجنوده وأتباعه الغاوين يدخلونه لا محيد لهم عنه، ويستقرون في دركها بقدر أعمالهم، قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

الفوائد والأحكام:

١- أن خلق آدم عليه السلام- وهو أصل خلق الإنسان-: من صلصال من حمإ مسنون، أي: من طين قد يبس واسودّ وتغيرت رائحته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

٢- أن خلق إبليسَ- أعاذنا الله منه- وهو أصل خلق الجان: من نار السموم، أي: من لهب نار شديد الحرارة لا دخان فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

٣- أن خلق إبليس أصل الجان قبل خلق آدم أصل الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾.

٤- فضل آدم على إبليس في أصل الخلقة، فآدم خلق من الطين عنصر الثقل

والرزانة والبناء، وإبليس خلق من النار عنصر الخفة والطيش والإحراق.

٥- ينبغي للإنسان أن يتواضع ولا يتكبر فأصله من الطين والتراب، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم.

٦- تنويه الله- عز وجل- بذكر آدم وتشريفه في الملأ الأعلى قبل خلقه، فقد أخبر عز وجل الملائكة- قبل أن يخلقه- بأنه سيخلقه وبيَّن لهم أصل خلقه، وأمرهم بالسجود له بعد تسويته ونفخ الروح فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله- الخاصة لنبينا ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٨- أن الملائكة مخلوقون قبل آدم.

٩- أن الله- عز وجل- بعد أن خلق آدم وسواه مجسدًا تامًّا نفخ فيه من روحه.

١٠- سجود الملائكة لآدم استجابة لأمر الله تعالى لهم بذلك واحترامًا لآدم عليه السلام؛ لقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

١١- فضيلة الملائكة عليهم السلام؛ لسرعة استجابتهم لأمر الله، ومبادرتهم إلى طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

١٢- امتناع إبليس من السجود لآدم- عليه السلام- مع الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾.

١٣- إنكار الله- عز وجل- على إبليس وتوبيخه له في عدم سجوده لآدم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾.

١٤- إفصاح إبليس وإبانته أن سبب تركه السجود لآدم هو الاستكبار على آدم واحتقاره؛ لأن أصل خلقه من الطين؛ لقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ مغترًّا بخلقه من النار، كما قال في الآية الأخرى: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٧٦].

١٥- شدة إباء إبليس وامتناعه من السجود لآدم؛ لأنه لم يقل: لا أسجد، بل قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾؛ فلم ينف السجود، بل نفى الكون، وهذا أشد.

١٦- أن من حكمة الله تعالى في أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ أن يظهر ما يضمره إبليس من الكفر والمخالفة، والاستكبار على أمر الله، والتكبر على آدم.

١٧- خطر الكبر وأنه يحمل على رد الحق وعدم قبوله، قال ﷺ: «الكبر: بطر الحق وغمط الناس»(١).

١٨- حكم الله- عز وجل- الكوني على إبليس بالطرد والإبعاد، وأمره له بالخروج من الجنة ومن ملكوت السموات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

١٩- قضاؤه عز وجل الكوني باستمرار اللعنة والطرد والإبعاد لإبليس عن رحمة الله تعالى وعن كل خير إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

٢٠- سؤال إبليس- بعد تيئيسه من رحمة الله تعالى، ومن كل خير- من ربه: إنظاره إلى يوم البعث؛ ليتمكن من إغواء أكبر عدد من ذرية آدم، ويدخلهم معه في النار؛ من شدة عداوته لهم ولأبيهم وحسده لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وإقرار إبليس بهذه الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

٢٣- إجابة الله- عز وجل- سؤال إبليس النظرة إلى يوم البعث ابتلاءً وامتحانًا من الله تعالى له وللعباد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

٢٤- أن ليوم القيامة وقتًا محددًا معلومًا لله تعالى، لا يتقدم عنه ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

٢٥- إقسام إبليس على أنه- بسبب إغواء الله إياه- سيزيِّنُ لبني آدم في الأرض

(١) سبق تخريجه.

الكفر والمعاصي والإقبال على الدنيا وملذاتها والإعراض عن الآخرة ويغويهم أجمعين؛ لشدة عداوته وحسده لهم ولأبيهم، لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢٦- علم إبليس وتحققه أنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين؛ لهذا استثناهم فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٢٧- إثبات العبودية الخاصة لله تعالى، وهي عبودية أوليائه المؤمنين المخلصين.

٢٨- ينبغي الحذر من تزيين الشيطان الكفر المعاصي وحب الدنيا والتعلق بها ونسيان الآخرة، ومن إغرائه وإغوائه، وينبغي الإخلاص لله تعالى.

٢٩- أن طريق الحق طريق عدل مستقيم يرجع إلى الله تعالى ويوصل إليه وإلى مرضاته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

٣٠- أن عباد الله المخلصين ليس لإبليس عليهم سلطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

٣١- أن لإبليس سلطانًا على من اتبعه ووالاه وأطاعه من الغاوين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، وهذا يوجب الحذر من أتْبَاعه ومن إغوائه.

٣٢- التهديد والوعيد لإبليس وأتباعه من الغاوين بأن جهنم موعدهم أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٣٣- إثبات الحساب والجزاء، وأن نار جهنم معدة، وهي موعد الغاوين، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

٣٤- تهويل أمر جهنم وخطرها، وأن لها سبعة أبواب، لكل باب من الغاوين جزء مقسوم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

٣٥- أن النار أطباق ودركات ينزل بها أصحابها على قدر أعمالهم وإجرامهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ
وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

لما توعد- عز وجل- إبليس وأتباعه من الغاوين بجهنم وعذابها الأليم، أتبع ذلك بوعد المتقين بالجنات والعيون وألوان النعيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، أي: إن المتقين الذين اتقوا الله بفعل ما أمرهم الله به واجتناب ما نهاهم عنه، فظفروا بالهداية، وسلموا من الضلال، ونجوا من الغواية.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: في بساتين ملتفة بالأشجار والثمار، تجري فيها العيون والأنهار.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾، أي: يقال لهم تكريمًا لهم، وترحيبًا بهم عند دخولها: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، أي: ادخلوا هذه الجنات والعيون ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ الباء للمصاحبة، أي: مصاحبين ومصحوبين بكل سلام، أي: سالمين من الآفات ومن كل سوء، مسلمًا عليكم.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: حال كونكم آمنين من كل خوف وفزع، آمنين من الموت ومن المكدرات، ومن انقطاع هذا النعيم، أو فنائه، أو الإخراج منه، كما قال تعالى في الآية الآتية: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الآية: ٤٨].

قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾، أي: أزلنا ورفعنا، ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾، «ما»: موصولة، أي: أزلنا الذي في صدورهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾، أي: من حقد وضغينة وشحناء وعداوة وبغضاء، من بعضهم لبعض، فصارت قلوبهم متصافية متحابة متآلفة.

قال أبو أمامة رضي الله عنه: «لا يدخلون الجنة حتى ينزع الله ما في قلوبهم

من غل»(١).

ويدل على هذا حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة»(٢).

﴿إِخْوَانًا﴾ حال، أي: حال كونهم إخوانًا وإخوة في الله متحابين متصافين، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ «سرر»: جمع «سرير» وهو اسم لما يجلس عليه موطّأ للسرور، وهو مأخوذ منه؛ لأنه مجلس سرور، يزين بالفرش واللؤلؤ والجواهر.

﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ جمع «متقابل»، أي: يقابل بعضهم بعضًا ولا يتدابرون، فلا يدير أحدهم قفاه إلى الآخر، ولا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر، من حسن أدبهم فيما بينهم واحترام كل منهم وتقديره للآخر، كما قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦﴾ [الواقعة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٥٣﴾ [الدخان: ٥٣].

تأمل- أخي في الله- هذه أخلاق أهل الجنة، واعلم أنه لن يدرك منازلهم إلا من تخلق بأخلاقهم مع إخوانه المسلمين في هذه الدار دار الاختبار.

ولك أن تتصور أحوال كثير من المسلمين اليوم، وكم هو الفرق الشاسع والبون الواسع بين أخلاقهم، وبين أخلاق أهل تلك المنازل، فجفاء وغلظة، وأنانية ولامبالاة، وتدابر في القلوب والأبدان.

يقابل الواحد أخاه في الشارع أو على باب متجر أو داخل بقالة أو عند إشارة، فيصد ويعرض عنه، ويترك السلام عليه، ولسان حاله يقول: أخاف أن يعرفني، أو يقول: هذا شخص لا أعرفه.

وأقول لهذا وأمثاله: إن لم يعرفك فلان فالله يعرفك، ويعلم ما توسوس به نفسك، وإن لم تعرف هذا الشخص فالسلام من حقه عليك، وستجد مغبة هذا التعامل مع إخوانك المسلمين، وقد قيل:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- القصاص يوم القيامة ٦٥٣٦، وأحمد ٣/ ١٧، ٧٥.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليَبَس[١]

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨﴾.

هذا من السلام والأمن الذي بشروا به في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ۝٤٦﴾.

أي: لا يصيبهم في الجنة تعب ولا مشقة ولا كدر ولا أذى، لا ظاهر ولا باطن، كما في حديث عبد الله بن أبي أوفى، أن رسول الله ﷺ قال: «بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[٢]»[٣].

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، أي: وما هم من الجنات ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾، الباء زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: فلا هم مخرجون منها، كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

ولا هم يرغبون في الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ينادي منادٍ: إن لكم أن تَصِحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[٤].

وهذا وعد لجميع المتقين؛ لعموم قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾،

---

(١) البيت لابن المبارك. انظر: «ديوانه» (ص٢٦) . وينسب لأبي العتاهية. انظر: «الأغاني» (٤/ ١١٢)، «زهر الآداب» (٣/ ٨٧١)، «مجاني الآداب» (٢/ ١٤).

(٢) القصب: اللؤلؤ المجوف، والصخب: الصوت المختلط المرتفع، والنصب: التعب والمشقة.

(٣) أخرجه البخاري في الحج ١٧٩٢، ومسلم في فضائل الصحابة وفضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ٢٤٣٣.

(٤) أخرجه مسلم في الجنة- دوام نعيم أهل الجنة ٣٨٣٧، والترمذي في التفسير ٣٢٤٦.

ويدخل في هذا بلا شك من باب أولى أهل بدر والخلفاء الراشدون والمبشرون بالجنة وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، لكنه ليس خاصًّا بهم.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾.

لما ذكر ما يوجب الرهبة والرغبة مما توعد الله به من عصاه، ومما وعد الله به من أطاعه، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه.

قوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾، أي: أخبر يا محمد عبادي ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ﴾، أي: أني أنا ذو المغفرة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته- عز وجل- الذاتية الثابتة، وصفة من صفاته- عز وجل- الفعلية التي يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال عثمان رضي الله عنه: «قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾»(١).

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: ونبئهم أن عذابي هو العذاب الأليم، أي: هو العذاب المؤلم الموجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٦﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

وفي هاتين الآيتين التوجيه والترغيب في الجمع بين الرجاء والخوف، أي: أخبر عبادي أني أنا الغفور الرحيم، فلا يسترسل بهم الخوف حتى يقنطوا من مغفرتي ورحمتي، وأخبرهم أن عذابي هو العذاب الأليم، فلا يتمادى بهم الرجاء فيأمنوا من عذابي.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩٨﴾ [المائدة: ٩٨]،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٣٢٢.

وقال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»(١).

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون الخوف والرجاء للمؤمن كجناحي الطائر، أي: لا يرجح أحدهما على الآخر.

وقال ابن القيم: يغلب جانب الرجاء عند فعل الطاعة، ويغلب جانب الخوف عندما تزين له نفسه فعل المعصية.

وقال بعضهم: إذا نظر إلى رحمة ربه غلب جانب الرجاء، وإذا انظر إلى ذنوبه غلب جانب الخوف.

وقال كثير من أهل العلم: يغلب جانب الخوف حال الصحة، ويغلب جانب الرجاء حال المرض؛ ليحسن الظن بربه.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، فبعد أن توعد إبليس وأتباعه الغاوين بجهنم وعذابها الأليم، أتبع ذلك بوعد المتقين بالجنات والعيون وألوان النعيم.

٢- عظم ما أعد الله للمتقين من الجنات والعيون والتكريم النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، إلى قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

٣- تكريم المتقين والترحيب بهم وتهنئتهم بدخول الجنة بالسلام والأمن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

٤- أن من أعظم نعيم الجنة إزالة ما في قلوب أهلها من الغل والحقد والضغائن، مما يتعسر في الدنيا السلامة منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢.

٥- تنعم أهل الجنات باكتمال الأخوة بينهم والسرور، والجلوس على السرر متقابلين احترامًا وتقديرًا من بعضهم لبعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

٦- سلامة أهل الجنات من النصب والتعب والآفات والمكدرات، وأمنهم من الإخراج منها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

٧- الجمع لأهل الجنات بين النعيم الحسي من الجنات والعيون وتقابلهم على السرر، وبين النعيم المعنوي من الترحيب بهم والتهنئة لهم بالسلام والأمن، ونزع الغلّ من صدورهم وجعلهم إخوانًا، وسلامتهم من النَّصَب والآفات وأمنهم من الإخراج.

٨- أن نعيم أهل الجنات يجمع بين حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، وبهذا تمام النعيم واكتماله. نسأل الله تعالى من فضله.

٩- أن الجنات لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها، بل هي خالدة، وأهلها مخلدون فيها أبد الآباد.

١٠- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾.

١١- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما «الغفور» و«الرحيم»، وإثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

١٢- أن عذاب الله هو العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

١٣- وجوب الجمع بين الرجاء والخوف، فلا يقنط العبد من رحمة الله، ولا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يأمن عذاب الله؛ لأمره- عز وجل- له ﷺ بإخبار العباد بأنه هو الغفور الرحيم، وأن عذابه هو العذاب الأليم.

١٤- أن مغفرة الله تعالى ورحمته تسبق غضبه وانتقامه؛ لأن الله قدم البشارة والإخبار بمغفرته ورحمته على الإخبار بأليم عذابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾.

قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: وأخبر قومك يا محمد ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، «ضيف» يطلق على الواحد وعلى الجمع، أي: وأخبرهم عن ضيوف إبراهيم خليل الرحمن، من الملائكة.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، أي: حين دخلوا عليه.

﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ «سلامًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: نسلم سلامًا.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ «الوجل»: الخوف، ومحله القلب، أي: إنا منكم خائفون، وقد ذكر في سورة هود وسورة الذاريات رده السلام عليهم بقوله: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود:٦٩، الذاريات:٢٥].

وسبب خوفه منهم عدم أكلهم من العجل الذي قربه ضيافة لهم، فخاف أن يكونوا لصوصًا أو نحوهم، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [الآيات: ٦٩- ٧١].

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ

دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ [الآيات: ٢٤-٢٨].

﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ﴾، أي: قالت الملائكة تطميناً لإبراهيم، ﴿لَا تَوۡجَلۡ﴾، أي: لا تخف، أي: كن آمناً مطمئناً.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ قرأ حمزة وحده: «نَبْشُرك» بفتح النون وسكون الباء، وضم الشين.

وقرأ الباقون بضم النون وفتح الباء وتشديد الشين مكسورة: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾.

﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾، أي: بغلام ذو علم واسع وهو علم النبوة؛ لأنه سيكون نبيًّا، وهو إسحاق- عليه السلام- كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾.

وفي إردافهم قولهم: ﴿لَا تَوۡجَلۡ﴾ بقولهم: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ زيادة على البشارة تأكيد لطمأنته، وأنهم ما جاؤوا إليه بشر، وإنما جاؤوا إليه بخير وهو البشارة، وليظهر له أنهم ليسوا بشرًا، بل رسل من الله من الملائكة، فيطمئن أكثر.

وحكى هنا البشارة لإبراهيم: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾، وكذا في سورة الذاريات قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ [الآية:٢٨]، وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ [الآية:١١٢].

وحكى في سورة هود البشارة لامرأته فقال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾.

لأن البشارة كانت لهما معًا، وقد تكونا حاصلة في وقت واحد، فهي بشارتان باعتبار المبشَّر، وقد تكون حصلت في وقتين متقاربين، بشروه بانفراد، ثم جاءت امرأته فبشروها.

﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، قرأ نافع: «تبشرونِ» بكسر النون مخففة، وقرأ ابن كثير بكسرها مشددة: «تبشرونِّ»، وقرأ الباقون بفتحها مخففة: ﴿تُبَشِّرُونَ﴾.

والاستفهام في الموضعين للتعجب، والثاني تأكيد للأول، فتعجب من بشارتهم له بالولد مع أنه قد مسه الكبر، كما مس زوجته، وأكد التعجب بالاستفهام الثاني متحققًا للوعد: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، أي: فبأي شيء تبشرونني، أو على أي وجه تبشرونني، وقد عدمت الأسباب.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، أي: قالت الملائكة لإبراهيم- عليه السلام- مؤكدين تحقق البشارة: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بما هو حق، لا شك فيه.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، أي: فلا تكن من اليائسين.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف بكسر النون: «يقنِط»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَقْنَطُ﴾.

والاستفهام في الموضعين للتعجب والنفي، و«من» و«إلا» أداة حصر، أي: ومن الذي يقنط من رحمة ربه، ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، أي: إنه لا يقنط من رحمة ربه ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

و«الضالون» جمع «ضال» وهم الذين لا علم لهم بربهم، ولا معرفة لهم بتمام قدرته وواسع رحمته، فضلوا عن طريق الحق والصواب، فأيسوا من روح الله، وقنطوا من رحمته.

ومفاد جوابه هذا- عليه السلام- أنه لم يقنط من رحمة الله تعالى، وإنما يرجو رحمته وأن يهبه الله الولد، وإن كان قد مسه الكبر هو وامرأته؛ لعلمه بواسع رحمة الله، وتمام قدرته على خرق العادة وعلى كل شيء، كما قال تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

لما بشروه هذه البشارة عرف أنهم مرسلون لأمر عظيم وشأن خطير، فسألهم عن شأنهم.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال إبراهيم- عليه السلام- لما ذهب عنه الروع: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أي: فما شأنكم الخطير يا أيها المرسلون؟ ولأي شيء

أرسلتم؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط أهل قرية «سدوم»، الذين أجرموا بتكذيب نبيهم لوط- عليه السلام- وارتكابهم فاحشة اللواط، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، وهي إتيان الذكران، والمعنى: أرسلنا لتعذيبهم؛ ولهذا قالوا:

﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نرسل عليهم حجارة من طين، أي: من طين متحجر.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء منقطع؛ لأن آل لوط ليسوا من المجرمين، و﴿ءَالَ لُوطٍ﴾: لوط وأهله.

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بسكون النون وتخفيف الجيم: «لَمُنْجُوهم»، وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الجيم: ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾.

«إن»: حرف توكيد ونصب، واللام في قوله: ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ للتوكيد، أي: إنا لمخلصوهم أجمعين من العذاب.

وهم فقط: لوط وابنتاه.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ الاستثناء: متصل؛ لأن امرأته من آل لوط.

﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ قرأ أبو بكر بتخفيف الدال: «قَدَرنا».

وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿قَدَّرۡنَآ﴾، أي: قضينا وحكمنا كونًا، ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ «إن» واللام للتوكيد، أي: إنها لمن الباقين في العذاب الهالكين.

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله- عز وجل- للنبي ﷺ أن يخبر قومه عن ضيوف إبراهيم من الملائكة وما جرى بينه وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآيات، للعظة والاعتبار والاستفادة مما فيها من الحكم والأحكام والآداب.

٢- إثبات نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

٣- مشروعية الضيافة وأنها من شريعة إبراهيم، وسنن المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام.

٤- إثبات وجود الملائكة- عليهم السلام- وتنزلهم بأمر الله بالوحي أو البشارة، أو العذاب أو غير ذلك.

٥- مشروعية السلام عند الدخول على أهل البيت؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

٦- تخوّف إبراهيم- عليه السلام- من هؤلاء الضيوف قبل أن يعرف أنهم رسل من عند الله من الملائكة، خشية أن يكونوا لصوصًا أو جاؤوا لشر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

وكان سبب ذلك امتناعهم من الأكل، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الآية: ٧٠]، وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الآية: ٢٧، ٢٨].

٧- طمأنة الملائكة عليهم السلام لإبراهيم عليه السلام، وتهدئتهم لروعه؛ لقولهم: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾.

٨- بشارة الملائكة لإبراهيم بغلام ذي علم واسع، وهو علم النبوة؛ لأنه يكون نبيًّا، وهو إسحاق عليه السلام؛ لقولهم: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

٩- في إرداف الملائكة طمأنتهم لإبراهيم بالبشارة له بالولد زيادة في طمأنته وإيحاء إلى أنهم رسل من عند الله جاؤوا إليه بالخير والبشارة.

١٠- تعجب إبراهيم عليه السلام من أن يولد له ولد بعد أن أصابه الكبر، وتأكيده التعجب؛ لقوله: متعجبًا ومتحققًا للوعد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

١١- تأكيد الملائكة لإبراهيم- عليه السلام- أن ما بشروه به حق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٢- نهي الملائكة لإبراهيم عليه السلام عن القنوط واليأس من حصول الولد له مع كبره، وحاشاه- عليه الصلاة والسلام- من القنوط واليأس، وإنما تعجب من ذلك؛ لأنه عَجَبٌ وفق ما جرت به العادة؛ لأنه كبير وامرأته عجوز عقيم مع علمه-

عليه السلام- التام بواسع رحمة الله- عز وجل- وتمام قدرته على خرق العادة، وأنه لا يمتنع عليه شيء؛ ولهذا لما قالت له الملائكة: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾، أجابهم على الفور بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

١٣- إنه إنما يقنط من رحمة الله الضالون عن طريق الحق والصواب، الذين لا علم لهم بربهم ولا معرفة لهم بواسع رحمته وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

١٤- لا بأس بسؤال الضيف عند الاطمئنان إليه عن شأنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١٥- فطنة إبراهيم عليه السلام وتفرسه أن هؤلاء الملائكة جاؤوا لأمر عظيم وشأن خطير، يلحظ هذا في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أي: ما أمركم العظيم، وما شأنكم الخطير.

١٦- إفصاح رسل الله من الملائكة بشأنهم وما أرسلوا له وهو تعذيب قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾.

١٧- فضيلة إبراهيم وعناية الله به؛ فإن هؤلاء الرسل من الملائكة لم يرسلوا لإبراهيم ولبشارته، وإنما مروا عليه في طريقهم إلى قوم لوط؛ لأن لوطًا من أتباعه ومن أول من آمن به، فلما أراد الله إهلاك قوم لوط أمر هؤلاء الملائكة أن يمروا على إبراهيم ويبشروه بالولد ويخبروه بما أرسلوا من أجله، حتى إنه جادلهم حتى أقنعوه.

١٨- إجرام قوم لوط بتكذيبهم لوط عليه السلام وارتكابهم جريمة اللواط بإتيانهم الذكران، والتي ما سبقهم بها أحد من العالمين.

١٩- عظم عقوبة قوم لوط لعظيم جرمهم بارتكابهم فاحشة اللواط، حيث جعل الله عالي ديارهم سافلها، وأرسل عليهم حجارة من طين، فهلكوا عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾.

وقد قال ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول

به»(١).

٢٠- إنجاء الله تعالى لوطًا وأهله من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وهم لوط وابنتاه.

٢١- استثناء امرأة لوط من الناجين من أهله، وإهلاكها مع قومه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، أي: الباقين المعذبين؛ لمشاركتها قومه وإعانتها لهم على إجرامهم.

٢٢- أنه لا يغني أحد عن أحد من الله شيئًا، فلم ينفع امرأة لوط لما كفرت كونُها امرأة نبي الله لوط عليه السلام.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾، أي: فلما جاء آل لوط الملائكة المرسلون ﴿قَالَ﴾، أي: قال لوط- عليه السلام لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، أي: غير معروفين لي، أي: أنى لا أعرفكم ولا ادري من أنتم، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قال هؤلاء الرسل من الملائكة للوط عليه السلام: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، و«ما» موصولة، أي: بل أتيناك بالذي كانوا فيه يمترون، أي: بالعذاب الذي كان قومك فيه يشكون، ويكذبونك حين تتوعدهم به.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، أي: وأتيناك بالأمر الحق، الجد الذي ليس بالهزل، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما قلنا لك، وهذا تأكيد لقولهم: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، وقد أكدوا هذا التأكيد بـ«إن» واللام.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، الإسراء: السير ليلًا، أي: سر بأهلك ليلًا.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، أي: بجزء من الليل، أي: بجزء من الليل بعد مضي جانب منه، ونوم العيون، فلا يشعر أحد بمسراك.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾، أي: سر وراءهم، وامش خلفهم، يكون أحفظ لهم. وهكذا كان نبينا صلوات الله وسلامه عليه في الغزوات يكون في الساقة خلف الجيش، يزجي الضعيف، ويحمل المنقطع، كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم»(١).

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، أي: أسرعوا السير، ولا يلتفت منكم أحد إلى ورائه، فيشاهد ما حل بالمجرمين من العذاب والنكال، فيروعه ذلك ويعوقه عن الإسراع.

ولم يستثن امرأته هنا كما قال في سورة هود: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]؛ لأنه في كل موضع يذكر من القصة ما يناسبه، والقصة بكاملها تؤخذ من جميع المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم.

﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، أي: أسرعوا واذهبوا ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، قال ابن كثير(٢): «كأنه كان معهم من يهديهم السبيل».

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: أوحينا إليه وتقدمنا إليه، وأخبرناه خبرًا مؤكدًا.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ تفسير للأمر في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾.

قال ابن القيم: «فسر ذلك الأمر بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، وفي إبهامه أولًا وتفسيره بعد ذلك: تفخيم للمبهم، وتعظيم لشأنه، فإنه لو قال: وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، لما كان بهذه المثابة من الفخامة»(٣).

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: أن دابر هؤلاء القوم المجرمين، أي: آخرهم.

﴿مَقْطُوعٌ﴾، مهلك بالعذاب.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- في لزوم الساقة ٢٦٣٩.

(٢) في «تفسيره» ٤/ ٤٦٠.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٦.

﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ حال، أي: وقت الصباح، كما قال في سورة هود: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [الآية: ٨١]، أي: أن سيصبحهم عذاب يجتاحهم ويستأصلهم، فيقطع دابرهم ولا يبقي منهم أحدًا، وهو ما ذكره تعالى في آخر السورة بقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الآية: ٨٣].

الفوائد والأحكام:

١- استنكار لوط- عليه السلام- للرسل من الملائكة لما جاؤوا إليه وعدم معرفته أنهم ملائكة؛ لأنهم جاؤوا على صور شباب من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾.

٢- إعلام هؤلاء الرسل من الملائكة للوط عليه السلام أنهم جاؤوا بالعذاب الذي كان قومه المجرمون يشكون فيه؛ لقولهم: ﴿بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾.

٣- تأكيدهم للوط- عليه السلام- أنهم أتوه بالأمر الحق، والجد الذي ليس بالهزل، وتأكيدهم صدقهم؛ لقولهم: ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

٤- أمرهم له- عليه السلام- بأن يسري بأهله تحت جنح الليل، لينجو هو وإياهم من العذاب؛ لقولهم: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾.

٥- أمرهم له بأن يتبع أدبارهم، أي: يكون خلفهم حفاظًا عليهم؛ لقولهم: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾.

٦- نهيهم له ولأهله من أن يلتفت منهم أحد إلى ورائه، فيشاهد ما حل بالمجرمين من العذاب، فيروعه ذلك ويعوقه عن الإسراع والابتعاد عن ديار المعذبين؛ لقولهم: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾.

٧- أن قصص القرآن يذكر منها في كل موضع ما يناسبه، وتختلف طولًا وقصرًا في موضع عن الآخر، وذلك من أسرار إعجاز القرآن؛ ولهذا لم يستثن امرأته هنا وقد استثناها في سورة هود فقال: تعالى: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [الآية: ٨١].

٨- حثهم له ولأهله بالمضي قدمًا والإسراع حيث يؤمرون؛ لقولهم: ﴿وَٱمۡضُواْ

حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴾.

٩- إيحاء الله تعالى إلى لوط عليه السلام، وإخباره له بالأمر الجلل، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين، وقطع دابرهم واستئصالهم عن آخرهم صباحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴾.

١٠- أن العذاب كثيرًا ما يقع وقت الصباح بكرة حال نشوة المعذبين باستقبال النهار ولهوهم ولعبهم؛ ليكون أشد وقعًا عليهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: أهل مدينة «سدوم»، وهم قوم لوط، جاؤوا إلى بيت لوط لما علموا بأضيافه، وما هم عليه من حسن الوجوه والجمال.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي: يبشر بعضهم بعضًا فرحين بأضياف لوط، وما هم عليه من الحسن والجمال، طمعًا بفعل الفاحشة بهم، فأخذوا يراودون لوطًا عن أضيافه، وهو يحاول ردهم وإقناعهم وثنيهم عن مرادهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال لوط- عليه السلام- محاولًا ثني قومه عن مرادهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾، أي: ضيوفي، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، أي: فلا تفضحوني فيهم وتذلوني أمامهم وتهينوني؛ لأن المضيف يجب عليه إجارة الضيف وحمايته والدفاع عنه، وعيب أن يناله سوء وهو في ضيافته.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: راقبوا الله وخافوه، وابتعدوا عن هذه الفاحشة العظيمة.

﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ تأكيد من حيث المعنى لقوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، أي: ولا تذلوني في ضيوفي وتهينوني أمامهم وأمام الناس.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جواب عن قوله لهم: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾، والاستفهام للإنكار، أي: أولم ننهك عن العالمين، أي: أوما نهيناك عن أن تضيِّف أحدًا،

فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر فقد أعذر، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الآية: ١٦٧].

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، أي: هؤلاء بناتي فتزوجوهن، يحتمل أنه أراد بناته: عموم النساء، ويحتمل أنه أراد بنتيه الاثنتين، أو أراد هذا وذاك، والأول أقرب، لكنهم لم يبالوا بقوله؛ ولهذا قال تعالى مخاطبًا نبينا محمداً ﷺ مقسمًا بحياته عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، اللام لام الابتداء، و«عمرك» مبتدأ، والخبر محذوف وجوبًا تقديره: «لعمرك قسمي، أو يميني»، فأقسم عز وجل بحياة نبيه ﷺ أن هؤلاء المجرمين من قوم لوط: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾»(١).

﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: إن هؤلاء المجرمين من قوم لوط عليه السلام ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ اللام لام التوكيد، أو القسم، أي: لفي غفلتهم وفي سكرة محبة الفاحشة ونهمهم بها، لا يبالون بعذل ولا لوم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الرشد والصواب.

قال ابن القيم: «و«العَمر» و«العُمر» واحد، إلا أنهم خصوا القسَم بالمفتوح؛ لإثبات الأخف؛ لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم، وأقسم بحياة نبيه ﷺ؛ ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته لديه، وإنما وصف الله اللوطية بالسكرة؛ لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمر. كما قال القائل:

سُكرانِ سُكر هوى وسُكر مُدامة ... ومتى إفاقة من به سُكرانِ»(٢)

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، أي: فأخذتهم صيحة العذاب وأهلكتهم، وهي الصوت

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ٩١- ٩٢.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧، ٢٨.

الشديد القاصف، ﴿مُشْرِقِينَ﴾ حال، أي: وقت شروق الشمس وطلوعها، وهو أشد عليهم؛ لأن الناس يسرون ويبتهجون بهذا الوقت، بينما فوجئ هؤلاء فيه بالعذاب.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾، أي: فقلبنا عليهم مدينتهم «سدوم»، وصيرنا عاليها سافلها، وهي في طريق القوافل والتجارة من الحجاز إلى الشام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، أي: من طين متحجر متصلب متين، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الآية: ٨٢]، وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الآية: ٣٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى ما أوقعه الله- عز وجل- بقوم لوط من العذاب الشديد، بأخذهم بالصيحة مشرقين، وقلب مدينتهم عليهم، وجعل عاليها سافلها، وإمطارهم بحجارة من سجيل؛ لجرأتهم على ارتكاب أعظم الفواحش، وأشنع السيئات، بإتيانهم الذكران.

﴿لَآيَاتٍ﴾، أي: لدلالات وعلامات على عظمة قدرة الله تعالى، وشدة عقابه وانتقامه من المجرمين، وعظة وعبرة.

﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، أي: للناظرين بعين البصر والبصيرة، المعتبرين المتأملين المتفكرين، الذين يرون في آثار هذه العقوبة الشديدة عظم جرم من عوقبوا بها لارتكابهم هذه الفاحشة العظيمة، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين.

قال ابن القيم: «هم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة»(١).

﴿وَإِنَّهَا﴾، «إن»: حرف توكيد ونصب، تعود إلى مدينة قوم لوط «سدوم».

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لَبِطَرِيقٍ قائم باق ثابت واضح مسلوك لم تندرس معالمه وآثاره، يراها المسافرون والمارون.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، الإشارة تعود إلى ما تعود إليه الإشارة الأولى،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٢.

وفي هذا دلالة على أن المتوسمين هم المؤمنون، أي: إن في ذلك لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله على عظيم قدرته وشدة عقابه، وعظة وعبرة لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾، أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة: الغيضة من الأشجار الملتف بعضها حول بعض، ونعتهم وأضافهم إلى الأيكة؛ ليذكرهم نعم الله عليهم، ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾، أي: في تكذيبهم شعيبًا عليه السلام، وإشراكهم بالله، والشرك أظلم الظلم، وأعظم الذنوب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وكانوا ظالمين أيضًا للناس بنقصهم المكيال والميزان وبخسهم الناس أشياءهم، وقطعهم الطريق على الناس وصدهم عن سبيل الله من آمن به.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، أي: عاقبناهم وأهلكناهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة.

كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾ [الآية: ٩٤]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الآية: ٩١]، وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الآية: ١٨٩].

﴿وَإِنَّهُمَا﴾، «إن»: حرف توكيد ونصب، والضمير «هما» يعود إلى مدينة قوم لوط «سدوم» وأيكة قوم شعيب، أي: وإن مدينة قوم لوط وأيكة قوم شعيب.

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ اللام للتوكيد، أي: أنهما لبطريق بين واضح ظاهر، ولا يخفى منه شيء، يسلكه الناس ويأتمون به، ويعرفون أنه يوصل، وهو طريق القوافل بين الحجاز والشام، وإدخال مدينة قوم لوط هنا تأكيد لقوله قبل هذا: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

قال ابن كثير[١] : «وكانوا قريبًا من قوم لوط، بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان ولهذا لما أنذر شعيب- عليه السلام- قومه قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

الفوائد والأحكام:

١- مجيء قوم لوط فرحين يبشر بعضهم بعضا بضيوفه الذين هم على درجة من الحسن والجمال، أن يظفروا بفعل الفاحشة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

٢- مراودتهم لوطًا عن أضيافه، وممانعته لهم، ونهيه لهم أن يذلوه ويهينوه في أضيافه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾.

٣- أمره لهم بتقوى الله والخوف منه، وترك هذه الفاحشة العظيمة، وتأكيده لهم ألا يخزوه ويذلوه في ضيفه ويهينوه؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ ، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [الآية: ٧٨].

٤- إنكارهم على لوط أن يستضيف أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٥- عرضه- عليه السلام- عليهم بناته، أي: ما أباح الله لهم تزوجه من النساء؛ ليكتفوا بالنكاح الحلال عن ارتكاب فاحشة اللواط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

٦- أن فيما أباح الله من الزواج بالحلال غُنيةً عن الوقوع في الحرام.

٧- إقسام الله- عز وجل- بحياة نبينا محمد ﷺ وتشريفه له؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، ولم يقسم عز وجل بأحد من الأنبياء سواه، صلوات الله وسلامه عليه.

٨- أن الله- عز وجل- أن يقسم بما شاء من خلقه؛ لأن إقسامه بشيء من خلقه

---

(١) في «تفسير» ٤/ ٤٦٢.

تعظيم لنفسه هو، أي: أقسم بما خلقت.

٩- شدة سكرة قوم لوط ونهمهم بفعل الفاحشة، وغفلتهم وعدم مبالاتهم بوعظ لوط عليه السلام ونهيه لهم؛ وعدم اكتراثهم بعرضه الحلال عليهم، وترددهم في حيرتهم وضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

١٠- أن حب الشهوة والولع بها واتباع هوى النفس، يعمي ويصم عن الرشد والحق والصواب، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

قال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

١١- عقوبة قوم لوط بأخذهم بالصيحة وقت شروق الشمس؛ ليكون أشد عليهم، فالناس يستقبلون الصباح والبكور مبتهجين، وهم يستقبلون العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.

١٢- قلب مدينتهم عليهم وإمطارهم بحجارة من سجيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

١٣- أن فيما أحل الله بقوم لوط من هذه العقوبة الشديدة دلالات وعلامات وعظات وعبر للمؤمنين المتأملين المتفكرين، ذوي التوسم والبصر والبصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾.

١٤- أن مدينة قوم لوط في طريق قائم ثابت مسلوك لم تندرس معالمه وآثاره؛ ليعتبر بها المعتبرون ويتعظ بها المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

١٥- ظلم أصحاب الأيكة قوم شعيب- عليه السلام- بتكذيبهم شعيبًا وشركهم بالله، وظلمهم الناسَ بقطع الطريق عليهم وبخسهم أشياءهم ونقص المكيال والميزان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨﴾.

١٦- انتقام الله- عز وجل- من أصحاب الأيكة بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

١٧- أن كلًّا من مدينة قوم لوط «سدوم»، وأيكة قوم شعيب، في طريق بيِّنٍ

واضح قائم مسلوك، وهو طريق القوافل بين الحجاز والشام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾.

أتبع ذكر قوم لوط بذكر أصحاب الأيكة قوم شعيب؛ ثم بأصحاب الحجر قوم صالح؛ لأن أهل مكة يشاهدون ديار هذه الأمم الثلاث.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أصحاب الحجر هم «ثمود» قوم صالح عليه السلام، مساكنهم بالحجر، شمال الجزيرة، في «العلا».

والحجر هو المعروف بوادي القرى بين المدينة والشام، وهو المعروف اليوم باسم: مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك، وقد سمي في حديث غزوة تبوك: «حجر ثمود».

والحجر: مشتق من الحجارة؛ لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في حجر الجبل نحتًا محكمًا، والحجر أيضًا: المكان المحجور، أي: الممنوع من الناس لاختصاص به.

أرسل الله لهم نبيه صالحًا عليه السلام فكذبوه، ومن كذب رسولًا فقد كذب جميع الرسل؛ لأن التكذيب ليس لشخص الرسول أيًّا كان، وإنما هو تكذيب للحق الذي جاء به.

كما أن من صدق رسولًا وجب عليه تصديق جميع الرسل السابقين واللاحقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء: ١٠٥]، علمًا أن نوحًا- عليه السلام- هو أول رسول، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١﴾ [الشعراء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠﴾ [الشعراء: ١٦٠].

كما امتدح المؤمنين من هذه الأمة بإيمانهم بجميع الرسل، فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

كما ذم الذين يقولون: نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على صدق صالح عليه السلام، وصحة ما جاءهم به، وأعظمها وأظهرها الناقة التي أخرجها الله لهم، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥].

ونهاهم أن يمسوها بسوء وحذرهم عقوبة ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٦].

﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، أي: فكانوا عن ما آتاهم الله من الآيات معرضين عن التأمل والتفكر فيها بقلوبهم وتعظيم الله تعالى الإخلاص له، متولين بأبدانهم- كبرًا وتجبرًا- عن العمل بما دلت عليه من وجوب عبادة الله تعالى وحده وطاعته وعدم التعرض للناقة بسوء، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الآية: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَانُوا۟﴾، أي: وكانوا من كثرة إنعام الله عليهم وما هم فيه من الرخاء.

﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، النحت: لحفر والنقر في الصخر والحجارة، أي:

ينحتون من صخر الجبال وحجارتها بيوتًا أشرًا وبطرًا وعبثًا، كما قال تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩﴾ [الشعراء: ١٤٩]. وقيل: ليسكنوها ويتحصنوا بها.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: آمنين مطمئنين في ديارهم لا يخافون.

فجمع الله لهم بين كثرة الخيرات والنعم التي أدرّها عليهم، وبين الأمن التام في ديارهم، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ۝١٤٨﴾ [الآيات: ١٤٦-١٤٨].

فبدل أن يشكروا الله تعالى قابلوا آياته بالإعراض عنها، وقابلوا نعمه بكفرها وبالتباهي في نحت البيوت من الجبال، مما لا حاجة بهم إليه، ويكتفى بما دونه، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ الفاء عاطفة، أي: فكفروا نعمة الله وكذبوا صالحًا، وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧﴾ [الأعراف: ٧٧].

فأخذتهم الصيحة الشديدة، فقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في ديارهم جاثمين هلكى، وهي الرجفة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ [الآية: ٧٨]، وهي الصاعقة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿مُصۡبِحِينَ﴾، أي: داخلين في وقت الصباح من اليوم الرابع، بعد مضي أيام التمتع الثلاثة التي أنظروا بها، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ۝٦٥﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٤، ١٥].

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، أي: فما نفعهم ولا دفع العذاب أو رفعه عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فما نفعهم ولا دفع عنهم الذي

كانوا يكسبونه، أو كسبهم من الأموال والخيرات التي أدرها الله عليهم من الزروع والتجارات والصناعات، والبيوت التي حصنوها وشيدوها، وغير ذلك، شيئًا من عقاب الله تعالى لما نزل بهم.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب أصحاب الحجر وهم «ثمود» لنبيهم صالح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٢- أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، كما أن من صدق رسولًا يجب عليه التصديق بجميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة ودينهم واحد.

٣- إقامة الحجة على أصحاب الحجر بما آتاهم الله من الآيات كالناقة، وإعراضهم عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

٤- انصراف أصحاب الحجر- بدل شكر ما هم فيه من النعم والأمن- إلى التباهي بنحت البيوت من الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، مما لا حاجة بهم إليه، ومما يكتفى ببعضه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾.

٥- أن الله جمع لثمود بين كثرة النعم والخيرات وبين الأمن التام، وهذا تمام الإنعام، لكنهم لم يشكروا؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾.

٦- أهمية الأمن في حياة الأمم؛ ولهذا امتن الله به عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾، كما امتن به على هذه الأمة فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ٣، ٤].

٧- أخذ ثمود وإهلاكهم بالصيحة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم بسبب تكذيبهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

٨- أن نزول العذاب صباحًا أشد وقعًا حيث هو وقت الفرح بإقبال الصبح والنهار، فانقلابه ترحًا أشد على النفس.

٩- لم يغن عن ثمود ما كانوا يكسبون من الأموال والأرزاق من زراعة وصناعة

وبيوت حصنوها وغير ذلك؛ لأن عذاب الله إذا جاء فلا مرد له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

١٠- أن المكاسب المادية مهما عظمت لا تنفع أصحابها، ولا تدفع عنهم عقاب الله، إذ حل بهم.

١١- أن للإنسان اختيارًا وكسبًا، وليس مجبورًا على الفعل، كما تقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ «إلا»: أداة حصر، والباء للملابسة والمصاحبة، أي: إلا خلقًا ملابسًا للحق ومصاحبًا له.

والمعنى: وما خلقنا السموات والأرض والذي بينهما من المخلوقات إلا بالحق والعدل، الذي به وعليه قامت السموات والأرض والكون كله؛ والدال على وجود الخالق وعظمته وكماله وحكمته وسعة رحمته وعلمه المحيط بكل شيء ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته على بعث الخلائق ومجازاتهم، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له، والذي لأجله خلق الله الخليقة، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾ الواو عاطفة، و«إن»: حرف توكيد ونصب، واللام في قوله: ﴿لَأٓتِيَةٞ﴾ للتوكيد، والساعة: القيامة، أي: وإن القيامة لآتية حقًّا وصدقًا، وكائنة لا محالة، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢﴾ [الواقعة: ١، ٢].

وذلك لبعث الناس من قبورهم ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وهذا من كمال عدل الله عز وجل؛ ليجزي كلًّا بما عمل، ويقضي بين الخلق بالحق والعدل، فخَلْق السموات والأرض وما بينهما بالحق والعدل، وإقامة القيامة للحق والعدل.

﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: فاعفُ وتجاوز، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [الزخرف: ٨٩].

«والصفح الجميل»: العفو الحسن الذي لا عتاب فيه ولا تثريب ولا أذى، بل فيه مقابلة الإساءة بالإحسان، كما قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وهو العفو الذي في محله المناسب، ليس في مقام لا ينفع فيه إلا العقوبة، فإن الصفح في مثل هذا المقام لا يجمل ولا يحسن.

وهذا قبل الإذن بالقتال؛ لأن سورة الحجر وسورة الزخرف كل منهما مكية، والقتال إنما شرع في المدينة، وليس معنى هذا أن هذه الآية وأمثالها منسوخة، وإنما يؤخذ بها في حال الضعف وعدم القدرة على القتال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أوله ولكل من يصلح له، والجملة في موقع التعليل للأمر بالصفح، وفيها تسلية له ﷺ، و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل يفيد الحصر،

أي: هو وحده الخلاق العليم، و«الخلاق»: اسم من أسماء الله تعالى، أي: الخلاق لكل شيء، ذو القدرة التامة على خلق كل شيء بدءًا وإعادة.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، أي: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، الذي وسع علمه كل شيء، مما تمزق من الأجساد، وما تفرق من الأبدان وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١- ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾.

في هذا امتنان عليه ﷺ- بعد التسلية له- بإيتائه السبع المثاني والقرآن العظيم؛ ليطمئن بأنه كما أنعم الله عليه بهذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، فإنه منجز له وعده.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ الواو استئنافية، واللام: لام القسم، أي: والله لقد أعطيناك يا محمد، وفي هذا امتنان عليه، وتكريم وتشريف له:

﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ يعني: سورة الفاتحة، التي هي سبع آيات، تثنى وتكرر وتقرأ في كل ركعة من الصلاة، وسميت «القرآن العظيم» لاشتمالها على مجمل معان القرآن وأحكامه.

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه، قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيته. فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾؟! ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟! فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكَّرته، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[(١)].

---

(١) سبق تخريجهما في تفسير سورة الفاتحة.

ففي هذين الحديثين نص النبي ﷺ على أن السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه هي سورة الفاتحة؛ ولهذا أجمع أهل العلم على تسميتها بهذا الاسم، لكن هذا لا يمنع من إطلاق هذا الاسم: «السبع المثاني والقرآن العظيم»- كما قال بعض السلف- على القرآن كله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، كما لا يمنع من إطلاقه على السور السبع الطوال؛ وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس؛ كما قال بعض السلف، وقال بعضهم بدل «يونس»: الأنفال مع التوبة؛ قالوا: لأن في هذه السور الكثير من الكلام عن الإيمان والتوحيد والبعث والفرائض والحدود والقصص والأحكام والأمثال والأخبار والمواعظ والعبر، وتثنيتها فيها.

لكن يشكل على هذا أن سورة الحجر مكية وأكثر هذه السور المدنية.

ويحتمل أيضًا أن يكون المراد بقوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾: القرآن كله، فيكون من عطف العام على الخاص.

وقال: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ ولم يقل: «أوحينا إليك»؛ لأن الإيتاء والإعطاء أظهر في الإكرام والمنة.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾، أي: لا تنظر بعينيك إلى الذي متعنا به أصنافًا من المشركين من الدنيا وزهرتها وزينتها الفانية؛ فتنة لهم، ولا تغبطهم به، ولا تتمناه، ولا تعجب بما يتمتع به المترفون ويغتر به الجاهلون من شهوات الدنيا وزخرفها مع ما هم عليه من الكفر والمعاصي، واستغن بما آتاك الله من السبع المثاني والقرآن العظيم، والدين القويم، قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [الآية: ١٣١].

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: لا تأسفْ ولا تأسَ عليهم لتكذيبهم لك، وعدم إيمانهم، أو لتعذيبهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: أَلِنْ جانبك للمؤمنين، وتواضع لهم، وتودد إليهم، وهكذا كان ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾.

قوله: ﴿وَقُلۡ﴾، أي: وقل للناس عامة: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾، أي: المنذر المحذر من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلۡمُبِينُ﴾، أي: البيِّن النذارة، الموضح المصرح بها.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم، فأصبحوا في مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»(١).

أي: المنذر المحذر من عذاب أليم يحل بالمكذبين، كما حل بالمكذبين قبلهم؛ كما قال لقيط الإيادي محذرًا قومه غزو كسرى من قصيدة بعنوان: «صرخة غيور»(٢):

أبلـغ وخلّـل إيـادًا في سراتهـم ... إني أرى الرأي إن لم أُعص قد نصعا
يـا قـوم لا تـأمنوا إن كنـتم غـيرًا ... عـلى نسائكمُ كسـرى ومـا جمعـا
هـذا كتـابي إلـيكم والنـذير معًـا ... لمـن رأى رأيـه مـنكم ومـن سـمعا
وقد بـذلت لكـم نصحى بـلا دخَـل ... فاستيقظوا إن خـير العلـم مـا نفعـا

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ الكاف للتشبيه، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: كالذي أنزلنا على المقتسمين من العذاب، أو كإنزالنا عليهم العذاب، أي: أنا النذير

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- الانتهاء عن المعاصي ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل- شفقته ﷺ على أمته ٢٢٨٣.

(٢) انظر: «ديوان لقيط الإيادي» (ص ٤)، «الحماسة البصرية» (١/ ٨٩)، الذخائر والعبقريات» (٢/ ٢٢٢)، «موسوعة الشعر الإسلامي» (١/ ٥٢٢).

البيِّن النذارة لكم أيها المكذبون من عذاب أليم يحل بكم، كالعذاب الذي أنزله الله على المقتسمين.

و«المقتسمين»، أي: المخالفين، الذي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذيتهم وصد الناس عن سبيل الله، كما قال تعالى إخبارًا عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩﴾ [النمل: ٤٩].

﴿تَقَاسَمُواْ﴾، أي: تحالفوا ﴿بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾، أي: لنقتلنهم ليلًا.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩].

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ بيان لمعنى المقتسمين، أي: الذين جعلوا القرآن أجزاء،.

ويحتمل أن المراد بالذين جعلوا القرآن عضين: أهل الكتاب، ويكون المراد بالقرآن: كتابهم؛ لأنه مقروء كغيره من كتب الله.

وقد يكون المراد بـ«القرآن»: الكتاب الذي أنزل على نبينا محمد ﷺ، وصار علمًا عليه اسم «القرآن».

فأهل الكتاب كما جزّؤوا كتابهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كذلك جزّؤوا القرآن فآمنوا منه بما وافق أهواءهم، وكفروا بما عدا ذلك.

ويحتمل أن يكون المراد بالذين جعلوا القرآن عضين: هم الكفار والمكذبون من هذه الأمة، جعلوا القرآن أصنافًا وأجزاءً، ووصفوه بأوصاف بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فمنهم من يقول: هو سحر، ومنهم من يقول: شعر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفترى مختلق، ومنهم من يقول: أساطير الأولين، إلى غير ذلك من افتراءاتهم الباطلة، التي يريدون بها صد الناس عن سبيل الله.

عن قتادة أن المقتسمين رهط خمسة من قريش عضوا كتاب الله»(١).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ الفاء: استئنافية، والواو: للقسم، والخطاب للنبي ﷺ ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ واللام واقعة في جواب القسم.

فأقسم عز وجل بنفسه والتقدير: فأُقسمُ بربك يا محمد لنسألنهم أجمعين، أي: لنسألن هؤلاء المقتسمين وغيرهم من المكذبين أجمعين.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ عن الذي كانوا يعملونه، أو عن عملهم من تكذيب القرآن والقدح فيه وعيبه، والعمل على صد الناس عنه، وفي هذا أعظم الزجر لهم لو كانوا يعلمون.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ثم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩]؛ قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟»(٢).

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، «الصدع»: الجهر والإعلان، و«ما» موصولة، أي: فاجهر بالذي تؤمر به وأعلنه قولًا كان أو فعلًا، أي: اصدع بالذي يأمرك الله به من القرآن والدعوة إلى الله، والصلاة.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مازال رسول الله ﷺ مستخفيًا حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فخرج هو وأصحابه»(٣).

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: واترك المشركين ولا تبالهم وامضِ في دعوتك

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ١٣٢، ١٣٣)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ١٤١.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٤٦٩، والسيوطي في «الدر المنثور» ٤/ ١٠٦، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ١٤٢ من قول عبد الله بن عبيدة.

وشأنك، ولا تلتفت لهم.

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ تعليل للأمر بالصدع بأمر الله، والإعراض عن المشركين، و«ال» في «المستهزئين» للجنس، أي: كفيناك كل مستهزئ بك وبما جئت به من الحق، أي: كفيناكهم واستهزاءهم، فلا تخشهم؛ فإن الله حافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولم يقل: «نكفيك» بالمضارع، بل قال: ﴿كَفَيْنَٰكَ﴾ فعلًا ماضيًا؛ لتأكيد تحقق كفايته له.

وهذا وعد من الله تعالى لرسوله ألا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله تعالى إياهم بما شاء من أنواع العقوبات، وهكذا حصل فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء بالرسول ﷺ وبما جاء إلا أهلكه وقتله شر قتله، حتى ولو أمهله قليلًا فإنه لا يهمله.

وكان من بين هؤلاء المستهزئين عدة نفر من قريش، قيل: خمسة، وقيل: سبعة، عد منهم: الوليد بين المغيرة، والأسود بن يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن غيطلة، والعاص بن وائل، هلكوا كلهم في مكة متتابعين وكان هلاكهم العجيب صارفًا لأتباعهم عن الاستهزاء؛ لانفراط عقدهم(١).

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ذكر أذيتهم له ﷺ ثم وصفهم بما هو أطم وأعظم وهو جعلهم مع الله معبودًا آخر.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: معبودًا آخر يشركون به مع الله، وهذا أعظم الكفر وأشد الظلم؛ ولهذا توعدهم فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف يعلمون مستقبلًا سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لهم ولكل من جعل مع الله إلهًا آخر.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

في هذه الآية طمأنة له ﷺ وتقوية لقلبه وإخبار له ﷺ بعلمه- عز وجل- بضيق

(١) انظر: «جامع مع البيان» ١٤/ ١٤٦- ١٥٣، «تفسير ابن كثير» ٤/ ٤٧٠، ٤٧١.

صدره بسبب ما يقولونه من الاستهزاء به وبما جاء به، و بسبب إشراكهم بالله.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: ولقد نعلم أنك يا محمد يضيق صدرك بالذي يقوله هؤلاء المستهزئون المشركون من الاستهزاء بك وبدينك ومن التكذيب لك، والإشراك بالله- وقد أكد عز وجل علمه بذلك بالقسم.

وحرف التحقيق «قد» للتأكيد على عنايته- عز وجل- به ﷺ وأنه لن يتركه، بل سيحفظه ويكفيه إياهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وأنه- وإن أمهلهم لحكمة- فلن يهملهم.

فعليه ألا يثنيه ذلك عن الاستمرار بتبليغ رسالة ربه، وليثق بنصر الله تعالى له؛ ولهذا أمره الله بالثبات وبما يعينه على القيام بذلك فقال:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والباء للمصاحبة، أي: سبح بحمد ربك بتنزيهه عما لا يليق به، والإكثار من تحميده وتهليله وتكبيره، والصلاة له، وعبادته؛ ولهذا قال: ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، أي: من المصلين العابدين.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، أي: داوم واستمر على عبادة ربك أنت ومن معك، إلى غاية أن يأتيك ﴿الْيَقِينُ﴾، أي: إلى أن يأتيك الموت، كما قال تعالى إخبارًا عن أهل النار: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٣- ٤٧]، أي: الموت وقال زكريا: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، وعن أم العلاء امرأةٍ من الأنصار رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قلت: رحمة الله عليك، أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»، فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين؛ والله إني لأرجو له الخير»(١).

وقد امتثل- صلوات الله وسلامه عليه- أمر ربه، فاجتهد في إبلاغ الرسالة وأداء

(١) أخرجه البخاري في الجنائز- الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ١٢٤٣.

الأمانة وعبادة ربه حتى أتاه اليقين من ربه، والتحق بالرفيق الأعلى فصلوات الله وسلامه عليه عدد ما صلى الله عليه المصلون، وعدد قطرات الماء ونسمات الهواء، وذرات الرمل، وجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وجمعنا معه ووالدينا وأولادنا وأزواجنا وأقاربنا وجميع إخواننا المسلمين في الفردوس الأعلى من الجنة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، بمنه وفضله وكرمه.

الفوائد والأحكام:

١- أن الله- عز وجل- ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والعدل، للدلالة على عظمته ووحدانيته ووجوب إخلاص العبادة له تعالى وحده لا شريك له، ومجازاة كل بعمله خيرًا كان أو شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢- إثبات القيامة والمعاد وبعث الأجساد، والحساب والجزاء للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾، وهذا يوجب الاستعداد لها.

٣- أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالصفح الجميل عن المشركين والمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾، وهذا قبل الأمر بالقتال، فلما نزل الإذن بالقتال والأمر به بقي الأخذ بالصفح حين لا تستطيع الأمة القتال.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ وأنه- عز وجل- الخلاق لكل شيء، الخالق لما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾.

٦- إثبات اسم الله تعالى «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٧- امتنان الله تعالى عليه ﷺ بإعطائه السبع المثاني والقرآن العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وهذا امتنان عليه ﷺ وعلى أمته.

٨- تكريم الله- عز وجل- له ﷺ وتشريفه بخطابه- عز وجل- له.

٩- فضل سورة الفاتحة، فهي أفضل سور القرآن، وفضل السبع الطوال، والقرآن العظيم كله.

١٠- تزهيده ﷺ في الدنيا، ونهيه أن يمد عينيه إلى ما متع الله به المشركين المكذبين من زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية وهو نهي لأمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

١١- ينبغي عدم الاغترار بما عليه الكفار من متاع الدنيا الزائل، مع ما هم عليه من الكفر والضلال.

١٢- نهي الله- عز وجل- له ﷺ أن يحزن ويأسى على المشركين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

١٣- أمره- عز وجل- له ﷺ بخفض الجناح، ولين الجانب للمؤمنين، والتواضع لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهكذا يجب على المؤمنين فيما بينهم أسوة به ﷺ.

١٤- أمر الله تعالى له ﷺ بأن يعلن أنه هو النذير البين النذارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، وفي هذا إقامة الحجة على الناس بوضوح ما جاء به من الإنذار.

١٥- تحذير المكذبين له ﷺ ولما جاء به من عذاب أليم يحل بهم كالعذاب الأليم الذي أنزله- عز وجل- على المقتسمين على تكذيب الأنبياء وأذيتهم، وصد الناس عن دعوتهم، وتجزئة كتب الله تعالى والقرآن الكريم أجزاء، يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ويصفون القرآن بأوصاف باطلة حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وقلوبهم الفاسدة، فمنهم من يقول: هو سحر، ومنهم من يقول: شعر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفترى مختلق، ومنهم من يقول: أساطير الأولين اكتتبها، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

١٦- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

١٧- إقسامه عز وجل بنفسه على أنه سيسأل هؤلاء المقتسمين الذي جعلوا القرآن عضين، وغيرهم من الكفار المكذبين أجمعين، عن الذي كانوا يعملونه من تكذيب القرآن والقدح فيه وصد الناس عنه، وفي هذا ما لا يخفى من الزجر والوعيد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

١٨- تثبيت الله عز وجل له ﷺ وتقوية قلبه بأمره له بالصدع بأمره والإعراض عن المشركين وعدم المبالاة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٩- ينبغي ألا يفتّ في عضد الداعية إلى الله إعراض من أعرض عن الحق، وله في المصطفى أسوة وقدوة.

٢٠- تكفله- عز وجل- بكفايته ﷺ المستهزئين به وبما جاء به، وأنعم بها من كفاية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾.

٢١- عظم ما لقيه ﷺ من المكذبين من قومه- كما هو ديدن المكذبين قبلهم- من الاستهزاء به وبما جاء به، والمخالفة لأصل دعوته بالإشراك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٢٢- الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، للمستهزئين به ﷺ وبما جاء به من الحق، المشركين بالله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٣- طمأنته ﷺ بأن الله- عز وجل- يعلم أن صدره يضيق بما يقوله هؤلاء المستهزئون المشركون، وأن الله لن يتركه وسينصره ويظهره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

٢٤- أنه ﷺ كغيره من البشر يعتريه ما يعتريهم من ضيق الصدر، بل يحصل له أعظم من غيره، لسمو هدفه وصدق مقصده؛ ولهذا نهاه الله- عز وجل- فقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

وشتان بينه ﷺ وبين غيره في سبب ضيق الصدر، فهو ﷺ يضيق صدره بسبب كفر قومه وعدم استجابتهم له وعدم إيمانهم وإهلاكهم أنفسهم بالكفر والنار، بينما

يحصل ذلك لأكثر الخلق بسبب أمور دنيوية لا تساوي شيئاً.

وصدق المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»(١).

وقال ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

٢٥- أمره- عز وجل- وتوجيهه له ﷺ إلى الاستزادة من الغذاء الروحي المعنوي بتسبيحه عز وجل، والصلاة له، والمداومة على عبادة ربه حتى يأتيه اليقين، مما فيه سعة صدره وانشراحه، وعونه ونصره على من عاداه.

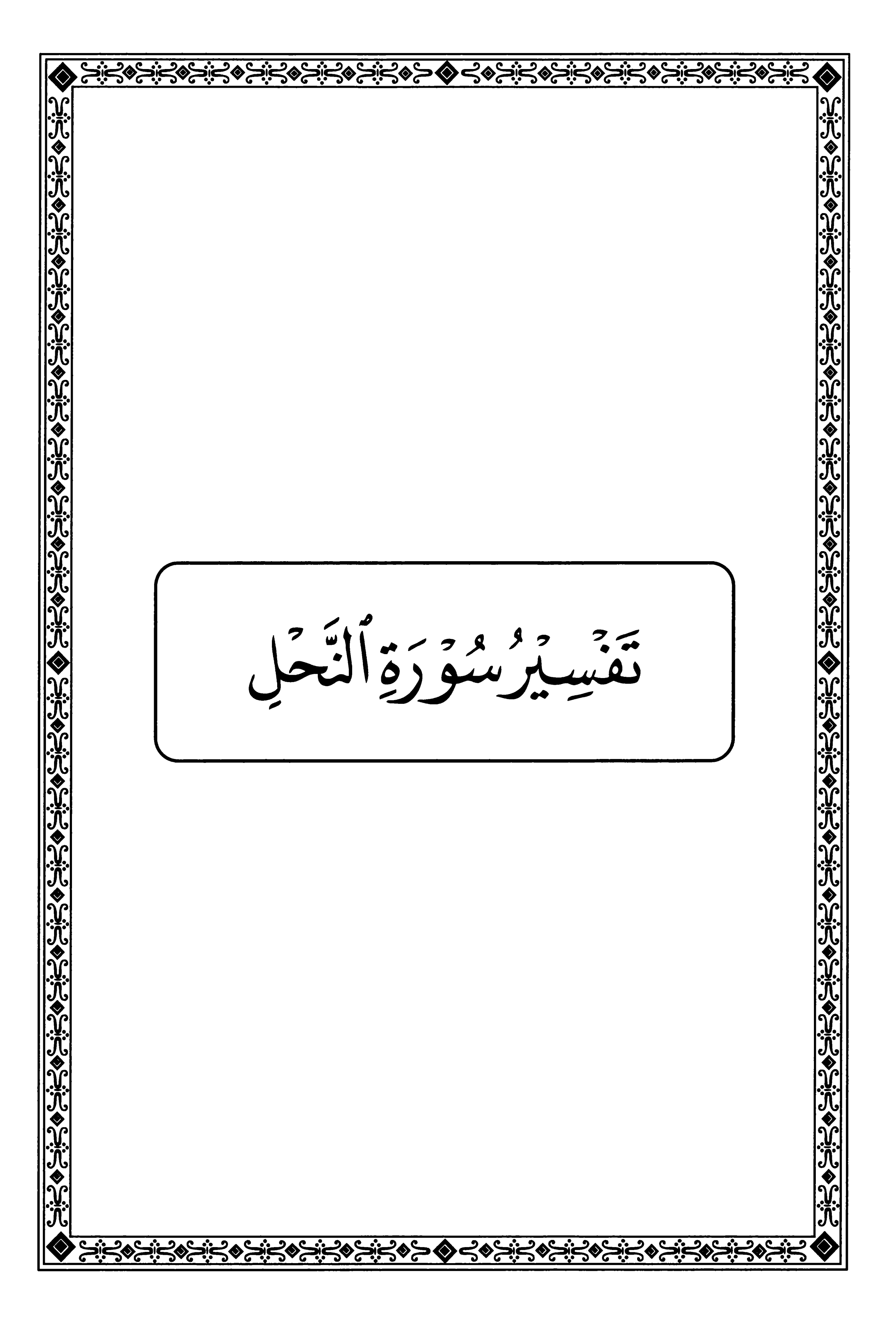
٢٦- أن العبادة كالصلاة ونحوها لا تسقط عن الإنسان ما دام عقله ثابتًا، فيصلي بحسب حاله، كما قال ﷺ: «**صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب**»(٢).

٢٧- الرد على الملاحدة وغلاة الصوفية الذين يقولون: إن المراد باليقين: المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل؛ فإن الأنبياء عليه السلام هم وأصحابهم أعرف الناس بالله وبصفاته وحقوقه، وما يجب له من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثرهم عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين الموت بإجماع المفسرين.

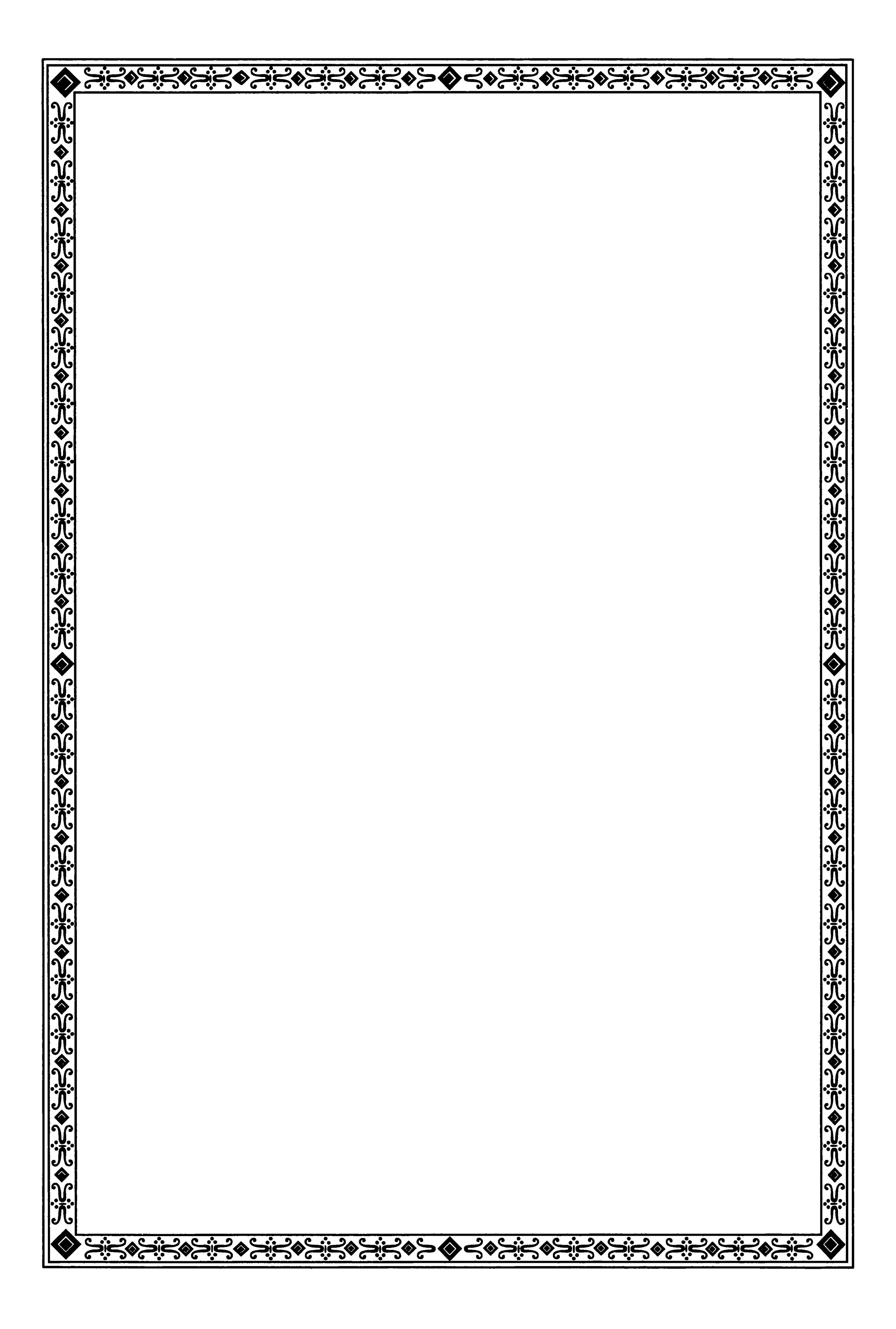
* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة- إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب- من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّحْلِ



المقدمـــة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة النحل» بهذا الاسم لذكر النحل فيها بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [الآية: ٦٨].

وتسمى أيضًا «سورة النعم»؛ لأن الله ذكر فيها عددًا من النعم التي أنعم بها على عباده، فذكر في أولها أصول النعم وفوائدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة النحل بمكة، فهي كلها مكية، وقيل: كلها مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فإنها نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد، في منصرفه ﷺ من غزوة أحد.

والروايات في أن هذا هو سبب نزولها لا تخلو من مقال، فمنها المرسل، ومنها ما فيه مبهم، ومنها ما فيه ضعف.

ج- موضوعاتها:

اهتمت سورة النحل كغيرها من السور المكية بالجوانب التالية:

أ- إثبات ربوبية الله تعالى وإلهيته ووحدانيته، وكمال عظمته وتمام قدرته، وحكمته، وسعة علمه وملكه، وسابغ نعمته.

ب- إثبات وحيه عز وجل إلى رسله وأنبيائه، وتأييده عز وجل لهم.

ج- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

د- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والثناء على أهله، ووعدهم بالجزاء العظيم في الدنيا والآخرة.

هـ- التحذير من الشرك والكفر، وذم أهله، ووعيدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وفيما يلي تفصيل لموضوعاتها:

١- افتتح الله عز وجل سورة النحل بإثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على

الأعمال، وأن ذلك آت، وكل آت قريب.

٢- تعظيم الله تعالى وتنزيهه لنفسه عن الشركاء، وإثبات وحدانيته، وامتنانه بتنزيل الملائكة: ﴿بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.

٣- إثبات دلائل كمال عظمته، وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وسابغ نعمه، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾.

٤- إثبات سعة علمه عز وجل وإحاطته بما يسرون وما يعلنون، والتنديد بما يدعوه المشركون من دونه ممن: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾.

٥- تأكيد وحدانيته عز وجل: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

٦- التنديد بالمشركين وما هم عليه من التكذيب للقرآن ووصفه بأساطير الأولين: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وتوعدهم بما حل بالذين مكروا من قبلهم من عذاب الله من حيث لا يشعرون، وما أعد لهم يوم القيامة من الخزي والتقريع، وعذاب جهنم خالدين فيها: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٧- امتداح المتقين المصدقين بما أنزل الله، وبيان ما أعد لهم من الخير والنعيم الحسي والمعنوي في دار المتقين: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

٨- تأكيد وعيد المشركين والمكذبين، وأنهم ما ينتظرون إلا إتيان الملائكة، أو إتيان أمر الله كفعل الذين من قبلهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

٩- ذكر احتجاجهم بالقدر على ما هم عليه من عبادة غير الله، كما فعل الذين من قبلهم، ولا حجة لهم في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ

فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

١٠- إقامة الحجة على الخلق في بعثه عز وجل في كل أمة رسولًا يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، واجتناب الطاغوت: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

١١- من يضلل الله فلا هادي له: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

١٢- إنكار المشركين لبعث الله الموتى، والرد عليهم بأنه وعد على الله حق: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

١٣- وعد الله عز وجل للذين هاجروا من بعد ما ظلموا أن يبوئهم: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

١٤- بيان أن الرسل من قبله ﷺ رجال مثله يوحي الله تعالى إليهم، والرد على منكري رسالته ﷺ؛ لأنه بشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴿٤٤﴾﴾.

١٥- تحذير الذين مكروا السيئات من عقوبات الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

١٦- توبيخ المشركين وتقريعهم وتقريرهم بأن يستدلوا على وحدانية الله تعالى، وبطلان ما هم عليه من الشرك بالنظر والتأمل في أن كل ما خلق الله من شيء، وكل ما في السموات وما في الأرض من دابة، كل أولئك: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾

يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾.

١٧- نهيه عز وجل عن الشرك به واتخاذ إله ثانٍ معه، وتأكيد تفرده بالإلهية، ووجوب إخلاص العبادة له وحده، وخوفه دون سواه، والاستدلال على ذلك بذكر اختصاصه عز وجل بما في السموات والأرض، وبيان أن النعم كلها منه سبحانه، وهو الذي يكشف الضر والنقم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾.

١٨- النعي على المشركين، وذمهم في جعلهم لما لا يعلمون من آلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله، افتراء على الله، وتوعدهم بأنهم سيسألون عما كانوا يفترون، وذمهم في جعلهم لله سبحانه البنات، ولهم ما يشتهون- يعني: الأبناء- وبيان شدة كراهتهم للبنات بسبب جهلهم وظلمهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝﴾.

وبيان أن للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء- أي: المثل السيئ الدون- ولله عز وجل المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم، فكيف ينسبون له الولد، بل ويخصونه بالبنات ويختارون البنين، بل وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝﴾.

١٩- بيان حلمه عز وجل وأنه لو عاجل الناس بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

٢٠- تسليته ﷺ ببيان أنه كغيره من الرسل الذين أرسلهم الله للأمم من قبله، فزين لهم الشيطان أعمالهم فكذبوا رسلهم: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾.

٢١- بيان المقصود من إنزال الكتاب عليه ﷺ، وهو أن يبين للناس: ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾، وبه حياة القلوب، كما أنزل عز وجل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها.

٢٢- بيان تمام قدرته، وواسع رحمته وعلمه، وبالغ حكمته، وسابغ نعمته وفضله، فيما يسقيهم مما في بطون الأنعام من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، وما يخرجه لهم من ثمرات النخيل والأعناب، وما يخرجه لهم من بطون النحل من شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، ففي ذلك كله آيات لقوم يعقلون ويتفكرون.

وفي خلقه إياهم وتوفيهم، ورد بعضهم إلى أرذل العمر، وتفضيل بعضهم على بعض في الرزق، وجعله لهم من أنفسهم أزواجًا، ومن أزواجهم بنين وحفدةً، ورزقهم من الطيبات؛ ليشكروا نعمته ولا يكفروها.

٢٣- ذم المشركين وتسفيههم في عبادتهم ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا ولا يستطيعون، ونهيهم عن ضرب الأمثال والأنداد والنظراء لله عز وجل، وبيان أنه عز وجل يعلم وهم لا يعلمون، وضربه عز وجل مثلين لما يعبدونه من دونه من معبودات لا تملك شيئًا مثلًا بعبد مملوك لا يقدر على شيء ومن رزقه الله منه رزقاً حسناً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٤- بيان اختصاصه عز وجل بغيب السموات والأرض، وعلم الساعة وقربها: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٢٥- سرد عدد من نعمه تعالى على الخلق، ودلائل قدرته؛ بإخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة؛ لعلهم يشكرون، وتسخيره الطير في جو السماء ما يمسكهن إلا الله، وجعله لهم من بيوتهم سكنًا، ومن جلود الأنعام بيوتًا يستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾. وجعله لهم مما خلق ظلالًا ومن الجبال أكنانًا، وجعله لهم

سرابيل تقيهم الحر، وسرابيل تقيهم بأسهم؛ ليتم نعمته عليهم لعلهم يسلمون.

ثم ختم الآيات في هذا ببيان أن الذي عليه ﷺ هو البلاغ فقط، ووعيد المكذبين الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، وأكثرهم الكافرون: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

٢٦- بيان أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر، ويأمر بالوفاء بعهده عز وجل، وينهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

٢٧- بيان أن ما عند الخلق ينفد، وما عند الله باق، ووعد الصابرين ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى بالحياة الطيبة والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة: ﴿مَا عِندَكُمْ

يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

٢٨- بيان مشروعية الاستعاذة عند قراءة القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

٢٩- بيان أنه ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

٣٠- اتهام المشركين للنبي ﷺ عندما يبدل الله آية مكان آية بالافتراء، وزعمهم إنما يعلمه بشر، ورده عز وجل عليهم، وإثبات نزول القرآن من عنده عز وجل بالحق، والدفاع عن نبيه ﷺ، وبيان أنهم هم المفترون: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٣١- الوعيد لمن كفر وارتد بعد ايمانه وشرح بالكفر صدرًا: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

٣٢- وعد الله تعالى للذين هاجروا وجاهدوا وصبروا بالمغفرة والرحمة: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ

بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

٣٣- التحذير من يوم القيامة، والحث على الاستعداد له: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

٣٤- بيان سوء عاقبة الكفر والمعاصي وكفر نعم الله تعالى، وأن ذلك سبب لسلب نعمة الأمن والطمأنينة، ورغد العيش: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

٣٥- الامتنان على العباد وأمرهم بالأكل مما رزقهم الله حلالًا طيبًا، وشكر نعمة الله عليهم، وبيان ما حرمه الله عليهم، وإباحة الأكل منه حال الضرورة: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

٣٦- نهي المشركين المكذبين عن التحليل والتحريم من عند أنفسهم كذبًا وافتراء على الله، وتوعدهم بعدم الفلاح، وبالعذاب الأليم: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

٣٧- بيان ما حرمه الله على اليهود: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

٣٨- بيان توبته عز وجل على من عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

٣٩- ثناء الله عز وجل على خليله إبراهيم عليه السلام بكونه قدوة، وبطاعته لله تعالى، وإخلاصه العبادة له تعالى، وبراءته من الشرك وأهله، وما آتاه الله في الدنيا، وما له في الآخرة، وأمر نبينا ﷺ باتباع ملته عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٤٠- بيان أنه إنها جعل السبت على الذين اختلفوا فيه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

٤١- أمره ﷺ بالدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبيان علمه سبحانه بمن ضل عن سبيله، وعلمه بالمهتدين: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

٤٢- جواز المعاقبة لمن اعتدى بمثل اعتدائه، والترغيب في الصبر بترك المعاقبة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

٤٣- ترغيبه ﷺ بالصبر على ما يلقى من تكذيب قومه وأذاهم، وعدم الحزن عليهم، والضيق من مكرهم، وبيان أنه عز وجل مع المتقين المحسنين: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ
بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا
هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ
تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ
شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾.

قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي: سيأتي أمر الله؛ بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وعبر بالماضي «أتى» لصدق المخبر به، ولتأكيد تحقق وقوعه وقربه، فهو آت لا محالة ولا بد، وكل آت قريب، كما قال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١].

قال ابن القيم «فإن «أتى» ها هنا بمعني «يأتى»، وإنما حسن فيه لفظ الماضي؛ لصدق إثبات الأمر في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه، فصار «يأتي» بمنزلة «قد أتى» ومضى»(١).

وقوله: ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي: البعث والمعاد والقيامة والحساب والجزاء للعباد بالثواب والعقاب والجنة والنار، ولم يقل «أتى أمري» ولم يقل: أتى البعث والحساب والجزاء، بل قال: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ للتعظيم والتفخيم والتهويل.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، وضمير الهاء يحتمل أن يعود

---

(١) انظر: بدائع التفسير ٣/ ٣٥.

إلى الله، أي: فلا تستعجلوا الله الإتيان بأمره، كقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ [الأنبياء: ٧٥].

ويحتمل أن يعود الضمير على ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي: فلا تستعجلوا أمر الله، فهو آت قريب، وكلاهما متلازمان، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾ [العنكبوت: ٥٣- ٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾ [الشورى: ١٨].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، أي: تنزه عز وجل، أو تنزيهًا له عز وجل.

﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: تعاظم وتقدس.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ قرأ حمزة والكسائي بتاء الخطاب: «عما تشركون» وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

و«ما» في قوله «عما»: مصدرية، أي: عن إشراكهم غيره معه، وشركهم به وعبادتهم سواه، أو موصولة، أي: عن الذين يشركون به، ويعبدون معه من الأوثان والأصنام والأنداد، وينسبون له من الصاحبة والولد، أي: عن الذي يشرك به هؤلاء المشركون المكذبون بالساعة.

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.

هذه أول نعمة ذكرها الله عز وجل في هذه السورة، وهي أعظم وأكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، وهي إنزال الملائكة بالوحي على الرسل؛ للدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وتحذيرهم من الشرك.

قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر: «يُنزِل» بالياء وتخفيف الزاي مكسورة ونصب «الملائكةَ»، وكذا روى رويس عن يعقوب، وقرأ أبو بكر عن عاصم: «تُنزَّل» بالتاء وتشديد الزاي مفتوحة، ورفع «الملائكةُ»، وهكذا روى روح عن

يعقوب، إلا أنه فتح التاء «تَنزَّل»، وقرأ الباقون: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالياء وتشديد الزاي مكسورة ونصب ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

والمعنى: يرسل الملائكة يعني: جبريل عليه السلام.

﴿بِٱلرُّوحِ﴾، أي: بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، «من» موصولة، أي: على الذي يشاء.

﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، «من» تبعيضية، أي: على بعض عباده ممن يصطفيهم ويختارهم لرسالاته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥].

﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾، «أن» تعليلية، أي: لينذروا ويحذروا، أو تفسيرية، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر، أي: بأن أنذروا، أي: بالإنذار.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، أي: بأنه لا معبود بحق ﴿إِلَّآ أَنَا۠﴾ و«إلا» أداة استثناء.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾، أي: فاتقوني بإخلاص العبادة لي، وفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾.

لما أخبر عز وجل بثبوت القيامة وقربها، ونهى عن استعجال ذلك، وامتن بأعظم منة وأكبر نعمة أنعم بها على الخلق، وهي إنزال الوحي على الرسل لدعوة الناس لتوحيده وتحذيرهم من الشرك، أتبع ذلك بذكر دلائل عظمته وتمام قدرته وسابغ نعمه، الدالة على وحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، ووجوب إخلاص العبادة له

تعالى وحده لا شريك له، والإيمان برسله وتصديق لقائه، وبدأها بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [النحل: ٣]، لأن السموات والأرض من أكبر المخلوقات وأعظم الآيات، إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ۝٨١﴾ [النحل: ٨١].

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الباء للملابسة، أي: خلق الله السموات والأرض خلقًا ملابسًا للحق والعدل والحكمة والجد، ولم يخلقهما عبثا ولا باطلًا، كما هو ظن الذين كفروا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [ص٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وإنما خلقهما للدلالة على كمال عظمته وتمام قدرته ووحدانيته، ووجوب الإيمان برسله، والتصديق بلقائه ومجازاته لخلقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ ۝٨٥﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [الجاثية: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ۝٣١﴾ [النجم٣١].

﴿تَعَٰلَىٰ﴾، أي: تعاظم وتقدس ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، أي: عن إشراكهم معه، وعن الذين يشركون بهم معه من الأنداد والأصنام والأوثان.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾.

استدل عز وجل على عظمته ووحدانيته أولًا بخلق السموات والأرض، والتي هي من أكبر المخلوقات، ثم استدل على ذلك بخلق الإنسان نفسه، وأطوار خلقه وأحواله، وما في ذلك من الدقة والحكمة والعجب.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، «ال» للجنس، أي: خلق وأوجد جنس الإنسان.

﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾، أي: من نطفة من مني الرجل ضعيفة مهينة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ

نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾ [المرسلات: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٩]،

﴿فَإِذَا هُوَ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا» فجائية، وتفيد هنا التعجيب، أي: فإذا هو بعد نعمة الله تعالى عليه بخلقه في أحسن تقويم، وكون أصل خلقه من نطفة من ماء مهين.

﴿خَصِيمٞ﴾ شديد الخصومة لربه يكفر به، ويجحد نعمه، ويجادل رسله، ويكذب بآياته؛ منكرًا قدرة الله تعالى على بعثه، ناسيًا أصل خلقه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٧٦- ٧٩]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾ [الدخان٥٤- ٥٥].

وعن بسر بن جحاش رضي الله عنه قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أنىَّ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأنّى أوان الصدقة؟»(١).

﴿مُّبِينٞ﴾، أي: بيِّن الخصومة ظاهرها.

ويحتمل أن يكون معنى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾، أي: فإذا هو بعد أن خلقه الله من نطفة لم يزل ينقله من طور إلى طور

﴿خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾، أي: متكلم مفصح عما في ضميره ومراده بالحق أو بالباطل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه مختصرًا في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة، والتبذير عند الموت (٢٧٠٧).

وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾.

لما ذكر دلائل قدرته في خلق الإنسان، ونعمته عليه، أتبع ذلك بالامتنان على العباد بما خلق لهم من الأنعام، وما لهم فيها من دفء، ومنافع من الأكل والركوب وحمل الأثقال والزينة وغير ذلك.

قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾، «الأنعام»: مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسره ما بعده، أي: وخلق الأنعام خلقها لكم.

و«الأنعام» هي: الإبل والبقر والغنم، أي: الأزواج الثمانية: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز.

وقد تطلق «الأنعام» على الإبل خاصة.

﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾، أي: أوجدها لأجلكم ولمنافعكم ومصالحكم.

﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾، أي: لكم فيها دفء من البرد، مما تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت، وغير ذلك.

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ معطوف على ﴿دِفْءٌ﴾ من عطف العام على الخاص، أي: ولكم فيها منافع كثيرة من شرب ألبانها، والحرث بها، والمتاجرة فيها، وغير ذلك.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: ومن هذه الأنعام تأكلون.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي: تتجملون فيها، أي: بمناظرها وهيئاتها ورغائها وثغائها.

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾، أي: وقت رواحها ورجوعها عشية.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي: وحين تبعثونها غدوة وبكرة إلى المرعى، وقدم الإراحة على التسريح؛ لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج، حيث تقبل ملأى البطون، حافلة الضروع، ممتدة الخواصر، عالية الأسنمة، فرحة مسرورة بالرجوع إلى مراحها وسكنها ومعاطنها ومرابضها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾.

قرأ أبو جعفر: «بشَق» بفتح الشين، وقرأ الباقون: ﴿بِشِقِّ﴾ بكسرها، والمعنى واحد، أي: وتحمل أمتعتكم وأحمالكم الثقيلة التي تعجزون عن حملها ونقلها.

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ﴾، أي: إلى بلد بعيد ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ﴾، أي: لم تكونوا قادرين على بلوغه، أي: إلى بلد لا تستطيعون بلوغه، كما في ترحالهم إلى الشام واليمن للتجارة، والترحال إلى مكة للحج والعمرة والتجارة، وغير ذلك.

﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ﴾، «إلا» أداة حصر، والباء للملابسة، والشق: المشقة والتعب الشديد، أي: إلا بمشقة وتعب شديد ونصب ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ واللام في قوله ﴿لَرَءُوفٌ﴾ للتوكيد، والمعنى: لذو رأفة بعباده، والرأفة: أشد وأخص من الرحمة.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة، أي: وإن ربكم- الذي خلق هذه الأنعام وسخرها لكم تشربون من ألبانها، وتأكلون من لحومها، وتحملون أثقالكم عليها، وتركبونها- لذو رأفة عظيمة ورحمة واسعة بعباده، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون٢١- ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر٧٩- ٨١].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس٧١- ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف١٢- ١٤].

قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

أي: وخلق الخيل والبغال والحمير وسخرها لكم. و«البغال» واحدها «بغل» وهو

ما تولد بين الحمار والفرس.

وأخّر ذكر هذه الأصناف الثلاثة وأفردها؛ لأنها دون الأنعام في كثرة منافعها، ولأن الأنعام من أفضل وأعظم ما امتن الله به على عباده.

﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تركبوها، أي: لأجل ركوبها، واكتفى بذكر ركوبها، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير محرم أكلها، ولأن الخيل لا تتخذ للأكل غالبا، بل نهى عن ذبحها لأجل الأكل؛ خوفًا من انقطاعها وانقراضها، وإلا فقد ثبت في السنة من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، ورخص في الخيل»[1].

وعن أسماء رضي الله عنها قالت: «نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن في المدينة»[2].

ولهذا ذهب جمهور أهل العلم سلفًا وخلفًا إلى حل لحوم الخيل، وهو الصحيح.

أما ما روي في حديث خالد بن الوليد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ: «نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير»[3]، كما رواه بعض أهل السنن وأحمد، فهذا لو صح لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين من حديث جابر وأسماء رضى الله عنهما.

ولم يذكر الحمل عليها؛ لأنها غالبا تستخدم للركوب لا للحمل، وبخاصة الخيل والبغال فهي تركب للغزو والصيد والأسفار، كما تركب الحمير في التنقل في القرى وشبهها.

﴿وَزِينَةً﴾ معطوف على قوله ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾، فـ«زينة» منصوبة على المفعول لأجله، أي: لأجل أن تركبوها وتتزينوا بها.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٢١٩، ومسلم في الصيد والذبائح- أكل لحوم الخيل ١٩٤١، وأبو داود في الأطعمة، أكل لحوم الخيل، ٣٧٨٨، والنسائي في الصيد والذبائح، ٤٣٢٧، وأحمد ٣/ ٣٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥١، ومسلم في الصيد- أكل لحوم الخيل ١٩٤٢، والنسائي في الضحايا ٤٤٠٦، وابن ماجه في الذبائح ٣١٩٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة- أكل لحوم الخيل ٣٧٩٠، والنسائي في الصيد- تحريم أكل لحوم الخيل ٤٣٣١، وابن ماجة في الذبائح- لحوم البغال ٣١٩٨، وأحمد ٤/ ٨٩.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: ويخلق الذي لا تعلمونه، أي: مما يكون بعد نزول القرآن، وفيما يستقبل من الزمان مما يهدي الله تعالى إليه البشر، ويلهمهم صناعته من المراكب البرية والبحرية والجوية، وغير ذلك، التي تحمل الناس والبضائع وغير ذلك، وهذا من معجزات القرآن العلمية.

ولم يذكرها تعالى في كتابه بأعيانها؛ لأنه عز وجل لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره؛ لأنه لو ذكر لهم ما لا يعرفونه، ولا يعرفون نظيره لم يعرفوا المراد به، ولربما صار لهم فتنة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧: ٢٠]، فأمرهم بالتفكر والتأمل فيما يقع تحت أنظارهم من المخلوقات؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟»(١).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

لما امتن عليهم بما خلق وسخر لهم من الأنعام والدواب مما يركبونه ويحملون عليه أثقالهم في الأسفار والطرق الصعبة، نبه على ما هو أعظم منه، وهو بيانه الطريق المعنوي الموصل إليه عز وجل.

وفي هذا عود على بدء بتذكيرهم منته الكبرى عليهم بإنزال الوحي على الرسل؛ لدعوتهم لتوحيد الله، وتحذيرهم من الشرك، وسلوك الطريق المستقيم.

قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، «القصد» استقامة الطريق، وإضافة «قصد» إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: طريق القصد والاستقامة والعدل.

والمعنى: وعلى الله بيان طريق القصد والاستقامة والحق والعدل، الموصل إليه عز وجل وإلى مرضاته وكرامته وجنته بأقرب الطرق وأخصرها، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر٤١].

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، أي: ومن السبيل جائر مائل عن الحق، لا يوصل إلى الله، وهي

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٧.

سبل الغي والضلال، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ١٥٣﴾ [الأنعام١٥٣].

﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾، أي: ولو شاء الله وأراد كونًا ﴿لَهَدَىٰكُمۡ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لوفقكم ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ توكيد لضمير الخطاب، أي: كلكم، أي: ولو شاء الله وأراد كونا لوفقكم كلكم أجمعين لسلوك سبيل القصد والاستقامة، طريق الحق والعدل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ [هود١١٨].

ومفهوم هذا أنه عز وجل لم يشأ هدايتهم جميعًا، بل شاء أن يكون منهم مهتد وضال، ومؤمن وكافر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود١١٨، ١١٩].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وأنها آتية لا محالة، وقريبة؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

٢- تعظيم أمر القيامة وشدة أهوالها وكروبها وخطوبها؛ لقوله تعالى: ﴿أمر الله﴾ دون أن يقول: أتت القيامة، ونحو ذلك.

٣- النهي عن استعجال أمر الله بالإتيان بالقيامة؛ لأنها آتية ولا بد، وقريبة، وكل آت قريب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

٤- سفه المشركين، وشدة تكذيبهم بالبعث، واستعجالهم إياه استهزاءً ومبالغة منهم بالتكذيب والكفر بالقيامة، كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾ [الشورى١٨].

٥- تسبيح الله وتنزيهه وتقديسه وتعاليه وتعاظمه عن شرك المشركين به وشركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

٦- الاستدلال على كمال عظمة الله عز وجل وحكمته وعدله ووحدانيته، ووجوب إخلاص العبادة له وحده، وتمام قدرته على الخلق بدءًا وإعادةً بخلق

السموات والأرض؛ لأنها من أكبر المخلوقات وأعظم الآيات؛ لهذا تقدم على غيرها في الاستدلال على ما ذكر، كما في هذا الموضع؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

٧- أن الله عز وجل ما خلق السموات والأرض إلا بالحق، ما خلقهما باطلًا ولا عبثًا؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ خلقهما لتوحيده وعبادته وحده، والإيمان به، وتصديق رسله، وإقامة شرعه، وليحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

٨- تأكيد تعاليه عز وجل وتعاظمه عن شرك المشركين به وشركائهم؛ لقوله عز وجل: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

٩- التدليل على كمال عظمته عز وجل، وتمام قدرته ووحدانيته ونعمته على الإنسان، وقدرته عز وجل على بعثه بخلقه من نطفة وتنقله في أطواره وأحواله العجيبة؛ ليشكر نعمة الله تعالى عليه في ذلك، وليعرف قدر نفسه، فلا يطغى ولا يتجبر ولا يتكبر؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾.

١٠- كفر كثير من بني آدم، وتجبره وتكبره، وكونه بعد نعمة الله تعالى عليه بخلقه خصيمًا مبينًا لربه، ونكرانه لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾.

١١- الامتنان على العباد بخلق الأنعام وتسخيرها لهم، وما لهم فيها من الدفء والمنافع، يشربون من ألبانها ويأكلونها ويتجملون فيها عند رواحها ومسرحها، وتحمل أثقالهم في تنقلاتهم وأسفارهم الشاقة ويركبونها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ﴾.

١٣- إثبات صفتي الرأفة والرحمة لله عز وجل، وأنه رؤوف رحيم بعباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

١٤- الامتنان على العباد بخلق الخيل والبغال والحمير؛ ليركبوها وزينه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ وإنما قدم ذكر الأنعام؛ لأنها

أفضل والانتفاع بها أكثر والامتنان بها أعظم، وقد قال ﷺ: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**»(١).

١٥- جواز التجمل والتزين بها جعله الله جمالًا وزينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ وقوله: ﴿وَزِينَةً﴾.

١٦- بيان قدرته عز وجل في خلق ما لا يعلمون من المراكب غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وفي هذا معجزة علمية، وإشارة واضحة لما مّن الله به على الخلق، وعلمهم صنعه، وأقدرهم عليه من المراكب البرية والبحرية والجوية وغير ذلك، فكل هذا داخل تحت قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

١٧- أن على الله عز وجل بيان قصد السبيل، وطريق الحق والعدل المستقيم الموصل إليه عز وجل وإلى مرضاته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٨- أن ما عدا سبيل القصد من السبل الكثيرة كلها جائرة معوجّة عن القصد، مائلة عن الحق، لا توصل إلى الله، بل توصل سالكيها إلى النار وبئس القرار.

١٩- أن الله عز وجل لو شاء وأراد كونا لهدى الناس أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩﴾ لكنه لم يشأ ذلك، بل شاء أن يكون منهم مهتد وضال، ومؤمن وكافر.

٢٠- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء من إيمان وكفر وغير ذلك.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٧٢، والنسائي في الخيل ٣٥٧٢، من حديث جرير بن عبد الله رضى الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨﴾.

دلل عز وجل على كمال عظمته وقدرته، وتمام نعمته على العباد بخلق السموات والأرض بالحق، ثم بخلق الإنسان، ثم بخلق الأنعام، ثم أتبع ذلك بالاستدلال بإنزال المطر، وما لذلك من منافع.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾.

قوله: ﴿هُوَ﴾، أي: هو الله وحده ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: ماء المطر، والمراد بـ «السماء» العلو، وليس المراد أن المطر ينزل من السموات، بل ينزل من السحاب الذي بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، «شراب» مبتدأ مؤخر، أي: لكم من هذا الماء شراب؛ حيث جعله الله عذبًا زلالًا تشربون منه، ولم يجعله ملحًا أُجاجًا لا يستساغ شربه؛ ولهذا امتن عليهم في سورة الواقعة بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ٧٠﴾ [الواقعة ٦٨ - ٧٠].

كما تشرب منه مواشيهم، وتسقى منه حروثهم.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي: ويخرج لكم ﴿مِّنْهُ﴾، أي: من هذا الماء، أي: يخرج لكم بسببه ﴿شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي: ترعون فيه أنعامكم

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «ننبت» بالنون، وقرأ الباقون ﴿يُنۢبِتُ﴾ بالياء، أي: يخرج لأجلكم بسبب هذا الماء: ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ الذي يثمر الحبوب بأنواعها التي هي قوت الإنسان.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ الذي فيه إدام الإنسان، ومنافع كثيرة.

﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ التي هي أطيب الأشجار، وثمرها أفضل الثمار ومن أهم القوت، مع ما فيه من التفكه والتلذذ والمنافع العظيمة؛ ولهذا شبه النبي صلي الله عليه وسلم بها المؤمن؛ لفضله وكثرة خيره.

﴿وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾التي هي من أفضل الفواكه، ومنافعها كثيرة رطبة ويابسة

وخص هذه الأصناف الأربعة؛ لأنها من أفضل ما تنبته الأرض من الأشجار، وثمرها من أطيب الثمار طريا أو يابسا، ومنافعها لا تحصى كثرة.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تعميم بعد تخصيص، أي: وينبت لكم بهذا المطر من كل الثمرات ما لا يحصيه ولا يحيط به إلا الله تعالى .

وكل هذه الأصناف من الأشجار مختلفة الثمار والطعوم والروائح والأشكال والألوان، مع كونها تسقى بماء واحد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ الإشارة تعود إلى إنزاله عز وجل من السماء ماء لهم منه شراب، ومنه شجر فيه يرعون أنعامهم، ينبت لهم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات، والتقدير: إن في ذلك المذكور ﴿لَأٓيَةً﴾ اللام للتوكيد، أي: لدلالة واضحة وحجة ظاهره على كمال عظمته عز وجل، وتمام قدرته وسابغ نعمته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ

قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ [النمل: ٦٠].

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: يتأملون ويعملون فكرهم في آيات الله الكونية، السماوية والأرضية، من إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها بأنواع النباتات والأشجار مختلفة الثمار وغير ذلك، فيستدلون بذلك على عظمة الله تعالى وقدرته ووحدانيته.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذا استدلال رابع وخامس على كمال عظمته وتمام قدرته، وسابغ نعمته على العباد ووحدانيته.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قرأ ابن عامر برفع الأسماء الأربعة: «والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ» وقرأ حفص بنصب الشمس والقمر ورفع النجوم ومسخرات: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾.

وقرأ الباقون بنصب الأربعة وكسر تاء «مسخرات»: «والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ».

أي: وسخر لكم الليل والنهار يتعاقبان؛ لمصالح العباد، يزيد هذا وينقص هذا، وينقص هذا ويزيد هذا، ويستويان تارة؛ كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣، الحديد: ٦] .

وقال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وسخر الشمس والقمر يدوران في فلكيهما بحساب دقيق؛ لمصالح الخلق ومنافعهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، أي: والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الكوني؛ زينةً للسماء ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات ٦ - ١٠] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦].

وكل منها يسير في فلكه بحساب دقيق، بتسخير الله عز وجل وتقديره وقهره وسلطانه وتسييره، كما قال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الآية: ٥٤]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الجملة مؤكدة كسابقتها والتي بعدها، بمؤكدين «إن»، واللام.

أي: إن في ذلك التسخير لهذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من المنافع الكثيرة والفوائد العظيمة. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، أي: لدلائل واضحات على كمال عظمة الله عز وجل، وتمام قدرته ونعمه ووحدانيته ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم ينتفعون بعقولهم في النظر والتأمل في الآيات، والاهتداء بها إلى وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾.

قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم موصول في محل نصب معطوف على «الليل»، أي: وسخر ما ذرأ لكم في الأرض من حيوان ونبات ومعادن وجماد.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾، أي: تختلف ألوانه، كما تختلف أصنافه وأشكاله ومنافعه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ⑬﴾، أي: إن في ذلك المذكور وهو ما ذرأه الله لهم ﴿لَآيَةً﴾ لدلالة عظيمة، وحجة ظاهرة على تمام قدرة الله تعالى وسابغ نعمته وسعة بره وعميم إحسانه.

﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يعتبرون بنعم الله، ويتعظون ويشكرون، ويعلمون أنه عز وجل المنعم الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑭ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑮ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ⑯﴾ [النحل: ١٤- ١٦].

هذا استدلال سادس وسابع على تمام قدرته، وواسع رحمته ونعمته ووحدانيته.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾، أي: ذلَّله ويسر للعباد ركوبه والغوص في أعماقه.

﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تأكلوا منه، و«من» ابتدائية

﴿لَحْمًا﴾ وهو ما يصطادون منه من السمك والحوت، حيًّا كان أو ميتًا، حُرُمًا كانوا أو غير حُرُم.

﴿طَرِيًّا﴾، أي: غضًّا جديدًا، غير يابس، ووصفه بالطراوة امتنانًا بذلك، وتنبيهًا إلى أنه ينبغي المبادرة إلى أكله، وأن لا يؤكل إلا طريًّا؛ لأنه إذا أخرج من البحر مات فأسرع إليه الفساد، وبتوفر وسائل التبريد والتجميد فإنه يحفظ من الفساد، لكن ما أكل منه طريًّا ألذ وأنفع.

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ﴾ السين والتاء للمبالغة والتأكيد ﴿مِنْهُ﴾، أي: من البحر، من قعره ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ الحلية: ما يتحلى به الناس، أي: يتزينون به من الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان وغير ذلك.

وغلب الذكور على الإناث في ضمير ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وإلا فإن غالب الحلية تلبسها النساء عدا الخواتيم وحلية السيف.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾، أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواري في البحر تمخر عبابه، وتشق وجه الماء بتسخير الله تعالى بجؤجئها، وهو صدرها المسنم الذي أرشد الله تعالى العباد إلى صنعته، كما علم أباهم نوحا عليه السلام أول من صنع السفن وركبها.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ اللام للتعليل، أي: ولأجل أن تبتغوا، أي: تطلبوا من فضل الله تعالى الرزق والربح الحلال؛ حيث تركبون هذه السفن في أسفاركم وتنقلاتكم، وتحملون عليها أمتعتكم وتجاراتكم وأموالكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله تعالى على ما أنعم به عليكم من تسخير البحر لكم تأكلون منه لحمًا طريًّا، وتستخرجون منه حلية تلبسونها، وتركبونه على ظهور الفلك في أسفاركم، وتحملون عليه أمتعتكم وتجاراتكم.

والمعنى: لتشكروا الله تعالى على هذه النعم باستعمالها في طاعة الله عز وجل، والاستعانة بها على ما يرضيه، ونسبتها إليه، والثناء بها عليه.

قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾، أي: وجعل في الأرض جبالا رواسي ثوابت ثبتها وأرساها بها.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ «أن» تعليلية، أي: لئلا تميد، أي: لئلا تضطرب بكم.

أي: وجعل في الأرض جبالا رواسي، ثبتها بها؛ لتقر ولا تميد، أي: ولا تضطرب بما عليها من حيوان وجماد وغير ذلك، فلا يهنأ العيش عليها، أو لا يستطاع بسبب ذلك.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾، أي: وجعل فيها، أي: في الأرض أنهارًا تجري على ظهرها من مكان إلى مكان آخر، شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، تنبع في مكان فتقطع البراري والقفار وتخترق الجبال والآكام لتصل إلى مكان وبلد آخر سخرها الله له رزقًا لأهله.

وتتشعب يمنة ويسرة، فينتفع بها كل ما مرت به من البلاد، فضلًا منه عز وجل- ورزقًا للعباد.

كما جعل في الأرض أنهارًا في بطنها تستخرج بحفرها بما أرشد عز وجل إليه العباد من الآلات والأسباب لذلك.

﴿وَسُبُلًا﴾، أي: وجعل فيها سبلًا، أي: طرقًا برية يسلكها الناس ودوابهم ومواشيهم في أسفارهم وتنقلاتهم من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى آخر، حتى إنك لتجد بعض

الجبال قد قطع ليكون ما بين قطعتيه ممرًا ومسلكا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الانبياء ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف ١٠].

قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن تهتدوا السبيل إلى البلد الذي تقصدونه، وأيضا: لعلكم تهتدون إلى الحق بالتأمل والنظر في هذه الآيات العظيمة، والنعم الجسيمة، وتستدلون بذلك على عظمة الله عز وجل ووحدانيته، فتعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا.

﴿وَعَلَامَاتٍ﴾، أي: وجعل في الأرض علامات، وهي جمع علامة، أي: وجعل في الأرض معالم ودلائل أرضية من جبال وآكام، ونحو ذلك يستدل بها على الطرق في البر والبحر نهارًا.

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: يستدلون بها في ظلام الليل في أسفارهم برًا وبحرًا، ويعرفون بها الأوقات حتى في حال إقامتهم في حضرهم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، و«من»: اسم موصول، أي: أفيكون الذي يخلق، وهو الله الخالق لجميع المخلوقات.

﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الكاف للتشبيه، و«من» موصولة، أي: كالذي لا يخلق شيئًا، وهو كل ما سوى الله من المعبودات من الأوثان والأصنام، وغير ذلك، أي: لا يستوي الذي يخلق والذي لا يخلق؛ كما قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفلا تتعظون وتعتبرون فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وملكه وتدبيره، فهو واحد في إلهيته وعبوديته.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾.

بعدما عدد لهم الكثير من نعمه تذكيرًا لهم بعظيم فضله ومنته؛ ليشكروه؛ بعبادته وحده لا شريك له، وطاعته، والاعتراف بنعمته، والثناء عليه بها- بيّن أنه لا يمكنهم إحصاء نعمته، أي: عدها عددًا مجردًا، فضلًا عن شكرها؛ لكثرتها وامتناعها عن العد والحصر، فنعمه عز وجل لا تعد ولا تحصى؛ لكثرتها، والمؤمن عاجز عن شكرها حق الشكر؛ لأن الشكر على النعمة نعمة أخرى تستوجب الشكر؛ كما قال ﷺ: «**سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

وفى هذا يقول الشاعر:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليّ بها لله يُستوجب الشكْرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضلِهِ ... وإن طالتِ الأيامُ واتصل العمْرُ(٢)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، «إن» واللام: للتوكيد، أي: إن الله لذو مغفرة واسعة لذنوب عباده، وذو رحمة واسعة بهم، ومن مغفرته لهم ورحمته بهم لم يكلفهم تعداد نعمه كلها وشكرها، ولو كلفهم بذلك لعجزوا وضعفوا، وتركوا، بل يغفر الكثير، ويتجاوز عن التقصير، ويجازي على اليسير، بمغفرته ورحمته الواسعتين.

وخالف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم؛ لأن ختام آية سورة إبراهيم جاء في سياق الوعيد بعد قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨] فكان المناسب لهم تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابًا للمؤمنين بعد تعداد نعم الله عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- نعمة الله تعالى العظيمة على العباد بإنزال المطر من السماء يشربون منه، ويرعون مواشيهم فيما يخرج منه من الأشجار، ويأكلون وينتفعون بما ينبت الله به من

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الفاضل» (ص٩٥).

الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٢- أن ما يوجد من ماء في الأرض هو مما نزل الله من السماء.

٣- أن الزرع والزيتون والنخيل والأعناب من أنفع الأقوات وأفضل النباتات؛ لهذا خصها الله بالذكر.

٤- أن في إنزاله عز وجل المطر من السماء، وما فيه من منافع عظيمة للعباد منه شرابهم، ومنه شجر أنعامهم، وينبت لهم به الأقوات والفواكه والثمرات؛ آية ودلالة للذين يُعملون فكرهم ويتأملون في آيات الله وآلائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٥- الامتنان على العباد بتسخيره عز وجل الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، وما في ذلك من المصالح والمنافع المختلفة العظيمة للإنسان والحيوان والنبات وسائر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

٦- خضوع جميع المخلوقات وانقيادها لأمر الله تعالى الكوني.

٧- أن من أعظم آيات الله الكونية: الليل والنهار وتعاقبهما، والشمس والقمر وتتابعهما، والنجوم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت ٣٧].

٨- أن في هذه الآيات العظيمة- الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم- وتسخير الله عز وجل لها دلالة عظيمة على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته، وسابغ نعمه، لقوم ذوي عقول ينتفعون بها، فتهديهم إلى تعظيم الله تعالى وشكره وعبادته وحده لا شريك له.

٩- الامتنان على العباد بما ذرأه عز وجل لهم وخلقه وبثه ونشره في الأرض من حيوان ونبات ومعادن وغير ذلك، مختلف الألوان والأشكال والمنافع وغير ذلك، وأنه

عز وجل خلق ذلك كله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

١٠- أن فيما ذرأه الله تعالى وخلقه وبثه في الأرض من مخلوقات مختلفة الألوان والأشكال والمنافع؛ دلالة على عظمته عز وجل، وتمام قدرته، وواسع عطائه ونعمته وكمال وحدانيته لقوم يتذكرون ويعتبرون بالآيات ويتعظون.

١١- فضل التفكر في آيات الله، والتعقل فيها، والاعتبار والاتعاظ بمدلولاتها، وفضل الذين يتفكرون ويعقلون ويتذكرون، وامتداحهم؛ لأنهم هم المنتفعون بالآيات، وذم من لا يتفكرون ولا يعقلون ولا يذَّكَّرون؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

١٢- نعمة الله تعالى ومنته على العباد بتسخير البحر؛ ليأكلوا من أسماكه لحمًا طريًّا، ويستخرجوا حلية يلبسونها، ويركبونه على ظهور الفلك التي تمخر عبابه وتجري على سطحه في أسفارهم وتجاراتهم؛ لطلب الرزق والفضل من الله.

١٣- في قوله تعالى: ﴿طَرِيًّا﴾ جمع بين الامتنان عليهم بذلك، والتوجيه لهم بالمبادرة بأكله قبل أن يسرع إليه الفساد، وأنه لا ينبغي أكله إذا ذهبت طراوته، ما لم يحفظ فيما يمنع وصول الفساد إليه من وسائل التبريد ونحو ذلك.

١٤- مشروعية طلب الرزق والربح والفضل من الله، وإيجاده عز وجل الأسباب الكونية المعينة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

١٥- أن الله عز وجل أنعم على عباده بسائر النعم لأجل أن يشكروه ويعبدوه وحده ويطيعوه ولا يعصوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٦- الامتنان على العباد بتثبيت الأرض بالجبال الرواسي؛ لئلا تميد وتضطرب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

١٧- نعمة الله على العباد بجعل الأنهار في الأرض تجري على ظاهرها، وفي باطنها مما يستخرجونه بها وهبهم الله من الوسائل والأسباب لذلك؛ لشربهم، وسقي حروثهم ومواشيهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.

١٨- منته عز وجل على العباد بجعل السبل البرية السالكة الواضحة التي يسلكونها في أسفارهم، يهتدون بها، وبما جعل لهم على تلك السبل من علامات، من جبال وآكام يهتدون بها نهارًا في البر والبحر، كما جعل لهم النجوم يهتدون بها ليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

١٩- لا استواء بين الرب الخالق لكل شيء، وبين من لا يخلق شيئًا، بل هو مخلوق ضعيف مملوك مدبر لله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٢٠- الإنكار المؤكد على المشركين في إشراكهم مع الله تعالى الخالق لكل شيء شركاء لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، وعدم تذكرهم واتعاظهم واعتبارهم بأن الخالق لكل شيء المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وملكه وتدبيره فهو واحد أحد في إلهيته وعبادته.

٢١- كثرة نعم الله تعالى على العباد، وأنها تجلّ عن العد والحصر، فلا يستطيع العباد عدها وإحصاءها، فضلًا عن استطاعتهم شكرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

٢٢- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٣- أن كثرة نعم الله تعالى بسبب سعة مغفرته ورحمته.

٢٤- أن التخلية قبل التحلية، لتقديم المغفرة على الرحمة؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾، «ما»: موصولة، أي: والله يعلم الذي تسرون والذي تعلنون، أو مصدرية، أي: والله يعلم إسراركم وإعلانكم.

أي: والله يعلم الذي تخفونه، وتكتمونه من الأقوال والأعمال في ضمائركم وسرائركم، وفيما بينكم، ويعلم الذي تظهرونه وتبدونه وتجهرون به من الأقوال والأعمال وغير ذلك.

وقدّم علمه بما يسرون؛ لأن السر والجهر عنده سواء، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ١٠﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ [الملك: ١٣].

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن كفر وعصى الله، وأنه

سيجازي كلًّا بعمله سرًّا كان أو جهرًا؛ لأن السر والعلانية عنده سواء.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قرأ يعقوب وعاصم بالغيب ﴿يَدۡعُونَ﴾.

وقرأ الباقون بالخطاب: «تدعون»، أي: والآلهة الذين يدعونهم المشركون ويعبدونهم من دون الله من الأصنام والأوثان.

﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾، «شيئًا»: نكرة في سياق النفي تعم أي شيء، أي: لا يخلقون أي شيء من المخلوقات، مهما كان صغيرًا أو حقيرًا، أو غير ذلك.

﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، أي: والحال أنهم يُخلقون، أي: وعلاوة على كونهم لا يخلقون شيئًا هم مخلوقون لله تعالى مملوكون مربوبون له عز وجل كغيرهم من المخلوقات.

كما قال الخليل عليه السلام: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

﴿أَمۡوَٰتٌ﴾، أي: جمادات لا أرواح فيها ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ صفة لـ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ وهي صفة سلبية تدل على كمال ضدها، أي: أموات ليس فيهم شائبة حياة بوجه من الوجوه؛ لأنهم حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، أي: ولا يدرون ولا يعلمون متى يبعثون، أي: متى تكون الساعة، وإنما الذي يعلم ذلك هو الله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ۝٢٣﴾.

قوله: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾، أي: معبودكم أيها الناس معبود واحد، لا رب لكم غيره، ولا معبود بحق سواه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ

ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾، أي: فالذين لا يصدقون بالدار الآخرة.

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾، أي: جاحدة لوحدانية الله تعالى، جاحدة للبعث والحساب والجزاء على الأعمال. كما قالوا متعجبين: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ السين والتاء للمبالغة والتأكيد، أي: مستنكفون عن عبادة الله تعالى، يأنفون من أن يعبدوه تعالى وحده؛ ولهذا توعّدهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [الآية: ١٩]، أي: حقًّا إن الله يعلم الذي يسرون، أي: الذي يخفونه ويضمرونه، والذي يعلنون، أي: والذي يجهرون به ويظهرونه، أي: يعلم سرهم وجهرهم، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم أتم الجزاء.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ وإذا كان لا يحبهم فهو يبغضهم أشد البغض، وسينتقم منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾، أي: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين المشركين المستكبرين.

﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾، «ماذا»: في هذا الموضع والذي بعده مركبة من «ما» الاستفهامية، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي أنزل ربكم.

ويجوز كون «ماذا» كلها اسم استفهام، أي: ماذا أنزل ربكم من الآيات؟

﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أساطير: جمع أسطورة، أي: حكايات الأولين وقصصهم الباطلة الكاذبة التي سطروها في كتبهم، وتناقلها الناس شفاهًا وكتابةً.

أي: إن ربنا لم ينزل شيئًا، وهذا الذي يُتلى علينا باعتبار أنه منزل من عنده ما هو إلا أساطير الأولين اكتتبها محمد، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اللام: للعاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يحملوا أوزارهم، أي: ذنوبهم وآثامهم.

ويجوز أن تكون اللام: للتعليل، ويكون المعنى: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك؛ لأجل أن يحملوا أوزارهم ﴿كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، و«كاملة» حال، أي: حال كونها كاملة يوم القيامة.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾، أي: وليحملوا من أوزار الذين يضلونهم بغير علم، و«من»: تبعيضية، أي: وبعض ذنوب الذين يضلونهم بغير علم، من غير أن ينقص من آثام الأتباع شيئًا.

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من**

الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»(١).

وقوله ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾، «بغير» جار ومجرور حال من فاعل «يضلون» أو من مفعوله، بحسب المعنى.

فيحتمل أن يكون المعنى: أن هؤلاء المضلين لعدم علمهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن المضللين إنما أوقعوا في الضلال؛ لعدم علمهم.

ولا تنافي بين الاحتمالين، فكل من الفريقين الضال والمضلل لا علم عندهم؛ ولهذا وقعوا فيما وقعوا فيه.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، «ألا» أداة تنبيه، ﴿سَآءَ﴾ فعل ماض لإنشاء الذم، أي: بئس وقبح.

﴿مَا يَزِرُونَ﴾، أي: ما يحملون من الوزر والحمل الثقيل المثقل لظهورهم: وزرهم، ووزر من أضلوهم، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾.

لما ذكر ما عليه المشركون من عبادة ما لا يخلق، والجحود لوحدانية الله تعالى، وللبعث والجزاء على الأعمال، وضلالهم وتضليلهم لغيرهم؛ توعدهم وهددهم بأن يحل بهم ما حل بالماكرين من قبلهم من العذاب العاجل من حيث لا يشعرون مع ما أعد لهم من العذاب الآجل يوم القيامة.

قوله: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، ﴿قَدۡ﴾ حرف تحقيق ﴿مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤.

قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: الذين من قبل كفار قريش من المشركين والمكذبين، أي: دبروا الكيد لرسلهم ودعوتهم، وآذوهم، فمنهم من قتلوا رسلهم، ومنهم من أخرجوهم، وكذبوا وكفروا بدعوتهم، وصدوا الناس عن اتباعهم.

كما قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ [نوح: ٢٢- ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣﴾ [الأنعام: ١٢٣].

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾، أي: اجتث بنيانهم واقتلعه من أساسه، وأبطل عملهم، وأحبطه من أصله، أي: أبطل وأحبط مكرهم الحسي والمعنوي، الفعلي والقولي، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر: ٢].

﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، أي: سقط وانهدم عليهم السقف من فوقهم لما اجتثت وقلعت قواعده من أصله وأسسه وقوله: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ تأكيد لجملة ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، أي: جاءهم من السماء العذاب والهلاك الدنيوي.

﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: من حيث لا يعلمون ولم يخطر ببالهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقد ظنوا أن ما بنوه من قصور هائلة عظيمة سيمنعهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه، وهذا من مكر الله بهم، مقابل مكرهم برسله واحتيالهم على إبطال ما جاؤوهم به من الحق، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا

بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾، أي: يفضحهم ويذلهم على رؤوس الخلائق، فيُظهر ما تنطوي عليه سرائرهم من الكفر والمكر والكيد للرسل ودعوتهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩]، أي: تُظهر وتُشهر.

وأيضًا: يخزيهم ويذلهم بإدخالهم النار، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢﴾ [آل عمران: ١٩٢].

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ قرأ نافع بكسر النون: «تشاقونِ» على حذف ياء المتكلم:، أي: تشاقونني، أي: تعادونني.

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾، أي: تخاصمون وتجادلون وتعادون. والاستفهام في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ للتهكم والتوبيخ والتقريع. والمشاقة: المشادة في الخصومة والمجادلة، أي: أين شركائي الذين كنتم تخاصمون المؤمنين وتجادلونهم في شأنهم، وتعادونهم وتحاربونهم من أجلهم وفي سبيلهم؟

أي: أين هم من نصركم اليوم وتخليصكم من العذاب؟ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل غادر لواء**(١) **يُنصب بغدرته يوم القيامة؛ يقال: هذه غدرة فلان**»(٢).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون الذين أعطوا العلم الشرعي وهو المعرفة بالله عزَّ وجلَّ، وما يجب له، وهو ما أرسل به رسوله محمدًا ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

---

(١) اللواء: الراية.

(٢) أخرجه: البخاري في الجزية ٣١٨٨، ومسلم في الجهاد، تحريم الغدر ١٧٣٥، والترمذي في السير ١٥٨١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٢.

﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ﴾، أي: الذل والإهانة ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: يوم القيامة.

﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾، أي: سوء الحساب، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ [الرعد: ١٨.

وسوء العذاب، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥﴾ [النمل: ٥].

وسوء الدار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرعد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢﴾ [غافر: ٥٢].

﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ لكفرهم ومكرهم.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ حمزة وخلف: «يتوفاهم» بالياء على التذكير في الموضعين، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «توفاهم» في الأصل: «تتوفاهم» فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني في محل جر صفة للكافرين أو بدل، ويجوز كونها مستأنفة في محل رفع.

﴿ظَالِمِيٓ﴾ حال، أي: الذين تتوفاهم الملائكة حال ظلمهم أنفسهم، أي: حال بقائهم على الكفر والشرك الذي هو أعظم الظلم.

ومعنى ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تقبض أرواحهم من أبدانهم عند الموت.

وسُمي الميت متوفى؛ لأنه استوفى رزقه وأجله وعمله. والمراد بالملائكة: ملك الموت وأعوانه، وقيل: معنى ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ تحشرهم إلى النار، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾، أي: استسلموا لأمر الله، أي: أظهروا الاستسلام والسمع والطاعة والانقياد قائلين:

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾، «ما»: نافية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة للعموم والنفي من حيث المعنى، أي: ما كنا نعمل أيّ سوء لا قليل ولا كثير.

كما في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: قال الله مكذبًا لقولهم: ﴿بَلَىٰٓ﴾، أي: بلى كنتم تعملون السوء من الشرك وغيره؛ ولهذا توعدهم بقوله:

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ﴾ الفاء: عاطفة لربط المسبب بالسبب، والأمر «ادخلوا» أمر إلزام وإكراه.

﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، «جهنم»: اسم من أسماء النار سميت به؛ لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها، وأبوابها: مداخلها، وتطلق على طبقاتها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية، لا تموتون ولا تخرجون منها؛ لأن النار على الصحيح لا تفنى ولا ينقطع عذابها، ولا يفنى أهلها.

﴿فَلَبِئْسَ﴾ الفاء: استئنافية، واللام: للتوكيد، «بئس» فعل جامد يفيد الذم، ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: مأوى ومقر المتكبرين الذين تكبروا واستنكفوا عن عبادة الله تعالى، وتعالوا وتعاظموا على عباد الله.

أي: فساء وقبح مأوى المتكبرين ومقرهم جهنم، دار الآلام والأحزان والندم والحسرات، دار الشقاء والهموم والغموم وموضع سخط الحي القيوم، كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢، غافر: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- علم الله تعالى المحيط بكل ما يُسره الخلق وما يعلنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

٢- أن السر والعلانية عنده عزَّ وجلَّ سواء؛ لهذا قدَّم قوله: ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ على قوله: ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

٣- إثبات سعة علمه عزَّ وجلَّ.

٤- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا، والوعيد لمن كفر وتكبر؛ لأن في إثبات علمه عزَّ وجلَّ بما يسرون وما يعلنون إثبات الحساب والجزاء على الأعمال.

٥- تسفيه المشركين في دعائهم وعبادتهم من دون الله آلهة ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

٦- ذم كل ما يدعوه المشركون من دون الله من الآلهة وتحقيرهم، فهم لا يخلقون شيئًا، بل هم مخلوقون لله تعالى، أمواتٌ لا حياة فيهم مطلقًا، ولا شعور؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

٧- شتان بين من يعبد الله تعالى الذي يعلم السر والعلن، الخالق، المالك المدبر، الذي بيده الخير والنفع والضر، وبين من يعبد آلهة لا تخلق شيئًا، أمواتًا وجمادات، لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

٨- إثبات وحدانية الله تعالى في ألوهيته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٩- إنكار المكذبين بالآخرة لوحدانية الله تعالى في ألوهيته، وللبعث، والحساب، والجزاء على الأعمال، واستكبارهم عن عبادته، والانقياد له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

١٠- تأكيد علمه عزَّ وجلَّ بما يسرونه وما يعلنونه تأكيدًا للوعيد؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١١- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١٢- نفي محبته عزَّ وجلَّ للمستكبرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، ومفهوم هذا إثبات محبته لغير المستكبرين.

١٣- ذم الكبر وأهله والتحذير منه.

١٤- جحود المشركين لما أنزل الله من القرآن وتكذيبهم به، واعتبارهم إياه من أساطير الأولين وحكاياتهم الكاذبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٥- إثبات العلو لله تعالى، فله سبحانه علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾.

١٦- أن القرآن الكريم منزلٌ من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

١٨- شدة عناد المشركين وعتوهم وجرأتهم بوصفهم المنزل من عند ربهم بأساطير الأولين، مع علمهم بأنه ليس كذلك، وقد أعياهم بفصاحته، وبهرتهم بلاغته.

١٩- حمل هؤلاء المستكبرين بقولهم عن القرآن أساطير الأولين أوزارهم يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢٠- أن من دعا إلى ضلالة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص من أوزارهم شيئًا، كما جاء في الحديث(١).

٢١- أن كل من ضل عن الحق وأضل عنه، فضلاله وإضلاله بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢٢- أن العلم والمعرفة بالله عزَّ وجلَّ، وما يجب له من أسباب الحفظ من الضلال مع توفيق الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٣- بئس وقبح ما يزره هؤلاء الذين جمعوا بين الضلال بأنفسهم وإضلال غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

٢٤- تهديد ووعيد المستكبرين المنكرين لوحدانية الله تعالى المكذبين للقرآن؛ بما حل بالذين مكروا من قبلهم من اقتلاع بنيانهم من أساسه، وهدم أعلاه فوقهم، وإبطال مكرهم وكيدهم، وأخذ العذاب لهم في الدنيا من حيث لا يشعرون؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٥- تهديد ووعيد أهل المكر والتكذيب والشرك بالخزي والفضيحة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، والتوبيخ والتقريع لهم؛ لإشراكهم مع الله آلهة لا تملك لهم شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾.

٢٦- أنه يجمع للكفار بين العقوبات الدنيوية والعذاب الأخروي.

٢٧- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾.

٢٨- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما حل بأهل المكر والكيد؛ لإبطال الحق ورده من الأمم السابقة، والسعيد من وُعظ بغيره.

٢٩- أنه قد يؤتى الحذر من مأمنه، ويكون هلاك المرء بما بناه بيده، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وأن العذاب يأتي بغتة وفي غرة وغفلة.

٣٠- أن الخزي يوم القيامة والسوء على الكافرين خاصة بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣١- رفعة منزلة أهل العلم، وعلو مكانتهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم؛ لتقرير مقالتهم والاستشهاد بها في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الآية.

٣٢- فضل العلم، وأنه رفعة لأهله، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

٣٣- أن الوعيد بالخزي والسوء على الكافرين الذين تقبض أرواحهم الملائكة ظالمي أنفسهم بالبقاء على الكفر والشرك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٣٤- أن مآل كل حي سوى الله عزَّ وجلَّ إلى الموت، وأن مآل الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك إلى العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٣٥- إثبات وجود الملائكة، ملَك الموت وأعوانه، وملائكة العذاب وغيرهم.

٣٦- أن من مات فقد استوفى رزقه وأجله وعمله؛ لهذا سُمي الموت وفاة.

٣٧- استسلام الكافرين الظالمين لأنفسهم لأمر الله في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾.

٣٨- إنكارهم ونفيهم أن يكونوا عملوا أي سوء؛ لقولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾.

٣٩- تكذيب إنكارهم؛ لأن الله عزَّ وجلَّ عليمٌ بالذي يعملونه، لا يخفى عليه منه شيء، ولا يستطيعون إنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٤٠- إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى؛ لقوله: ﴿عَلِيمٌۢ﴾.

٤١- التهديد والوعيد والتبكيت لهؤلاء الكافرين بأمرهم بدخول النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

٤٢- إثبات وجود نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١].

٤٣- خلود أهل النار فيها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وهو خلود أبدي كما دل القرآن على ذلك، قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾، وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

٤٤- أن نار جهنم بئس مثوى ومقر المتكبرين المستنكفين عن عبادة الله تعالى وطاعته، المتعالين على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾.

لما ذكر عزَّ وجلَّ سؤال المكذبين عما أنزل ربهم وجوابهم الباطل ومكرهم، وتوعدهم بحمل أوزارهم يوم القيامة، وأوزار الذين يضلونهم بغير علم، والخزي والسوء، ودخولهم جهنم خالدين فيها؛ أتبع ذلك بذكر سؤال المتقين عما أنزل ربهم، وجوابهم الحق عن ذلك، ووعدهم بدار المتقين جنات عدن وما فيها من ألوان النعيم.

وفي ذلك جمع بين الوعد والوعيد، والترغيب في سلوك طريق المتقين، والتحذير من سلوك طرائق المكذبين.

قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾ هذا في مقابل قوله تعالى في الكفار المكذبين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [النحل: ٢٤].

أي: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾، أي: ما الذي أنزله ربكم، وذلك؛ لمعرفة الفرق الشاسع بينهم وجوابهم، وبين المكذبين وجوابهم.

﴿قَالُواْ خَيۡرٗا﴾، أي: أنزل خيرًا، فشتان ما بين الفريقين، ويا بُعد ما بين الإجابتين،

شتان بين أهل التوفيق والإيمان، وأهل الكفر والخذلان، شتان شتان.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠]، أي: للذين أحسنوا في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله عزَّ وجلَّ، واتباعًا لرسوله ﷺ، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

﴿حَسَنَةٌ﴾، أي: رزق واسع، وعيشة هنيئة، وطمأنينة قلب وأمن وسرور وسعادة وحياة طيبة، كما قال تعال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧]، أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة؛ ولهذا يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: ولدار الآخرة خيرٌ من هذه الدنيا كلها وأحسن مما فيها من حسنة.

لأن كل ما في الدنيا من نعيم ليس بشيء بالنسبة لنعيم الآخرة، مع كونه مصحوبًا بالآفات والأكدار، لا بقاء له ولا دوام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۝١٩٨﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ٤].

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ هذا في مقابل قوله في المكذبين الكافرين: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾ [النحل: ٢٩] الواو: عاطفة، واللام: للتأكيد، «ونعم» فعل ماض جامد لإنشاء المدح.

﴿دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: الدار التي أعدها الله للذين اتقوه بفعل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾، «جنات» خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي، و«عدن» بمعنى: إقامة، أي جنات إقامة أبدية.

﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ صفة ل «جنات»، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حال من ضمير الهاء في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، أي: تجري وتسيل تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار.

كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ الجملة حالية، والضمير «لهم» للمتقين، و«ما» موصولة تفيد العموم، أي: لهم كل الذي يريدونه في هذه الجنات، فمهما أرادوا من شيء أُعطوه، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء والثواب العظيم يجزي الله ويثيب كل من اتقاه، بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ سبق الكلام عليه قريبًا.

وقدم ذكر دخولهم الجنة، وما لهم فيها؛ للعناية والاهتمام، ثم أتبعه بذكر طيب حالهم عند الاحتضار، وسلام الملائكة عليهم، وتهنئتهم، والبشارة لهم بالجنة تقديمًا للغاية على الوسيلة، وللأهم على المهم، وللثمرة على ما قبلها.

﴿طَيِّبِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم طيبين، أي: نقيين مخلصين طاهرين من الشرك والرجس والمعاصي.

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ حال من الملائكة، أي: حال كون الملائكة يحيونهم بتحية الإسلام، ويهنئونهم ويبشرونهم بالجنة قائلين لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ تحية أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤] نسأل الله تعالى من فضله.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أمر تكريم وتهنئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ

إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملونه، أو بسبب عملكم، أي: بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ذكر ما أعد للمتقين من الجنات، وما فيها من النعيم ثم عاد إلى وعيد المكذبين وتهديدهم على تماديهم بالباطل، واغترارهم بالدنيا بأن يحل بهم ما حل بمن قبلهم من الظالمين، وأن يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، «هل» حرف استفهام بمعني «ما» يفيد النفي والإنكار، أي: ما ينظرون، أي: ما ينتظرون، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء مذكرًا: «يأتيهم»، وقرأ الباقون بالتاء مؤنثًا ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾.

«إلا» أداة حصر و«أن» والفعل «تأتيهم» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ ﴿يَنظُرُونَ﴾.

أي: ما ينظرون إلا إتيان الملائكة، أي: إتيان ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم، أو إتيان الملائكة لهم بالعذاب الدنيوي.

﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على قوله ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾، أي: ما ينتظرون إلا إتيان الملائكة، أو إتيان أمر ربك بإقامة القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم بعذاب النار، أو بالعذاب الدنيوي.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: هكذا فعل الذين من قبلهم من نظرائهم المشركين، تمادوا في شركهم وضلالهم حتى ذاقوا بأس الله، وحل بهم العذاب والنكال.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ حين عذبهم؛ لأنه قد أقام عليهم الحجة، وأعذر إليهم بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: ولكنهم ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل، والكفر، والشرك، والصد عن دين الله، كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١١٨]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية: ١٠١]، وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١١٧].

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: وأحاط ونزل بهم.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: أحاط ونزل بهم الذي كانوا به يستهزئون، أو استهزاؤهم، أي: سخريتهم بالرسل وما جاؤوا به من الحق، وما توعدوهم به من العذاب، وتكذيبهم لهم، وارتكابهم السيئات.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]

الفوائد والأحكام:

١- مقابلة حال الكافرين المكذبين ومآلهم بحال المؤمنين المتقين أو العكس؛ جمعًا بين الوعد والوعيد، وليظهر الفرق الشاسع والبون الواسع بينهما حالًا ومآلًا، وشتان

بين الثرى والثريا، وبين الأرض والسماء، شتان بين المخذولين وبين الموفقين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان

٢- أن تقوى الله عز وجل سبب للهداية للحق والصواب وحسن الجواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾.

وشتان بين هذا الجواب وبين جواب المكذبين المخذولين بقولهم، لما قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾؟: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

٣- إثبات العلو لله تعالى: علو الذات، وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَۚ﴾

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، كلامه بحرف وصوت، وليس بمخلوق لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَۚ﴾.

٥- إثبات ربوية الله تعالى الخاصة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡۚ﴾ .

٦- أن القرآن خير خيرية مطلقة، ورحمة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ خَيۡرٗا﴾

٧- وعد الله عز وجل ومنحه للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، من سعة الرزق والأمن والحياة الطيبة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾

٨- الترغيب بالإحسان في هذه الحياة بالإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول صلى وسلم، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجب منها والمستحب؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦].

٩- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾.

١٠- أن دار الآخرة خير خيرية مطلقة من الدنيا وما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾.

١١- أن دار المتقين نعم الدار جنات عدن يدخلونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ .

١٢- أن الجنات لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، أي: جنات إقامة أبدية.

١٣- عظم نعيم الجنات، فالأنهار تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها، ولهم فيها ما يشاؤون من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

١٤- الترغيب في تقوى الله، لما أعده الله لمن اتقاه من الأجر والجزاء العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

١٥- حسن حال المؤمنين، وطيبها عند توفي الملائكة لهم، وتسليم الملائكة عليهم، وبشارتهم لهم، وتهنئتهم بدخول الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

١٦- أن الموت غاية كل حي، سوى الحي القيوم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾

١٧- إثبات وجود الملائكة: ملك الموت وأعوانه، وملائكة الرحمة وغيرهم؛ لقوله تعالى ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقوله: ﴿تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

١٨- أن من مات فقد استوفى رزقه وأجله وعمله؛ لهذا سمي متوفى.

١٩- أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس ثمنًا وعوضًا عن دخولها؛ لأنه لا أحد يُدخله عمله الجنة، وإنما العمل مجرد سبب لذلك، ودخولها إنما هو برحمة أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عمله الجنة.** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا**»[(١)].

٢٠- الإنكار على الكفار والمكذبين تماديهم بالباطل، وتهديدهم، وأنهم ما ينتظرون إلا الموت وأخذهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦.

يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ .

٢١- إثبات ربوية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٢- اتباع المكذبين والكفار في التمادي بالباطل فعل الذين من قبلهم من الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢٣- أن الله عز وجل ما ظلم هؤلاء حين عذبهم في الدنيا وتوعدهم بعذاب الآخرة، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، فأوقعوها في العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٢٤- أخذ الظالمين بسيئات كسبهم، وإحاطة استهزائهم بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ
نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى
ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ
لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩ إِنَّمَا
قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ
لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ
وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

لما توعد المشركين وهددهم أن يحل بهم ما حل بالظالمين من قبلهم أتبع ذلك بذكر احتجاجهم على شركهم بالقدر، كما فعل الذين من قبلهم مما لا حجة لهم فيه.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ من أهل مكة مغترين بما هم عليه من الشرك، ومحتجين عليه بالقدر: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: لو أراد الله كونًا.

﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ جملة جواب الشرط «لو»، أي: ما عبدنا غيره،

و«من» في قوله: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعني، أي: لو شاء الله وأراد كونا ما عبدنا من دونه أيّ شيء، أي: ما عبدنا غيره شيئا من المعبودات، من الأصنام والأوثان وغير ذلك.

﴿نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، أي: ولا عبد آباؤنا غيره شيئًا، ومفهوم قولهم هذا: أن الله شاء ذلك منهم وأحبه.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ نحن ولا آباؤنا ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، أي: من دون تحريمه ﴿مِن شَيْءٍ﴾، أي: أيّ شيء كان، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما حرموه من عند أنفسهم، كما قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ومرادهم: أن ما حصل منا ومن آبائنا من عبادة غيره، ومن تحريم ما لم يحرمه قد شاءه الله وأحبه، أي: أنه لو كان كارهًا لما فعلنا، ولما مكننا منه، ولأنكره علينا وعاقبنا عليه، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الآية: ١٤٨].

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: مثل فعل هؤلاء المشركين في إشراكهم بالله تعالى، وتحريمهم ما لم يحرمه الله، واحتجاجهم بالقدر؛ فعل المشركون من الأمم قبلهم، وقد أهلكهم الله، وعاقبهم أشد العقاب، فلو كان في القدر حجة ومعذرة لهم، ودلالة على محبة الله تعالى لفعلهم؛ لما عاقبهم عليه.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، «هل» حرف استفهام بمعنى النفي «إلا» أداة حصر، أي: ما على الرسل إلا البلاغ المبين. والبلاغ: الإيصال، أي: ما على الرسل إلا إبلاغ وإيصال رسالات ربهم إلى أممهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿ٱلْمُبِينُ﴾صفة لـ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾، أي: البلاغ البين الواضح الصريح في نفسه، المبين للهدى من الضلال وللحق من الباطل.

ومن أعظم الضلال وأبطل الباطل، الذي نهى عنه الرسل أشد النهي، وبينوا شدة

حرمته والوعيد الشديد عليه: الإشراك بالله، وتحريم ما لم يحرمه.

والمعنى: أن هؤلاء المشركين وأمثالهم من مشركي الأمم قبلهم قد قامت عليهم الحجة، وبلغتهم الرسل البلاغ المبين، بأمرهم إياهم بعبادة الله تعالى وحده، ونهيهم عن الشرك، فكيف يحتجون بالقدر على شركهم وتحريمهم ما لم يحرمه الله.

ولماذا لم يؤمنوا بالله ويوحدوه، ويحرموا ما حرمه، ويحتجون على ذلك بالقدر، فالقدر لا حجة فيه لأحد، لأن كل ما يجري ويحصل من إيمان وكفر هو بمشيئة الله تعالى، ولا يمكن أن يجري شيء في الكون إلا بمشيئته عز وجل وتقديره الكوني.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد بعثنا، أي: أرسلنا ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٖ﴾ من الأمم ﴿رَّسُولًا﴾ من لدن قوم نوح إلى أمة محمد ﷺ.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ﴾، «أن» تفسيرية، أي: قلنا لهم اعبدوا الله وحده، ويجوز كونها مصدرية، أي: بأن اعبدوا الله.

﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله، أي: كل ما عبد من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾، أي: فمنهم الذين وفقهم الله فاتبعوا المرسلين قولًا وعملًا.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، أي: ومنهم الذين وجبت عليهم الضلالة

فتنكبوا سبيل الهدى، واتبعوا سبل الغي والردى.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأبدانكم.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾ بأبصاركم وتفكروا بعقولكم وبصائركم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: كيف كانت عاقبة المكذبين السيئة، ونهايتهم الوخيمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]، وقاله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء المكذبين من قومك، وتجتهد وتلح في ذلك.

والحرص: فرط الإرادة الملحة في تحصيل المراد بالسعي في أسبابه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وخلف: ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياء وكسر الدال، وقرأ الباقون: «يُهدَى» بضم الياء وفتح الدال، وألف بعدها: «يُهدَى».

والفاء، تعليلية، و«من» موصولة، أي: فإن الله لا يوفق الذي كتب عليه الضلال، وحقت عليه كلمة العذاب، أي: فلا تستطيع أنت ولا غيرك هدايته مهما حرصت وفعلت كل سبب، أي: إن تحرص على هداهم لا ينفعهم ذلك؛ لأن الله لا يهدي من يضل، قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

وقال نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ

كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ٩٧].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، أي: وما لهؤلاء المكذبين الضالين من ناصرين ينصرونهم، فيدفعون عنهم عذاب الله وعقابه؛ لأنه عز وجل لا يغالب ولا يمانع، وعذابه لا يدافع، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ [الطور: ٧، ٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ذكر عز وجل احتجاج المشركين المكذبين بالقدر على ما هم عليه من الشرك بالله والتحريم من دونه، وأبطل ذلك، ثم ذكر إقسامهم بالله الأيمان المغلظة على نفي البعث.

قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي: وحلف هؤلاء المشركون بالله ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، أي: غاية أيمانهم، أي: الأيمان المغلظة المؤكدة المشددة.

﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: حلفوا على أن الله لا يبعث الذي يموت من الخلق، أي: أقسموا على تكذيب وإنكار ما أخبر الله تعالى به في كتبه وعلى ألسنة رسله من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وأنكروا قدرة الله تعالى على ذلك.

﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، «بلى»: حرف جواب لإيجاب المنفي، أي: بلى يبعثهم ﴿وَعۡدًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وعد ذلك وعدًا ﴿حَقّٗا﴾ صفة لـ«وعدًا» أو مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: حق حقًّا.

أي: بلى يبعث الله الذي يموت ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، أي: وعدًا عليه عز وجل محققًا لا بد منه لا يغيره ولا يبدله، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩] وقال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

وأمر عز وجل نبيه ﷺ أن يقسم على ذلك فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ولهذا وقع أكثرهم في الشرك والكفر وتكذيب الرسل وإنكار البعث بسبب جهلهم وعدم علمهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧، الرعد: ١، غافر: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾.

قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يبين لهم الذي يختلفون فيه، أي: بلى إن البعث حق، لأجل أن يبين عز وجل للناس الذي يختلفون فيه من مسائل البعث والحساب والجزاء على الأعمال وغير ذلك من مسائل الدين، ويظهر ذلك على الحقيقة عندما يجازى كل بما عمل، كما قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ معطوف على «ليبين».

أي: ولأجل أن يعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين في إقسامهم وحلفهم: لا يبعث الله من يموت، فيندموا، ولات ساعة مندم، وتكون أعمالهم حسرات عليهم، ويدفعون بشدة إلى النار ويقال لهم تبكيتا وتقريعًا: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٤- ١٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾.

بعدما ذكر إنكار المشركين للبعث، وإقسامهم علي ذلك، ونفيهم قدرة الله عليه، وأبطل قولهم، وبين أن البعث حق، وبين الحكمة فيه أتبع ذلك بيان تمام قدرته على ذلك وعلى كل شيء، وأنه إذا أراد شيئًا إنما يقول له كن فيكون.

﴿إِنَّمَا﴾، أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة.

قوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي: «فيكون» بالنصب عطفا على «نقول»، وقرأ الباقون: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرفع، أي: «فهو يكون».

والمعني: ما قولنا لشيء إذا أردناه من البعث وغير ذلك، إلا أن نقول له مرة واحدة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ، أي: أننا لا نحتاج إلى تأكيد وتكرار أمرنا بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ [لقمان ٢٨] وذلك، لأن له عز وجل الخلق والأمر والسلطان والقهر، فأمره نافذ لا يخالف ولا يمانع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس ٨٢] وقال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران ٤٧].

قال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما ... يقول له "كن" قولةً فيكون

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾.

لما توعد المشركين على شركهم وتحريمهم مالم يحرمه الله، واحتجاجهم بالقدر، وإنكارهم البعث وإقسامهم على ذلك، ورد عليهم في ذلك كله، أتبع ذلك بذكر ما أعده للمهاجرين فيه من التوفيق والتيسير في الدنيا والأجر في الآخرة، جزاء صبرهم وتوكلهم على ربهم.

قال ابن كثير[1]: «يحتمل أن يكون سبب نزول هذ الآية الكريمة مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة؛ ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم، وجعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم

(١) في تفسيره: ٤/ ٤٩١.

وقد فعل، فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَٰاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ الآية».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَٰاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ ، أي: في سبيل الله وابتغاء مرضاته؛ ليتمكنوا من إقامة شعائر دينهم.

والهجرة لغة: الترك، وشرعا: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾، «ما» مصدرية، أي: من بعد ظلمهم، أي: من بعد ظلم المشركين لهم بالأذية والتعذيب لهم؛ ليفتنوهم ويردوهم عن دينهم إلى الكفر والشرك، فهاجروا، فتركوا من أجل ذلك الأهل والأوطان والأحباب والجيران؛ ابتغاء مرضاة الملك الديان.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: لنبوئنهم تبوئة حسنة، أو لننزلنهم دارًا حسنة، ولنمنحنهم بعد الضيق سعة في الأرض والرزق، وسعة في الصدر، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ ١٠٠﴾ [النساء١٠٠]، أي: ما يرغم به أنوف أعدائه من الخير والتمكين والسعة؛ لأن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرًا منه.

وهكذا حصل للنبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه في هجرتهم إلى المدينة، فإن الله سخر لهم الأنصار آووهم وقاسموهم أموالهم وناصروهم، حتي مكن لهم الله في البلاد، وصاروا أئمة وحكامًا على العباد.

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ الواو عاطفة، واللام لام الابتداء للتوكيد، أي: ولأجر الآخرة وثوابها أكبر من عطاء الدنيا وحسنتها؛ لأن الدنيا كلها وما فيها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فهي قليل، ومتاع قليل بالنسبة للآخرة.

وقد جمع الله للمهاجرين في سبيله بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، كما هو مطلب المؤمنين في دعائهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة٢٠١].

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة يعلمون عظم ما ادخر

الله من الجزاء الحسن في الدنيا والأجر والثواب العظيم في الآخرة، ما تخلف أحد منهم عن الهجرة.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ امتداح للمهاجرين على صبرهم وتوكلهم على ربهم؛ ولهذا فازوا بخيري الدنيا والآخرة، أي: الذين صبروا على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، فأسلموا وأظهروا إسلامهم طاعة لله، وصبروا على الأذى والتعذيب من قومهم قبل تمكنهم من الهجرة، وعلى مرارة الخروج من ديارهم وأوطانهم، ومفارقة أهليهم وأولادهم وخلانهم؛ ابتغاء مرضاة الله.

وليس هذا بالأمر السهل، بل هذا من أشد ما يكون على النفوس.

فما أشد مرارة البعد عن الأوطان، ومفارقة الأهل والأولاد والصحب والجيران، خصوصًا إذا كان قسريا، وقد كان من مكر المشركين بالنبي ﷺ محاولتهم طرده وإخراجه بالقوة من مكة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۝٣٠﴾ [الأنفال ٣٠].

وقد ضيقوا عليه وعلى دعوته وأصحابه حتى اضطروه للخروج من مكة إلى المدينة، وقد وقف ﷺ على الحَزْوَرَة يخاطب مكة ويقول: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»(١).

كيف وإذا كان الوطن يحتضن مكة والمدينة اللتين فيهما أعظم المقدسات الكعبة، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، اللذين تهفو إليهما قلوب المسلمين في شتى بقاع الأرض.

وقد قال ﷺ: «**من أصبح آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(٢).

وما حال الإنسان بلا بيت يستره، ووطن يؤويه، إنه أشبه حالًا بالعريان والشريد

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٢٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد٤١٤١ .من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه رضي الله عنه وكان له صحبة. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

الطريد، وقد أحسن القائل:

ولي وطـــن آليـــت ألا أبيعـــه   وألّا أرى غـيري لـه الـدهرَ مالكَـا
عمـرت بـه شرخ الشـباب مـنعما   بصـحبة قـوم أصـبحوا في ظلالكـا
وحبَّـب أوطـانَ الرجـال إلـيهم   مـآربُ قضّـاها الشـباب هنالكـا
إذا ذَكـــروا أوطـــانهم ذكَّـــرتهمُ   عهـودَ الصبا فيهـا فحنـوا لـذلكا(١)

والصبر بأقسامه الثلاثة من أعظم وأفضل الأعمال، بل وأوجبها، وهو من أجل صفات أولي العزم من الرسل؛ ولهذا أمر الله به رسوله ﷺ والمؤمنين، فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان١٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وبشر عز وجل الصابرين، ووعدهم بالأجر العظيم، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة١٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر١٠].

وقال ﷺ في حديثه لابن عباس رضي الله عنهما: «وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»(٢).

وقال ﷺ: «وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»(٣).

وقد أحسن القائل:

اصـــبر لكـــل مصـــيبة وتجلـــدِ   واعلـــم بـــأن المـــرء غـــير مخلـــد
واصـبر كـما صـبر الكـرام فإنهـا   نُـوَبٌ تنـوب الآن تُفْـرج مـن غـدِ
وإذا أصـبت مصـيبة تشـجى بهـا   فـاجبر مصـابك بـالنبي محمـد(٤)

---

(١) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» (٥/ ١٨٢٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦٩، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣، وأبو داوود في الزكاة ١٦٤٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٤، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) الأبيات تنسب لأبي العتاهية مع اختلاف فيها. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص١٠٢)، «موسوعة الشعر الإسلامي» (٥/ ٨٦).

وقال الآخر:

صبرت على بعض الأذى خوف كله ... وجاهدت عن نفسي- بنفسي فقرَّتِ
وجرعتها المكروه حتى تدربت ... ولو لم أجرعها إذن لاشمأزت
إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى ... إلى غير من قال اشتكوا لي فشلت[1]

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: وعلى ربهم وحده، خالقهم ومالكهم ومدبرهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يعتمدون ويفوضون أمورهم إليه وحده، واثقين بعونه ونصره وجعله العاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

وهاتان الصفتان- الصبر، والتوكل على الله- هما ملاك نجح المطالب، ونيل المآرب في جميع الأمور الدينية والدنيوية، فمن صبر ظفر وقدر، ومن توكل على الله كفاه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ﴾.

٢- احتجاج المشركين واعتذارهم عن شركهم، وتحريمهم ما لم يحرمه الله هم وآباؤهم بالقدر، مما لا حجة ولا عذر لهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾.

٣- اعتراف المشركين بشركهم، وتحريمهم ما لم يحرمه الله.

٤- تقليدهم لآبائهم تقليدًا أعمى على جهل وضلال في شركهم، وتحريمهم ما لم يحرمه الله.

٥- ينبغي الحذر من التقليد الأعمى والتعصب للآباء، أو لغيرهم من الأحزاب والجماعات على غير هدى، فإن ذلك مزلة قدم، وخطر في الدين.

٦- اتباع المشركين المكذبين من هذه الأمة ما فعله الذين من قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقد قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا**

(١) الأبيات تنسب للفيروزابادي مع اختلاف فيها. انظر: «الحياة الأولى» (ديوان شعر) (ص١٧)، «الشكوى والعتاب» (ص٥).

بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»(١)

٧- أن وظيفة الرسل ومهمتهم بالنسبة لأقوامهم هي إبلاغهم إياهم رسالات ربهم البلاغ البين الواضح؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتعريض بالمشركين من قومه.

٨- التسجيل على المشركين فيما فعلوا من الشرك وغيره؛ أنهم بذلك خالفوا ما بلغتهم به رسلهم من البلاغ المبين، وفي هذا إبطال لحجتهم، وقطع لعذرهم، وشهادة للرسل بإبلاغهم إياهم البلاغ المبين.

٩- إقامة الحجة على جميع الأمم ببعثه عز وجل في كل أمة رسولًا يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، واجتناب الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

١٠- أن أصل دعوة الرسل كلهم وأساسها التوحيد، أي: الأمر بعبادة الله تعالى وحده، والنهي عن الشرك.

١١- انقسام الناس أمام دعوة الرسل إلى قسمين، فمنهم من هداه الله، أي: وفقه فآمن واتبع الرسل، ومنهم من وجبت عليه الضلالة، فكفر وخالف الرسل وكذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

١٢- أن الهداية والإضلال بيد الله، فمن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

١٣- ينبغي السير في الأرض والنظر والتفكر كيف كانت عاقبة المكذبين السيئة ونهايتهم الأليمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

١٤- أن السعيد من وعظ بغيره.

١٥- أن من شكر الله تعالى على ما جعله للإنسان من الجوارح من البصر والعقل

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٣٢٠، ومسلم في العلم ٢٦٦٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وغير ذلك؛ الانتفاع فيها في السير في الأرض، والنظر والتفكر في آثار عقوبات المكذبين، وغير ذلك.

١٦- حرصه ﷺ على هداية المكذبين من قومه مع ما يلقاه منهم من الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾.

١٧- التيئيس من هداية من كتب الله عليهم الضلالة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾.

١٨- أنه لا ناصر للضالين يدفع عنهم عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

١٩- إقسام المشركين وحلفهم بالله الأيمان المؤكدة المغلظة على إنكار البعث، ونفي قدرة الله تعالى عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

٢٠- إثبات البعث، وأنه وعد على الله حق، وإبطال إنكار المشركين له؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾.

٢١- أن أكثر الناس لا يعلمون؛ ولهذا وقعوا بسبب جهلهم وعدم علمهم بالشرك والكفر وتكذيب الرسل وإنكار البعث فلا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢٢- أن الحكمة من بعث الناس بيان الذي يختلفون فيه؛ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وليجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾.

٢٣- بيان تمام قدرته عز وجل على البعث، وعلى كل شيء إذا أراده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

٢٤- ظلم المشركين للمسلمين في مكة، وأذيتهم لهم، وتضييقهم عليهم؛ مما اضطرهم إلى الهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴿٤١﴾﴾.

٢٥- وعد الله تعالى للمهاجرين في سبيله في الدنيا حسنة، أي: وطنا يسكنونه،

وسعة في الأرض والرزق، وسعة في الصدر، وغير ذلك، مع ما أعد لهم في الآخرة من الأجر الذي هو أكبر وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾.

٢٦- فضيلة الهجرة في سبيل الله؛ لعظم ما وعد الله به المهاجرين فيه من حسنة الدنيا والأجر الأكبر في الآخرة.

٢٧- أنه لو علم المتخلفون عن الهجرة عظم ما للمهاجر في سبيله من الجزاء الحسن في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة؛ ما تخلف عنها منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

٢٨- امتداح المهاجرين، والثناء عليهم بالصبر؛ لصبرهم على طاعته، وعن معصيته، وعلى ما لقوا في سبيل ذلك من الأذى قبل هجرتهم، ومن العناء بعد هجرتهم، وعلى توكلهم على ربهم، وتمام ثقتهم بوعده وعونه ونصره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٢٩- أن الهجرة لا تتحقق بدون الصبر والتوكل على الله، فهما أمران لازمان لها ولكل عمل صالح جليل، كالصلاة والجهاد والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك.

٣٠- أن التذرع بالصبر، والتوكل على الله مع تمام الثقة به هما ملاك الأمور كلها، وهما العدة بعد توفيق الله في نُجح المطالب، ونيل المآرب.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ ٤٢﴾.

٣٢- وجوب الصبر والتوكل على الله تعالى وحده.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وما أرسلنا من قبلك يا محمد.

﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا رجالًا وبشرًا مثلك، ليسوا ملائكة.

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فلست بدعًا من الرسل، كما قال تعالى له: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] وصيغة القصر لقلب اعتقاد المشركين وقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، أي: نلقي الوحي إليهم. والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، وشرعًا: هو كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

كما قال تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿فَسْأَلُوا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والأمر للمشركين المكذبين للنبي ﷺ، المنكرين أن يكون الرسول بشرًا، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢].

وكما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]

أي: إن شككتم أن الرسل إنما هم من البشر ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾

كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

و﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ هنا هم أهل الكتاب، والذكر هنا التوراة والإنجيل.

وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين من السلف، ومن بعدهم، قال ابن القيم: «والذكر هنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ، وهما التوراة والإنجيل»(١).

أي: فسألوا أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى: أبشر كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة، فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشرًا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، أي: ليسوا ملائكة وليسوا نساءً، بل رجالًا كاملين.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].

وقال تعالى آمرًا للنبي ﷺ لما طلب منه المشركون ما لا يستطيعه البشر: ﴿قُلْ

(١) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٣٨.

سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن الرسل كلهم رجال من البشر، وفي هذا إيماء إلى أنهم في الحقيقة يعلمون ذلك، لكنهم يريدون المكابرة والتمويه لتضليل العامة والدهماء من الناس، سنن المكذبين قبلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ متعلق بـ﴿نُّوحِىٓ﴾ أو بمحذوف تقديره: أرسلناهم بالبينات.

والباء في قوله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ للمصاحبة، أي: مصحوبين بالبينات والزبر، أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين القاطعات والدلائل العقلية والمعجزات.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، أي: اللوح المحفوظ.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلذِّكْرَ﴾، أي: القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وسمي القرآن بـ«الذكر»؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد في أمور دينهم ودنياهم، وأعظم ذلك وأجله: تذكيرهم بربهم، وما يجب عليهم من عبادته وحده لا شريك له.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تبين للناس، أي: تفصل لهم وتوضح.

﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، «ما» موصولة، أي: لتبين للناس الذي نزل إليهم من القرآن والسنة، ببيان ألفاظ القرآن والسنة ومعانيهما وأحكامهما، وبيان ما أجمل في القرآن بما جاء في السنة من التفصيل والبيان.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الجملة معطوفة على مقدر، أي: فيسمعون ذلك، ولعلهم يتفكرون، و«لعل» للتعليل، أي: ولأجل أن يتفكروا ويتدبروا فيما أنزل إليهم من

الآيات الشرعية، وفيما دعوا فيها للتفكر والتأمل فيه من الآيات الكونية في السموات والأرض وفي أنفسهم، فيهتدون إلى الحق، فيفوزون بالسعادة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾.

قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار.

﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: المشركون الذين ارتكبوا السيئات، وعملوا الأعمال السيئة.

وأصل المكر: التدبير بخفية، والمراد به هنا ما هو أعم من ذلك، فيشمل ما كان من السيئات خفية أو غير خفية.

﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول للفعل «أمن»، أي: أفأمن الذين مكروا السيئات خسف الله الأرض بهم، أي: جعلها تبتلعهم وتغيبهم فيها، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الآية: ١٦].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، «أو» عاطفة في المواضع الثلاثة، أي: من حيث لا يشعرون بمجيئه، ومن حيث لا يعلمون، أي: حال غفلتهم بنوم أو لعب أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧].

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ﴾ الله، أو العذاب ﴿فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾، أي: في حال تقلبهم، أي: حال سعيهم وتصرفهم في أعمالهم، وفي أمور حياتهم ومعاشهم وتنقلاتهم وأسفارهم من أجل ذلك.

والمراد بقوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾، أي: أو يأخذهم حال انشغالهم في تقلبهم وحال كون العذاب لم يخطر ببالهم، فيكون على هذا قريبًا من قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وقد يكون المراد عكس ذلك، أي: أو يأخذهم حال حركتهم وعملهم جهارًا نهارًا، فيكون على هذا في مقابل قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: فما هم بمعجزين الله على أي حال كانوا عليه؛ لأنهم في قبضته ونواصيهم بيده، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢]

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، أي: أو يأخذهم العذاب ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، أي: في حال تخوف. والتَّخوُّف في اللغة يأتي مصدر «تخوّف» اللازم بمعنى «خاف»، ومصدر «تخوّف» المتعدي بمعنى «تنقص».

فعلى اعتباره من اللازم يكون المعنى: أو يأخذهم وهم في حالة تخوّف، أي: في حالة توقع نزول العذاب بأن يريهم مقدماته، مثل الرعد قبل الصواعق.

وعلى اعتباره بمعنى «تنقص» يكون المعنى: أو يأخذهم في حالة تنقص من قبل، بأن يتنقصهم قبل الأخذ بأن يكثر فيهم الموتان والفقر والقحط.

والمعنيان متقاربان؛ لأن التنقص الواقع فيهم قبل الأخذ مما يخيفهم أشبه بمقدمات العذاب، وأخذهم على تخوف قد يكون أشد وأعظم.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، «إن» واللام: للتوكيد، أي: فإن ربكم أيها الخلق، ﴿لَرَءُوفٞ﴾، أي: لذو رأفة بعباده، والرأفة: أشد وأخص من الرحمة.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة بخلقه، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام: ١٤٧] ولرأفته عز وجل وواسع رحمته لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهلهم ولا يهملهم، كما قال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ

ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «أولم تروا»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾.

والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أولم ير المكذبون المنكرون لوحدانية الله تعالى.

﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾، «ما» موصولة، أي: أولم ينظروا إلى الذي خلق الله من كل شيء مما له جسم وظل.

﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «تتفيؤ» بالتاء على التأنيث، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾، ومعنى ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾، أي: يميل ظلاله.

والتفيّؤُ: تفَعّل من فاء الظل فيئًا، أي: رجع شيئًا فشيئًا، يقال: فاء الظل، أي: رجع من جهة إلى أخرى، أو من جهة الشرق إلى جهة الغرب.

وقد اختلف في «الفيء» فقيل: هو مطلق الظل سواءً كان قبل الزوال أو بعده، وهو الموافق لمعنى الآية، وقيل: الفيء: ما كان بعد الزوال، وما قبله فهو ظل، وقيل غير ذلك.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، أي: يميل ظلاله ذات اليمين وذات الشمال، أي: جهة اليمين وجهة الشمال، أي: جهة المشرق والمغرب.

و«اليمين» بمعنى الأيمان، فهو مفرد قائم مقام الجمع؛ ولهذا جاء في مقابلة «الشمائل» وهي جمع «شمال».

﴿سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾، «سجدًا» جمع تكسير «ساجد»، وهي حال، أي: حال كونهم سجدًا لله تعالى سجود انقياد لأمره وتدبيره وقهره، وسجود تعظيم وعبادة، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥]

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: وهم ذليلون خاضعون لعظمة الله تعالى تحت تسخيره وتدبيره وقهره.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝﴾

قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ولله وحده يسجد جميع الذي في السموات والذي في الأرض.

﴿مِن دَابَّةٍ﴾، أي: من كل ما يدب عليها من إنس وجن وحيوان، وطير وحشرات وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥]

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ معطوف على «ما» في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، أي: والملائكة له يسجدون، وخصهم بعد العموم؛ لشرفهم وفضلهم وكثرة عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الجملة: حالية، و«السين والتاء» للمبالغة والتأكيد، أي: وهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، أي: لا يستنكفون أن يكونوا عبيدًا لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وهذه السجدة ثالث سجدات القرآن، وهي موضع سجود بالاتفاق.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ الجملة حالية، أي: جمعوا بين تعظيم الله عز وجل بالسجود والخضوع والذل له، وتعظيمه بالخوف منه والإقرار بفوقيته وعلوه عليهم بذاته وقهره وأمره.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، أي: ويفعلون الذي يأمرهم الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩﴾ [فصلت: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾.

قوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، أي: لا تجعلوا معبودين اثنين ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: ما هو إلا معبود واحد، هو الله عز وجل وحده، فلا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال:

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فإياي وحدي فخافون.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ الجملتان معطوفتان على جملة ﴿هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، أي: وله وحده كل الذي في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾أي: وله وحده ﴿ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾، أي: ثابتًا دائمًا وواجبًا وخالصًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣]، و«الدين»: التدين والطاعة.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أفغير الله من المخلوقات تتقون وتخافون مما لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، وتعدلون عن تقوى الله الذي له ملك السموات والأرض، وله الدين واجبًا خالصًا وبيده كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥﴾

قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الباء: للملابسة، أي: وما بكم من نعمة ظاهرة أو باطنه فمن الله تعالى وحده.

أي: إن كل ما أنتم مغمورون فيه من النعم التي لا تحصى هي من الله تعالى وحده، قال ابن القيم: «فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة»(١).

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٣٧.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾، أي: ثم إذا أصابكم الضر من فقر ومرض وشدة وغير ذلك ﴿فَإِلَيۡهِ﴾ وحده ﴿تَجۡـَٔرُونَ﴾ تضجون بالدعاء والتضرع والاستغاثة به وحده، متناسين شركاءكم؛ لعلمكم أنه لا يكشف الضر إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الأنعام: ١٧، يونس: ١٠٧]

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ﴾، أي: أزاله ورفعه عنكم.

﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، «إذا» هي الفجائية، أي: إذا فريق منكم بعد لجوئهم إلى الله، وتضرعهم إليه، وكشفه الضر عنهم يفاجئون بالرجوع إلى الشرك بربهم، فأخلصوا له في حال الشدة والضراء، وأشركوا به في حال اليسر والرخاء.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ [الروم: ٣٣- ٣٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ

مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ اللام لام العاقبة، و«ما» موصولة، أي: عادوا إلى الشرك بربهم بعد كشف الضر عنهم؛ لتكون عاقبتهم أن يجحدوا ويكفروا بالذي أعطيناهم من النعم حيث نجيناهم من الشدة وخلصناهم من المشقة.

ويحتمل أن تكون اللام لام التعليل، أي: قيّضنا لهم ذلك ليكفروا .

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ التمتع: العيش والانتفاع بالمتاع، أي: فتمتعوا في دنياكم بما أنتم فيه من العيش قليلًا، واعملوا ما شئتم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعلمون عاقبة كفركم وعدم شكركم، وفي هذا وعيد شديد لهم، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ رسالاته إلى أهل الأرض وأوحى إليهم؛ كلهم رجال من البشر ليسوا ملائكة، وليس فيهم أنثى، ولا رسول من الجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۚ﴾.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وأنه آخر الرسل، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾.

٣- أن بعثة الرسل وإرسالهم إنما تكون بعد اكتمال رجولتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۚ﴾.

٤- أن رسالات الله تعالى إلى الأنبياء إنما تكون بوحي الله تعالى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۚ﴾.

٥- أمْر المشركين المكذبين للنبي ﷺ والمنكرين أن يكون الرسول بشرًا بسؤال أهل الذكر، وهم أهل الكتاب قبلهم: هل كان الرسل ملائكة أو بشرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦- إطلاق الذكر على التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة سابقًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ فالمراد بهم أهل الكتاب، وكما في قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

كما سمي بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

٧- فضل العلم وأهله، وأن أعلى أنواعه العلم بما أنزل الله تعالى من الذكر؛ لأن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إلى أهل العلم، وفي هذا تعديل وتزكية لهم، وأن الجاهل يخرج من التبعة بسؤالهم، وأن الله ائتمنهم على وحيه، فيجب عليهم تزكية أنفسهم، بالعلم والورع والزهد والعمل بالعلم، وصيانة علمهم، وأفضل أهل العلم أهل العلم بالقرآن الكريم، لأنه أعظم الذكر وأفضل العلم، وهم أهل الله وخاصته كما جاء في الحديث(١).

٨- ليس في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ تزكية لأهل الكتاب، وإنما سموا- أو وصفوا- بأهل الذكر؛ لأن الله أنزل عليهم الذكر، فأنزل التوراة على موسى، وأنزل الإنجيل على عيسى عليهما السلام، كما سموا أهل الكتاب؛ لأن الله أنزل عليهم الكتاب.

٩- أن الحق ما شهدت به الأعداء، ففي الأمر بسؤال أهل الكتاب مع عداوتهم للنبي ﷺ وإنكارهم لرسالته عن كون الرسل بشرًا؛ إرغام للمشركين المنكرين لذلك، على أنه قد يحتمل أن المراد بأهل الذكر في الآية المؤمنون من أهل الكتاب، وهؤلاء كما يشهدون ببشرية الرسل كلهم يشهدون أيضًا بصدقه ﷺ في رسالته، وفي هذا إرغام للمشركين بعد إرغام.

١٠- تنزل القرآن في خطابه المكذبين المعاندين؛ لإفحامهم وإلزامهم الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فنزلهم منزلة من لا يعلمون، وهم في ظاهر الأمر معاندون مكابرون.

(١) أخرجه ابن ماجه في الإيمان (٢١٥)، من حديث انس بن مالك رضي الله عنه.

١١- أن الله عز وجل أرسل الرسل عليهم السلام بالآيات البينات والحجج الواضحات والمعجزات الظاهرات، والكتب التي فيها الهدى والنور؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾.

١٢- إنزال الذكر عليه ﷺ ليبين للناس ما نزل إليهم من القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

١٣- أن السنة مبينة للقرآن ومفصلة له.

١٤- أن إنزال الذكر عليه ﷺ وأمره بأن يبين للناس ما نزل إليهم من القرآن والسنة هو لأجل أن يتفكروا، أي: يُعملوا فكرهم وعقولهم في ذلك وينتفعوا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٥- تهديد الذين يمكرون السيئات أن يخسف الله بهم الأرض، أو يعاجلهم بالعذاب من حيث لا يشعرون به، أو يأخذهم في تقلبهم وتصرفهم في معاشهم، أو على حين تخوف منهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

١٦- أن العذاب يأتي بغتة من حيث لا يخطر ببال المعذبين، فلا يشعرون إلا وقد وقع بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

١٧- أن العذاب قد يأخذ الناس حال تقلبهم وتصرفهم في معاشهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾، أي: حال انشغالهم في أعمالهم ومعائشهم، أو حال انتشارهم، أي: جهارًا نهارًا.

١٨- أن الذين يمكرون السيئات ما هم بمعجزين الله أن يأخذهم بأي صنف من أصناف العذاب، لتمام قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

١٩- أن العذاب قد يأتي على حين تخوّف منه وتوقع لنزوله بوجود مقدماته؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وهذا قد يكون أشد.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾.

٢١- إثبات صفتي الرأفة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.

٢٢- عدم معاجلته عز وجل من عصاه بالعقوبة؛ لرأفته ورحمته، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل.

٢٣- الإنكار على المكذبين في وحدانية الله تعالى عدم نظرهم وتأملهم في عظمة الله عز وجل، وعظيم ما خلقه عز وجل من جميع الأشياء وسجودها له، تذللًا وخضوعًا له، وانقيادًا لأمره وقهره؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾.

٢٤- أن لله وحده يسجد كل ما في السموات وما في الأرض من دابة، سجود تذلل وخضوع وعبادة لله عز وجل، وسجود انقياد لأمره وقهره؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

ولا يستثنى من السجود لله سجود تذلل وخضوع وعبادة سوى كثير من الناس حق عليهم العذاب، كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الآية: ١٨].

٢٥- إثبات وجود الملائكة وفضلهم وشرفهم؛ لكثرة عبادتهم؛ لهذا خصهم بالذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٢٦- خضوع الملائكة وتذللهم لله تعالى، ومداومتهم على عبادته، وعدم استنكافهم عن عبادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

٢٧- خوف الملائكة ربهم من فوقهم، وطاعتهم له، وقيامهم بأمره؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩﴾.

٢٨- نهي الله عز وجل عن اتخاذ إلهين اثنين، وإثبات وحدانيته، وأنه لا إله إلا هو أحد فرد صمد؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

٢٩- وجوب خوفه عز وجل وحده، والرهبة منه دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ

فَٱرۡهَبُونِ ﴾ .

٣٠- عظمة الله عز وجل، وسعة ملكه، وأن له وحده ملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ .

٣١- أن لله عز وجل وحده الدين والطاعة والتعبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣].

٣٢- أن من دان وتعبد لغير الله فليس على شيء؛ لأن الدين والتعبد إنما هو حق لله تعالى وحده.

٣٣- التوبيخ والتقريع للذين يتقون ويخافون غير الله الذي تجب تقواه والخوف منه وحده؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾.

٣٤- أن جميع ما بالخلق من نعمة هي من الله تعالى وحده، يجب شكره عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾.

٣٥- لجوء الخلق كلهم عندما يمسهم الضر إلى الله تعالى وحده، ودعاؤهم وتضرعهم إليه بما فيهم المشركون؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾.

٣٦- رجوع المشركين بعد كشف الضر عنهم إلى الشرك، وكفرهم نعمة الله تعالى عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾.

٣٧- الوعيد والتهديد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا
كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم
بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ
أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا
تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا
جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذه الآيات في سياق ذكر ما عليه المشركون من الشرك والافتراء على الله تعالى، وكفران نعمه.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾، أي: ويجعل هؤلاء المشركون والكفار، أي: يصيرون ويضعون، والتعبير بالمضارع؛ للدلالة على استمرارهم في ذلك وتجدده منهم.

﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: للذين لا يعلمون من الأصنام والأوثان التي يعبدونها، وهي جمادات لا تنفع، ولا تضر، ولا تعقل.

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، أي: حظًّا وقسمًا من الذي أعطيناهم من رزقنا من الحرث والأنعام، بل وفضلوهم في هذا النصيب على الله.

فبدل أن يشكروا الله تعالى على ما رزقهم وأعطاهم من ذلك؛ استعانوا به على الشرك بالله، وتقربوا به إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ التاء: للقسم، واللام واقعة في جواب القسم.

و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله لتسألن عن الذي كنتم تفترون، أو عن افترائكم.

أي: لتسألن وتحاسبن وتجازون عن الذي كنتم تختلقونه من الكذب والإفك على الله تعالى من إشراك هذه الآلهة معه، وجعلها شريكة له فيما رزقكم.

وفي هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى، كما قال تعالى: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [يونس: ٦٠].

وأكد سؤالهم بالقسم؛ لأنهم ينكرون البعث كله، وأتى بفعل المضارع في قوله: ﴿تَفۡتَرُونَ﴾ للدلالة على تجدد ذلك منهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾.

قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾، أي: ويجعل هؤلاء المشركون لله البنات وينسبونهن إليه- كذبًا وزورًا- فيقولون: الملائكة بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧].

فأخطؤوا خطأً عظيمًا وارتكبوا إثمًا مبينًا في نسبة الولد إلى الله تعالى، وهو سبحانه الذي لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ ولدًا.

وأخطؤوا ثانيًا في جعل البنات له سبحانه، ولهم البنون، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١- ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١- ٢٢].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا من الله تعالى لنفسه عن قولهم وإفكهم في نسبتهم الولد والبنات له عز وجل.

﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويجعلون لهم، أي: لأنفسهم الذي

يشتهون وهم البنون، كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ذكر في الآية السابقة جعلهم البنات لله ولهم ما يشتهون، أي: الأبناء، ثم بين شدة كراهتهم للبنات وأنفتهم منهن، فكيف نسبوهن إلى الله؟! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾، أي: بولادة الأنثى.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾، أي: صار وجهه ﴿مُسْوَدًّا﴾، أي: مسود اللون متغيرًا كئيبًا من الهم والغم؛ استياء لما بشر به من ولادة الأنثى له.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: وهو حزين ممتلئ غيظًا وهمًا، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، أي: يستخفي من الناس؛ حياءً منهم، وكراهية أن يروه فيعيبوه.

﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، «من» سببية، أي: بسبب سوء الذي بشر به، وهي الأنثى، خوف التعيير به، وكأنه بذلك ارتكب أعظم جرم.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ بدل من قوله: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، والهمزة للاستفهام، أي: أيبقي هذا الذي بشر به، وهي الأنثى فلا يقتلها؟

﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾، أي: على إهانة وإذلال منه لها، فلا يكرمها ولا يعتني بها، ولا يورثها، بل يهضمها حقها، ويفضل الذكور عليها.

﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾، «أم» حرف عطف، أي: أم يدفنه في التراب حيًّا، أي: أم يئد هذه الأنثى، فيدفنها في التراب وهي حية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨- ٩].

ومعنى الآية أنه يستخفي عن أنظار قومه بسبب سوء الذي بشر به- في نظره- خوفًا أن يعيروه به، مترددًا بين أحد هذين الأمرين: أيبقيه حيًّا مع إهانته وإذلاله، أم يدفنه في التراب ليموت.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، «ألا»: حرف تنبيه، أي: ألا ساء وقبح وبئس الحكم الذي يحكمون به من نسبة الولد إلى الله عز وجل، وجعل البنات له، واختيارهم الذكور، كما قال تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٣- ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩].

وبئس ما يحكمون أيضًا من استيائهم بولادة الأنثى، والتردد بين إمساكها حيةً مهينةً ذليلةً حقيرةً مظلومةً مهضومةً عندهم، أو دفنها في التراب وهي حية.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

لما كان نسبة الولد إلى الله عز وجل من أمثال السوء التي نسبها إليه المشركون، وأسوأ من هذا جعل البنات له دونهم؛ أتبع ذلك ببيان أن لهم خاصة مثل السوء، وله خاصة عز وجل المثل الأعلى.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، أي: لهؤلاء المشركين والكفار الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، أي: لا يصدقون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾، أي: المثل السيئ، والوصف القبيح، والنقص التام؛ ولهذا ضرب الله لهم ولأمثالهم من المكذبين أسوأ الأمثال، فضرب لهم مثلًا بالكلب، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦- ١٧٧].

وضرب لهم مثلًا بمن كان ميتًا، وبمن هو خالد في الظلمات ليس بخارج منها؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وضرب لهم مثلًا بمن يمشي مكبًّا على وجهه، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وضرب لهم مثلًا بالأنعام، وبما هو أضل، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: الوصف الأعلى، والكمال المطلق من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

و ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: «أفعل» تفضيل، أي: الأعلى على غيره.

فكل وصف كمال، وكل كمال في الوجود فالله أولى وأحق به، فله المثل الأعلى في سمعه وبصره وعلمه ووجهه وسائر صفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والمعرفة.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، «العزيز» اسم من أسماء الله- عز وجل- يدل على أنه سبحانه ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، يدل على أنه سبحانه ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .

لما ذكر ما افتراه عليه المشركون الظالمون ذكر كمال حلمه وأنه يمهل ولا يهمل.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: ولو يعاقب الله الناس ﴿بِظُلْمِهِم﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب ظلمهم، وهو ما هم عليه من الشرك والكفر والافتراء على الله تعالى .

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: ما ترك على الأرض من دابة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

و﴿مِن﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

﴿دَآبَّةٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ما ترك عليها أيَّ دابة.

و﴿دَآبَّةٍ﴾ اسم لكل ما يدب على الأرض، أي: يمشي عليها من الحيوانات، أي: لأهلك كل ما على وجه الأرض من الدواب بسبب شؤم ظلم الظالمين من بني آدم ومعاصيهم التي بسببها يهلك الحرث والنسل، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وعن أبي عبيدة قال: قال عبد الله «كاد الجعل أن يهلك في جحره بخطيئة ابن آدم»(١).

وعن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلًا يقول: «إن الظالم لا يضر إلا نفسه. قال: فالتفت إليه. فقال: بلى والله، إن الحبارى لتموت في وكرها هزالًا بظلم الظالم»(١).

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾، أي: ولكن بحلمه عز وجل يؤخرهم، أي: يمهلهم وينظرهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين تقضيه حكمته؛ ليتوب من يتوب فيغفر له، ويصر من يصر فيزداد عذابًا.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا جاء وقت هلاكهم المحدد لهم في الدنيا ويوم القيامة.

﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ السين والتاء في ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ للمبالغة، أي: لا يتأخرون عن أجلهم ساعة، ولا يتقدمون عنه ساعة، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الآية: ٣٤]، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الآية: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٠).

٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، المؤمنون: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾، أي: ويجعلون لله الذي يكرهونه من البنات، وهذا تصريح بمفهوم قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وأيضًا: يجعلون لله ما يكرهون من الشركاء؛ لأنهم يكرهون أن يكون معهم شركاء في أموالهم ومماليكهم، فكيف يشركون مع الله غيره.

وأيضًا يجعلون لله شركاء من عبيده وخلقه، وهم يكرهون أن يكون عبيدهم- وهم مخلوقون من جنسهم- شركاء لهم في أموالهم.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾، أي: وتقول وتدعي ألسنتهم الكذب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدل من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن لهم الحسنى، أي: العاقبة الحسنى في الدنيا، وفي الآخرة إن كان ثمة معاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، وقال تعالى إخبارًا عن أحد الرجلين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦].

فجمع هؤلاء بين عمل السوء وبين تمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسنًا، وذلك

مستحيل، إذ لا يجنى من الشوك العنب؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، أي: حقًّا أن لهم النار يوم القيامة، ولا شك.

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾. قرأ أبو جعفر: «مفرِّطون» بكسر الراء وتشديدها، أي: مفرِّطون في أداء حقوق الله تعالى، متساهلون فيها، مضيِّعون لها، كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقرأ نافع: «مفرِطون» بكسر الراء وتخفيفها، أي: مفرطون في الذنوب والمعاصي مكثرون منها، مسرفون على أنفسهم.

وقرأ الباقون: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ بفتح الراء وتخفيفها، أي: متروكون في النار، منسيون فيها مضيَّعون، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

في هذا تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب قومه وإشراكهم بالله وافترائهم على الله؛ بإخباره بما حصل من الأمم السابقة من تزيين الشيطان لهم التكذيب ومخالفة الرسل، وما توعدهم الله تعالى به من العذاب الأليم.

قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ التاء- كما سبق- للقسم، واللام واقعة في جواب القسم، و«قد»: حرف تحقيق، و«أمم»: جمع «أمة»، ونكرت للتكثير، أي: أمم كثيرة، والخطاب للنبي ﷺ.

أي: والله لقد أرسلنا رسلًا إلى أمم من قبلك بمثل ما أرسلناك إلى أمتك.

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: فحسن لهم الشيطان ما هم عليه من الشرك والكفر والعناد وتكذيب الرسل، فرأوا أن ما هم عليه هو الحق، فأطاعوه واتبعوه. كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن

مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وكما قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: فهو متولي أمورهم في الدنيا، يزين لهم الشر والكفر والمعاصي، فيطيعونه ويتبعونه، يؤزهم ويستفزهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

[مريم: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

وفي قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ تهكم بهم؛ لأن الولي في الحقيقة من يجلب الخير ويدفع الشر، لا من هو بضد ذلك، فهذا هو العدو، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، حين لا صريخ لهم، ويتولى الشيطان عنهم ويقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

بعد تسليته ﷺ ببيان ما حصل للرسل قبله من أممهم من التكذيب والعناد؛ بين في هذه الآية أن المقصود من إنزال الكتاب عليه هو بيان ما اختلف فيه، وهدى ورحمة للمؤمنين، وليس عليه هداية الخلق.

قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: وما أنزلنا عليك يا محمد القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، أي: إلا لأجل أن تبين للناس الذي اختلفوا فيه، ببيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والتوحيد من الشرك، وغير ذلك.

﴿وَهُدٗى﴾، أي: بيانًا وإرشادًا ونورًا للقلوب باطنًا، ورشادًا لمن اتبعه ظاهرًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ بالله تعالى، وما أوجب الإيمان به وشرعه، وخصهم بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بالقرآن دون من عداهم من الكفار، فما يزيدهم إلا نفورًا ورجسًا إلى رجسهم.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين والكفار وما هم عليه من الجهل والافتراء على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ الآية وما بعدها.

٢- ظلم المشركين وكفرهم نعمة الله في جعلهم لآلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾.

٣- سفاهة عقول المشركين وجهلهم المركَّب؛ حيث عبدوا من دون الله آلهة لا تعلم شيئًا ولا تملك لهم نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٤- أن الرزق من الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، وهذا يوجب الاستعانة به على طاعته، وشكر نعمه وعدم كفرها، وطلب الرزق منه وحده.

٥- الوعيد الأكيد والتهديد الشديد للمشركين الذين عبدوا غير الله، وجعلوا

لآلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾، أي: لتسألن عن ذلك، وتحاسبن وتجازون عليه.

٦- جرأة المشركين وكذبهم وافتراؤهم على الله تعالى بنسبة الولد إليه، ومن ثم تخصيصه بالبنات، واختيارهم لأنفسهم الذكور؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾.

٧- كراهة المشركين البنات وأنفتهم منهن- جهلًا منهم- وظلمًا، واستياؤهم وحزنهم وغيظهم من ولادتهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾.

٨- اعتبارهم- لشدة حمقهم وجهلهم- أن ولادة الأنثى عار وعيب يعابون به، وتواري أحدهم عن الأنظار بسبب ولادة الأنثى له؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾.

٩- تردد الواحد منهم- بسبب حمقهم وجهلهم وظلمهم- إذا رزق بنتًا، بين أن يبقيها حية مع إهانته وإذلاله لها وهضم حقها، وبين أن يئدها ويقتلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾.

١٠- بئس ما حكم به هؤلاء المشركون من نسبة الولد إلى الله تعالى، وجعل البنات له، ولهم الذكور، ومن إبقاء المولودة مع إهانتها وإذلالها، أو دفنها وقتلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

١١- أن للذين لا يؤمنون بالآخرة من هؤلاء المشركين وأضرابهم المثل السوء والوصف القبيح والنقص التام والعيب؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾.

١٢- أن لله عز وجل المثل الأعلى والكمال المطلق من جميع الوجوه، والوصف التام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

١٣- إثبات اسم الله ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ وأن له عز وجل العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

١٤- إثبات اسم الله ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ وأن له سبحانه الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة: الحكمة الغائية والحكم الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

١٥- حلم الله عز وجل على الناس وإمهاله لهم مع ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾.

١٦- أن العقاب إذا نزل قد يعم الصالح والطالح حتى الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾.

١٧- أن الله تعالى يمهل ولا يهمل، ويؤخر الظالمين إلى أجل مسمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

١٨- إذا جاء أجل الله تعالى بأخذ الظالمين وإهلاكهم فإنهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

١٩- جعل المشركين لله تعالى ما يكرهون من البنات، ومن الشركاء، فهم يكرهون البنات، ويكرهون أن يشاركهم أحد في أموالهم، سواء من مماليكهم أو من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ﴾.

٢٠- كذب المشركين وزعمهم- مع ما هم عليه من الشرك والافتراء على الله- أن لهم العاقبة الحسنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

٢١- الوعيد الأكيد للمشركين بالله المفترين عليه الكذب بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، أي: حقًّا ولا شك أن لهم النار.

٢٢- ذم هؤلاء المشركين المفترين على الله بتفريطهم في جنب الله، وإفراطهم في المعاصي، وتوعدهم بسبب ذلك بتركهم في النار، ونسيانهم فيها وإضاعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ على القراءات الثلاث فيها.

٢٣- إثبات النار وأنها موجودة الآن أعدت للكافرين.

٢٤- تسلية الرسول ﷺ تجاه تكذيب قومه، ببيان ما حصل للرسل عليهم السلام قبله من تكذيب أممهم لهم وتزيين الشيطان لهم أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٢٥- تولي الشيطان في الدنيا لمن كفروا بالله وخالفوا رسله؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

٢٦- الوعيد لمن والى الشيطان وأطاعه واتبعه، وخالف رسل الله؛ بالعذاب الأليم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٧- أن المقصود من إنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ بيان ما اختلف الناس فيه، ببيان الحق من الباطل والهدى من الضلال، وهدايتهم ورحمتهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٢٨- إثبات العلو لله على خلقه فهو عال عليهم بذاته وصفاته، وإثبات أن القرآن منزَّل من عند الله تعالى غير المخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢٩- أنه لا ينتفع بالقرآن الكريم وما فيه من الهداية والرحمة إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ۝٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةًۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ۝٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ۝٦٥﴾

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المطر، والمراد بالسماء: العلو؛ لأن المطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، [البقرة: ١٦٤].

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الباء للسببية، أي: فأحيا بسبب الماء الأرض بالنبات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، أي: بعد أن كانت ميتة يابسة جرداء هامدة خاشعة، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحج: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها ﴿لَأٓيَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة ظاهرة من أعظم الدلائل على وحدانية الله تعالى وتمام قدرته على البعث، وعلى أن الله عز وجل- كما جعل الماء حياة للأرض بعد موتها كذلك جعل القرآن الكريم حياة للقلوب بعد أن كانت ميتة.

﴿لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾، أي: يسمعون الآيات سماع إصغاء بآذانهم، وسماع فهم وانتفاع بقلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةًۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا

خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: وإن لكم أيها الناس ﴿فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم.

﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: لعظة وآية ودلالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ولطفه ورحمته.

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ الجملة بيان لقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ قرأ أبو جعفر بالتاء مفتوحة «تسقيكم» وقرأ الباقون بالنون، فتحها نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر: «نَسقيكم» وضمها الباقون: ﴿نُّسْقِيكُم﴾.

أي: نسقيكم من الذي في بطونه، وأفرد الضمير في ﴿بُطُونِهِۦ﴾ على معنى: نسقيكم مما في بطون هذا النعم أو الحيوان.

وفي آية سورة المؤمنون: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [الآية: ٢١].

﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو ما في الكرش ﴿وَدَمٍ﴾ وهو ما في العروق من الدم ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ نقيًّا صافيا، لا يشوبه شيء مما يكدره .

﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذًا لا يغص به شاربه، ويسقي ويغذي.

قال ابن كثير(١): «أي: يتخلص الدم: بياضه، وطعمه، وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به».

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

لما امتن عليهم بما يخرجه لهم من ضروع الأنعام من لبن خالص سائغ للشاربين أتبع ذلك بذكر ما امتن به عليهم مما أخرجه لهم من ثمرات النخيل والأعناب مما يتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا.

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٤٩٩.

قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾، أي: وأخرج لكم من ثمرات النخيل والأعناب ثمرًا، أو عصيرًا تتخذون منه سكرًا.

أو معطوفة على قوله: ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، أي: وإن لكم فيها أخرج لكم من ثمرات النخيل لعبرة.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾، أي: تجعلون مما أخرج لكم من ثمرات النخيل والأعناب من التمر أو العصير ﴿سَكَرٗا﴾ وهو ما كانوا يصنعونه من النبيذ المسكر من التمر وعصير العنب، وذلك قبل تحريمه.

وقيل المراد بالسكر: الطعام والشراب اللذيذ؛ لقوله بعده: ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ قال السعدي(١): «وهو أولى من القول الأول».

﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ وهو التمر والزبيب.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، أي: إن فيما يخرجه لكم من ثمرات النخيل والأعناب من ثمر تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا.

﴿لَأٓيَةٗ﴾ اللام للتوكيد، أي: لدلالة على عظمة الله تعالى وفضله ونعمته ورحمته.

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، أي: لقوم ينتفعون بعقولهم، فيهتدون بها إلى التفكر والتأمل في آلاء الله تعالى ونعمه وشكرها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس: ٣٤-٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾.

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) ٤/ ٢١٧.

لما امتن عليهم بما يخرجه لهم من بطون الأنعام من اللبن وما يخرجه لهم من ثمرات النخيل والأعناب مما يتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا؛ امتن عليهم بإيحائه إلى النحل لاتخاذ البيوت والأكل من كل الثمرات ليخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه، و«النحل»: هي الحيوانات المعروفة، أي: وأوحى ربك إلى النحل وحي إلهام وهداية، أي: ألهمها وهداها، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، أي: هدى كل مخلوق لما خلق له، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، أي: قدر مقادير الخلق كلهم، ثم هدى كل مخلوق لما قَدّر له.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾، «أن»: تفسيرية، أو مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ ﴿وَأَوۡحَىٰ﴾، أي: اجعلي من الجبال بيوتا، ومن الشجر ﴿وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾، أي: ومن الذي يعرشون، أي: ومن الذي يبنون من البيوت والسقف للنحل.

وقد ألهمها الله عز وجل في اتخاذ بيوت تأوي إليها، وتضع فيها ما تخرجه من بطونها من هذا الشراب، غاية الإحكام والإتقان ودقة النظام، في بناء هذه البيوت، وتسديدها ورصها؛ بحيث لا يكون فيها خلل يتسرب منه العسل أو تنفذ إليها منه الحشرات.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: ثم أذن لها كونا وقدرًا وسخرها وألهمها بالأكل من كل الثمرات؛ ليجتمع لها جميع ما في هذه الثمرات الكثيرة المتنوعة من الفوائد، فيأتي ما يخرج من بطونها من شراب مشتملًا على شتى الفوائد، وأعظم المنافع.

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾، أي: فاسلكي المسالك والطرق الحسية التي جعلها ربك وذللها، واسلكي طرق العمل ووسائله التي ألهمك الله إياها، وهكذا ألهمها الله وسخرها وأقدرها، فهي تنتقل في البراري الشاسعة بين السهول والأودية الواسعة والجبال الشاهقة، وتقطف من كل ثمرة زهرتها، ثم تعود إلى بيوتها، لا تحيد عنها ولا تخطؤها، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها،

ثم تصبح إلى مراعيها وهكذا[١].

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ تقيئه من فيها ﴿شَرَابٌ﴾ وهو العسل.

﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ صفة لـ ﴿شَرَابٌ﴾، أي: مختلف ألوانه بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الجميلة الحسنة، حسب اختلاف مراعي النحل ومأكلها منها.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «إن أخي استطلق بطنه، فقال: **اسقه عسلًا**، فسقاه عسلًا، ثم جاءه، فقال: يا رسول الله، سقيته عسلًا فما زاده إلا استطلاقًا، قال: **اذهب فاسقه عسلًا**، فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله: **صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلًا**. فذهب فسقاه فبرأ»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي**»[٣].

﴿فِيهِ﴾، أي: في هذا الشراب، وهو العسل ﴿شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ من كثير من الأدواء والأمراض التي تصيبهم، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقد قال بعضهم: لو قال: «فيه الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

قال ابن كثير[٤] بعد أن ذكر المقالة السابقة «أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة؛ فإنه حار والشيء يداوى بضده».

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إيحائه عز وجل إلى النحل هذه المخلوقات الضعيفة، وتسخيرها لاتخاذ البيوت، والأكل من كل الثمرات، وسلوك الطرق المذللة في البراري والمهامه الواسعة من أجل ذلك، ومن ثم جمعها للشمع والعسل الذي فيه شفاء للناس.

---

(١) انظر (تفسير ابن كثير) ٤/ ٥٠١

(٢) أخرجه مسلم في السلام- التداوي بسقي العسل (٢٢١٧).

(٣) أخرجه البخاري في الطب الدواء بالعسل (٥٦٨٠)، وأخرجه أيضًا بنحوه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه (٥٦٨٣)، وكذا أخرجه مسلم في السلام لكل داء دواء واستحباب التداوي (٢٢٠٥).

(٤) في (تفسيره) ٤/ ٥٠١.

﴿لَآيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لدلالة لقوم يتفكرون في عقولهم ويستدلون بذلك على عظمة خالقها وملهمها ومسخرها ومقدرها، وتمام قدرته، وبالغ حكمته، وواسع علمه وكرمه ورحمته، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

وقد قيل: إن الضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى القرآن، وهذا من حيث المعنى صحيح، فالقرآن فيه شفاء للناس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله عليه وسلم: «**عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن**»[1].

لكن الصحيح رجوع الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ إلى الشراب؛ لأنه هو المذكور والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية.

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان على العباد بإنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [النحل: ٦٥].

٢- أن في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض الميتة به دلالة على عظمة الله تعالى، ووحدانيته، وسعة رحمته، وتمام قدرته على البعث، لقوم يسمعون سماع فهم وانتفاع بما يسمعون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥].

٣- أن الله كما جعل الماء حياة للأرض بعد موتها، كذلك جعل القرآن حياة للقلوب بعد موتها.

٤- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء والعلو؛ ليعم جميع تضاريس الأرض جبالها ووهادها، مرتفعاتها ومنخفضاتها.

٥- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطب باب العسل ٣٤٥٢. قال ابن كثير في (تفسيره) ٤/ ٥٠٢: (وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعًا. وقد رواه ابن جرير موقوفًا، وهو أشبه).

[النحل: ٦٥]، أي: بسببه.

٦- أنه لا ينتفع بالآيات والدلائل إلا الذين يسمعون سماع تفهّم وانتفاع بقلوبهم؛ لهذا خصهم بالذكر.

٧- أن في الإنعام لعبرة ودلالة على عظمة الله تعالى، ونعمته، وتمام قدرته، ورحمته بخلقه؛ حيث يسقيهم مما في بطونها من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

٨- التنبيه والحث على التفكر في عظيم خلق الله وبديع صنعه وعنايته بخلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ الآية، أي: اعتبروا بذلك، واتعظوا، واستدلوا به على تمام قدرة الله تعالى، وعنايته بخلقه.

٩- الامتنان على العباد بما أخرج لهم من ثمرات النخيل والأعناب مما يتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا من التمر والزبيب، لقوله تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

١٠- استدل بعض أهل العلم على إباحة الخمر أول الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، وقال بعضهم المراد بالسكر الطعام والشراب اللذيذ؛ لقوله بعده: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، وعلى هذا فلا دلالة في الآية على إباحة الخمر في أول الإسلام.

وعلى كل فقد ثبت تحريم الخمر، فبين عز وجل أن إثمه أكبر من نفعه، فقال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم حرم شربها وقت الصلاة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم حرمها تحريمًا قاطعًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن

ﱡذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ﱠ [المائدة: ٩٠- ٩١].

١١- التسوية بين السكر المتخذ من العنب والمتخذ من النخل.

١٢- أن فيما أخرج عز وجل من ثمرات النخيل والأعناب مما يتخذ منه سكرًا ورزقًا حسنًا لدلالة على عظمة الله تعالى وفضله ونعمته لقوم ينتفعون بعقولهم، فتهديهم إلى التفكر في نعم الله تعالى وشكرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ .

١٣- الامتنان على العباد بإيحائه عز وجل إلى النحل وإلهامها وإقدارها وتسخيرها لاتخاذ البيوت، والأكل من كل الثمرات، وسلوك الطرق المذللة في البراري الشاسعة من أجل ذلك، وإخراج العسل قيئًا من بطونها فيه شفاء للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾.

١٤- إن في إلهام النحل وهي المخلوقات الضعيفة، وإقدارها وتسخيرها لما ذكر لدلالة لقوم يتفكرون على تمام قدرة الله تعالى وعظمته وبالغ حكمته وسعة علمه وكرمه ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾.

١٥- الحث والترغيب والتحضيض على سماع الآيات سماع استفادة وانتفاع، والتعقل والتفكر فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾، ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ٦٧﴾، ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۝٧٢ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٧٣ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧٤ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًاۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، أي: أنشأكم من العدم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١].

وقال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [الروم: ٥٤].

﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، أي: يقبض أرواحكم ويميتكم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، «من» الأولى: تبعيضية، والثانية: موصولة، وبعضكم الذي يرد، أي: يرجع ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، أي: إلى أردأ العمر وهو الهرم، والذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة.

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ اللام: للتعليل، أو للصيرورة، أي: لأجل أن يصل إلى حالة، أو حتى يصير إلى حالة لا يعلم من بعد علم شيئًا.

أي: فبعد أن كان عالمًا أصبح لا يعلم ولا يدري شيئًا مما علمه، ولا مما حوله، ونسي ما كان يعلمه ويعقله قبل ذلك، وصار عقله كعقل الطفل من الهرم والخرف يهذي بما لا يدري؛ ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الهرم وأرذل العمر فقال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات**»(١).

قال الشاعر:

ومـا للمـرء خـير في حيـاة ... إذا مـا عـد مـن سـقط المتـاع(٢)

ولك أخي أن تتصور حالك إن أخطأتك المنايا حتى وصلت إلى هذا العمر، ولك عبرة بمن سبقوك إلى هذه الحال، فاحذر أن تستخف بمن بلغ هذه الحال، واسأل الله العافية، فأنت إلى هذه الحال إن طال بك العمر؛ أسرع من السيل إلى منحدره.

قال زهير(٣):

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولًا لا أبا لك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تعليل لقوله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ الآية، أي: إن الله ذو علم واسع، وقدرة تامة، فبعلمه عز وجل الواسع، وقدرته التامة خلق الخلق، ويتوفاهم، ويرد بعضهم إلى أرذل العمر، ويبعثهم جميعًا يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة النحل ٤٧٠٧، ومسلم في الذكر والدعاء- التعوذ من العجز والكسل ٢٧٠٦- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيت لقطري بن الفجاءة. انظر: «جمهرة الأمثال» (٢/ ١١٨)، «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ٢٥)، «نفح الأزهار» (ص ٦٩).

(٣) البيتان من معلقة زهير. انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص ١٧٦)، «المعلقات العشر» (٧/ ٣)، «مجاني الأدب» (٦/ ١٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾، أي: زاد بعضكم على بعض، وجعل بعضكم أفضل من بعض في الرزق، أي: في العطاء والإمداد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢].

فقد فاضل عز وجل بحكمته البالغة بين الخلق في الرزق والعطاء والإعداد والإمداد، فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف، وهذا صحيح وهذا مريض، وهذا حر له ملك وثروة وهذا عبد مملوك لا ملك له، وهكذا قال الشاعر:

جلّ من قَسَّم الحظوظ فهذا يتغنى وذاك يبكي الديارا[1]

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ بالرزق والعطاء على غيرهم.

﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ﴾، أي: ما هم بمرجعي رزقهم الذي أعطاهم الله إياه.

﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، أي: على الذي ملكته أيمانهم من العبيد والرقيق، أي: ما هم بمشركي مماليكهم فيما رزقهم الله من المال وغير ذلك.

﴿فَهُمۡ﴾، أي: فهم ومماليكهم ﴿فِيهِ﴾، أي: في الذي رزقهم الله ﴿سَوَآءٌۚ﴾.

أي: متساوون، أي: ما هم بقابلين ولا راضين أن يشاركهم مماليكهم ويساووهم في الذي رزقهم الله.

وإذا كانوا لا يرضون ولا يقبلون أن يشاركهم مماليكهم في رزقهم ويستوون معهم فيه، فكيف يجعلون لله شركاء في إلهيته من عبيده وخلقه لا يرضاهم، ويسوونهم به، وهم يعترفون بأنهم عبيده وملكه؛ حيث كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»[2].

أي: كيف ترضون لله ما لا ترضونه لأنفسكم، كما قال تعالى في الآية الأخرى:

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» (ص ٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم في الحج ١١٨٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ روى أبو بكر عن عاصم ورويس بالخطاب: «تجحدون» وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ والاستفهام! للتوبيخ والتقريع، والفاء: عاطفة، و«بنعمة» جار ومجرور متعلق بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بتضمينه معنى: «يكفرون».

أي: أيجحدون نعمة الله عليهم برزقه إياهم، ويكفرون بها بعبادتهم من دونه آلهة وإشراكهم معه في سلطانه وملكه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ هذا مما امتن الله به على عباده من النعم كما في الآيات السابقة.

قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: خلق وأوجد لكم من جنسكم أزواجًا؛ ليحصل لكم تمام الأنس والمودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وهذه من أعظم المنن على الزوجين، فلو كان أحدهما من جنس والثاني من جنس آخر ما التأما، ولا أنس أحدهم بالآخر، ولا سكن إليه.

ونعمة الزوجية من أكبر النعم؛ لما يترتب عليها من المعاني السابقة، وإعفاف كل من الزوجين الآخر، ووجود الذرية والنسل الذي به عمارة الكون، وهذا أمر جبلي فطري، ولا تسأل عن حال من لا زوج له.

ورُوِيَ في الحديث: **«مسكين مسكين مسكين رجل ليس له امرأة، ومسكينة مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج»**(١).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان مرسلًا عن أبي نجيح، انظر: «كنز العمال» ١٦/ ٢٧٨، ٢٧٩ حديث ٤٤٤٥٥، وذكره الهيثمي ٤/ ٢٥٢ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات إلا أن أبا نجيح لا صحبة له».

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾، أي: وخلق لكم من أزواجكم أبناء وبنات ﴿وَحَفَدَةً﴾ وهم أولاد الأولاد، وقيل: هم الأولاد وأولاد الأولاد، والأصهار.

وهذه أيضًا من أعظم النعم وهي نعمة الإنجاب والنسل، فالأولاد زينة الدنيا وزهرتها، وهم بهجتها ولذتها، وبهم يكتمل أنس الوالدين وتطيب حياتهما، فهم نعمة من أجل النعم وأكبرها، واسأل من ابتلي بالعقم ماذا فقد من هذه المعاني؟ قال الشاعر:

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد(١)

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، أي: من المطاعم والمشارب الحلال اللذيذة المستطابة.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والباطل: ما ليس بحق، وأعظم ذلك وأشده الشرك، وتأليه الأصنام والأنداد المنافي للتوحيد والإخلاص، والكفر والجحود المنافي للإيمان والشكر.

أي: أفبالباطل- وهو الشرك بالله وكفر نعمه وجحودها- يؤمنون ويصدقون.

﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾، «نعمة» مفرد مضاف إلى لفظ الجلالة «الله» فيعم جميع نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، من نعمة القرآن والرزق من الطيبات وغير ذلك، أي: وبنعم الله هم يكفرون، أي: يجحدونها وينكرونها ويسترونها.

وضمير الفصل «هم» مبتدأ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

هذه الآية كالبيان للآية قبلها.

---

(١) انظر: «طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار» (ص ٨٩)، «روض الأخيار» (ص٤٣١)، «السحر الحلال في الحكم والأمثال» (ص٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٨.

قوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون، الذين بالباطل يؤمنون، وبنعمة الله هم يكفرون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي لا يملك لهم رزقًا، أي: الذي لا يملك رزقهم.

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، أي: ولا يقدرون أن يرزقوهم، ولا يملكون لهم رزقًا.

فعدلوا عن عبادة الله الخالق المالك الرازق المتفضل المنعم عليهم إلى عبادة ما لا يملك لهم شيئًا من الرزق، ولا يستطيع ذلك، ولا يقدر عليه، فلا يقدر على إنزال المطر، ولا على إنبات زرع ولا شجر.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾.

أنكر على المشركين عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا ولا يستطيعه، ثم نهاهم عن ضرب الأمثال لله؛ لأنهم يدعون أن شركاءهم نظراء وأمثال لله، تعالى الله عن ذلك.

قوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾، «الأمثال»: جمع «مثل» وهو الشبيه والند والنظير، أي: لا تجعلوا لله أمثالًا وأشباهًا ونظراء وأندادًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾، أي: يعلم أنه لا مثيل له ولا شبيه ولا ند ولا نظير، وأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، وأنه لا إله إلا الله، ويعلم كل شيء.

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي: وأنتم جهلة لا معرفة لكم بالله، ولا علم عندكم بما يجب له من التعظيم وإخلاص العبادة له تعالى وحده لا شريك له؛ ولهذا عبدتم من دونه ما لا يملك لكم رزقًا ولا يستطيعونه، وجعلتموهم أمثالًا لله، تعالى الله وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾.

نهى عز وجل عن ضرب الأمثال لله بجعل الشركاء والأشباه والأمثال له سبحانه، ثم أتبع ذلك ببيان استحالة مماثلة خلقه ومشابهتهم له ومشاركتهم له في وحدانيته بمثلين ضربهما لنفسه وللأصنام، فللأصنام مثل السوء، ولله المثل الأعلى.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

وقال تعالى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠].

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، أي: ضرب الله مثلًا لبيان بطلان أن يكون له مثيل أو شريك.

﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، أي: عبدًا رقيقًا مملوكًا لسيده، لا يقدر على أي شيء، لأنه تحت تدبير مالكه وسيده، فهو لا يملك نفسه، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر على شيء.

﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ﴾، أي: وحرًّا غنيًّا رزقناه وأعطيناه منا رزقًا وعطاءً حسنًا واسعًا.

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ﴾، أي: فهو شكور لربه ينفق مما رزقه الله النفقات الواجبة والمستحبة في وجوه البر والخير ﴿سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ﴾ حسب المصلحة ومقتضى الحال.

﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا يستوون، أي: لا يستوي هذا وهذا، فشتان بين عبد مملوك لا يقدر على شيء ولا يملك شيئًا، وبين حر رزقه الله منه رزقًا حسنًا فهو شكور ينفق منه سرًّا وجهرًا.

أي: إذا كان لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر على شيء، وغني موسع عليه ينفق مما رزقه الله، فكيف تجعلون الصنم- الذي هو أسوأ حالًا من هذا العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء- شريكًا لله؟!

وقيل: ضرب الله هذا المثل للكافر والمؤمن، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن المنفق سرًّا وجهرًا مثل المؤمن.

قال ابن القيم في التوفيق بين هذين القولين: «ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه الله منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك، الذي لا يقدر على شيء، فهذا نبه عليه المثل وأرشد إليه»(١).

والأظهر المعنى الأول.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ لما كان الأمر واضحًا جليًّا أن لا مساواة بوجه من الوجوه بينه وبين خلقه، وأن تمثيله بأحد من خلقه أمر في غاية الجرأة على الله والتنقص له سبحانه، حمد عز وجل نفسه إثباتًا لاستحقاقه لصفات الكمال، وتنزيهًا لنفسه فقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾، «ال» في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للجنس، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِۚ﴾ للاستحقاق والاختصاص، أي: جميع أجناس المحامد وأنواع الحمد مستحقة وواجبة له وخاصة به.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: بل أكثرهم جهلة لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وما يجب لله من التعظيم، وما له من صفات الكمال والوحدانية في ربوبيته وإلهيته؛ ولهذا عبدوا آلهة من دونه، وأشركوهم مع الله، وساووا بينهم وبين الله، وضلوا بسبب ذلك كما في قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٧٦﴾.

وهذا مثل ثان ضربه الله أيضًا لنفسه، ولما يعبد من دونه؛ لإثبات وحدانيته وإبطال ما يعبد من دونه، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾، أي: مثلًا آخر:

﴿رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾، أي: أخرس لا يسمع ولا ينطق ولا يعقل، كما قال

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣.

تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، أي: ضعيف عاجز لا يقدر على أيِّ شيء ألبتة، لا قليل ولا كثير.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾، أي: وهو عبء ثقيل وعالة على مولاه، أي: على من يلي أموره ويعوله، أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه.

﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ﴾، أي: لأي جهة أو عمل أو حاجة، ونحو ذلك يرسله مولاه.

﴿لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾، أي: لا يأتي بأي خير، فلا يقوم بعمل، ولا يقضي حاجة، ولا ينجح في مسعى، فهو ناقص من كل وجه: أبكم أصم أخرس، لا يسمع، ولا ينطق، ولا يعقل، عاجز لا قدرة له على أي شيء، كَلٌّ وثقل وعالة على مولاه.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، أي: هل يستوي هو والذي يأمر بالعدل، أي: هل يستوي هو ورجل يأمر بأقواله بالعدل والقسط والحق؟

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: وهو على طريق مستقيم عدل في أفعاله وجميع أحواله.

والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا يستويان.

أي: إذا كان لا يستوي عندكم رجلان: أحدهما أبكم لا يعقل ولا ينطق، وهو مع ذلك عاجز لا يقدر على شيء، وآخر على طريق مستقيم في أقواله وأفعاله، آمر بالعدل عامل به، فكيف تسوون بين الصنم الذي لا يملك شيئًا ولا يقدر على شيء، وبين الله عز وجل، الذي يأمر بالعدل والقسط، والحق في جميع أقواله، وهو على صراط مستقيم في جميع أفعاله وأحكامه الكونية والشرعية والجزائية، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٢٦]؟!

وفي الحديث: «**اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، والحاكم ١/ ٥٠٩- ٥١٠- من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وذكره

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله وقال له اعمل وأدِّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غيره، فأيكم يحب أن يكون عبده كذلك»(١).

وقد قيل: إن المراد بهذا المثل الكافر والمؤمن، والأظهر القول الأول، وفيه تنبيه وإرشاد إلى هذا، فإذا كان لا يستوي المعبود الباطل مع المعبود الحق، فكذلك لا يستوي من ألّه الباطل وكفر بالله مع من عبد الله وآمن به.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

لما أنكر على المشركين عبادتهم من دون الله آلهة مملوكة لله تعالى، لا تقدر على شيء، وتسويتهم بينها وبين الله تعالى أتبع ذلك ببيان عظمته واختصاصه بغيب السموات والأرض، محذرًا من قرب القيامة، ومبينًا تمام قدرته على كل شيء.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو استئنافية، واللام في قوله: «لله» لام الملك، وقدم الخبر للدلالة على الاختصاص، أي: ولله خاصة ملك وعلم غيب السموات والأرض.

و﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كل ما غاب عن الأعين والحواس في السموات والأرض، فلا اطلاع لأحد على شيء من ذلك إلا أن يطلعه الله على ذلك.

كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٣٦- وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان».

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٣٠، ٢٠٢، والترمذي في الأمثال ما جاء في مثل الصلاة والصيام ٢٨٦٣ وقال: «حديث حسن صحيح غريب» والحاكم ١/ ٤٢١ وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: القيامة، ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾، «إلا» أداة حصر.

أي: ما أمر قيام الساعة والقيامة إلا كخطفة البصر، وطرفة عين، ، أي: إغماضها وفتحها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: ٥٠].

﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾، أي: أو أمر الساعة أقرب من لمح البصر؛ لأنه تعالى إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، وكل شيء عليه يسير، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ [لقمان: ٢٨]، ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، «إن» للتوكيد، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ متعلق بـ﴿قَدِيرٞ﴾ قدم عليه للتأكيد أيضًا، وبيان عموم قدرته تعالى- على كل شيء، لسعة علمه وتمام قدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات كمال عظمة الله تعالى، ووحدانيته في ربوبيته، وتفرده بالخلق والإماتة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾.

٢- تمام قدرة الله تعالى على البعث وإحياء الخلق بعد موتهم؛ لأنه هو الذي خلقهم ثم يتوفاهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

٣- في إثبات تفرده تعالى بالإحياء والإماتة، وتمام ربوبيته دلالة على كمال ألوهيته، ووجوب إفراده بالعبادة وحده لا شريك له.

٤- أن أكثر الناس يتوفى قبل بلوغ أرذل العمر، إما في بطن أمه أو وليدًا أو طفلًا صغيرًا أو مميزًا أو بالغًا أو شابًّا أو كهلًا أو شيخًا كبيرًا، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر، وهم قليل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾.

٥- أن لقوى الإنسان العقلية والبدنية وحواسه وإدراكه عمرًا لا تتجاوزه غالبًا، فإذا وصل إليه فقد هذه القوى والحواس، وصار إلى التخريف والنسيان، ونسي ما علمه

من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾.

٦- ضعف الإنسان، وأنه كما بدأ من ضعف يعود إلى ضعف، كما قال تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الروم: ٥٤].

ويجب على الإنسان ألا يغفل عن هذا؛ ليحمله ذلك على استمداد القوة من القوي المتين، ويعرف قدر نفسه، ويخضع ويذل لربه، ويسأله لطفه وألا يرده إلى أرذل العمر.

٧- أن لكل شيء مما خلقه الله تعالى في هذا الكون نهاية، وبعد كل قوة ضعفًا، وأن ما زَمَّ هضَمَ، وما طار وقع، وما ارتفع اتضع، وأن دوام الحال من المحال، فالقوة يعقبها الضعف، والقدرة يعقبها العجز، والحياة يعقبها الموت، وقد أحسن القائل:

إذا كنت تهوى العيش فاقنع توسطًا   فعند التناهي يقصر المتطاولُ
تُوقّى البدورُ النقصَ وهي أهلةٌ   ويدركُها النقصانُ وهْيَ كوامِلُ(١)

٨- إذا كان الإنسان عرضة للنسيان، إذا لم تعاجله المنية وطال عمره قد يُردُّ إلى حال لا يعلم فيها من بعد علم شيئًا، فينبغي له كتابة ما لديه من شهادات أو نقول رواها مشافهة في مسائل العلم عن العلماء المعتبرين، وغير ذلك من القضايا التي تحتاج إلى تدوين وإثبات، مما فيه براءة الذمة وبيان الحق، ومنفعة عامة أو خاصة، كما يجب عليه الوصية قبل ذلك بماله وما عليه من حقوق.

٩- أن من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان نعمة العقل والفهم والعلم التي كرمه الله بها وميزه فيها عن الحيوان، يجب عليه شكرها، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك: ٢٣].

١١- إثبات صفة العلم الواسع، والقدرة التامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾.

١٢- أن الله عز وجل بعلمه الواسع وقدرته التامة على كل شيء خلق الخلق ثم

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «شرح منهاج البلاغة» (ص١٦٣).

يتوفاهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

١٣- تفضيل الله عز وجل بحكمته البالغة بعض الناس على بعض في الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿۝٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾.

١٤- أن الرزق كله من الله تعالى، وهو الرزاق، وخير الرازقين؛ لقوله تعالى: ﴿۝٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾، وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وقوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾.

١٥- أن من فضلهم الله في الرزق لا يقبلون ولا يرضون أن يشاركهم مماليكهم وعبيدهم في رزقهم ويكونوا فيه سواء؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

١٦- إذا كان هؤلاء المرزوقون لا يقبلون، ولا يرضون أن يشاركهم مماليكهم في رزقهم ويساووهم فيه، فكيف يرضون بجعل الشركاء لله في إلهيته؟! وكيف يرضون لله من الشركاء ما لا يرضونه لأنفسهم؟! وكيف يجيزون أن يرضى الله بالشركاء، وهم لا يرضون بهم ألبتة لأنفسهم؟!

١٧- أن الأنفس جبلت على الشح وحب الذات والانفراد بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

١٨- إثبات ملك اليمين، وأن المملوك لا يَملك بل يُملك؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، وقوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾.

١٩- الإنكار على المشركين جحودهم نعمة الله عليهم برزقه إياهم، وكفرهم بإشراكهم غير الله معه في عبادته وسلطانه وملكه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بجعله عز وجل لهم من أنفسهم أزواجًا، ومن أزواجهم بنين وحفدة؛ ورزقهم من الطيبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

٢١- أن نعمة الزوجية من أعظم النعم، وكون الزوجين من جنس واحد نعمة أخرى؛ ليحصل السكن والأنس والطمأنينة.

٢٢- أن نعمة الإنجاب والنسل من أجلِّ النعم وأكبرها؛ لأن الأولاد هم زينة الحياة الدنيا وبهجتها، وبهم اكتمال سرور والديهم.

٢٣- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا، فجعل من أسباب الإنجاب والتناسل الزواج والارتباط بين الذكر والأنثى.

٢٤- تكفل الله عز وجل برزق العباد وأزواجهم وأولادهم وحفدتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾.

٢٥- الإنكار على المشركين إيمانهم بالباطل وكفرهم نعمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

٢٦- ذم المشركين والنعي عليهم في عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا ولا يقدر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

٢٧- أن من عبد مع الله غيره فهو لم يعبد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فمن أشرك مع الله غيره في العبادة لم تنفعه عبادته لله، والله غني عن شركه، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

٢٨- أن الخلق كلهم لا يملكون رزق أحد، ولا يقدرون على ذلك، كما لا يملكون ولا يقدرون على منع الرزق عنه.

٢٩- نهي الله عز وجل أن تضرب له الأمثال والأشباه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾. وذلك لأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، ولا يماثله أحد من خلقه، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال ابن القيم: «فالله سبحانه لا تضرب له الأمثال التي يشترك هو وخلقه فيها، لا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شمولًا ولا تمثيلًا، وإنما يستعمل في حقه قياس الأولى»(١).

٣٠- إثبات علم الله تعالى الواسع لكل شيء، ومن ذلك علمه بأنه لا مثيل له ولا نظير، وأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

٣١- جهل المشركين وعدم علمهم، فلا معرفة لهم بالله، ولا علم لهم فيما يجب عليهم من تعظيمه وإفراده وحده بالعبادة؛ ولهذا عبدوا آلهة من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٢- نعمة الله تعالى على العبد بضرب الأمثال في القرآن لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ الآية.

٣٣- أنه لا يستوي العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا يملك شيئًا مع الحر الغني الذي رزقه الله منه رزقًا حسنًا، فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾، أي: لا يستوون.

٣٤- أن العبد لا يملك شيئًا، لكن إن ملّكه سيده ملك، وهو وما ملك ملك لسيده؛ قال ﷺ: «من باع عبدًا وله مال، فماله للذي باعه إلا أن يشترط المبتاع»(٢).

٣٥- بطلان أن يكون لله تعالى مثيل أو شريك؛ لأنه إذا كان العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء لا يستوي مع الحر الغني المرزوق المنفق سرًّا وجهرًا مع كونهما مخلوقين لله تعالى، فكيف يستوي المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره رزقًا ولا يقدر على شيء، من الأصنام والأوثان، ويشرك مع الخالق العظيم الذي بيده الملك والتدبير والرزق والعطاء والمنع القادر على كل شيء؟ هذا في غاية البطلان والظلم والبهتان.

٣٦- امتداح الإنفاق من رزق الله سرًّا وجهرًا، والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة والشرب ٢٢٥٠، ومسلم في البيوع، ١٥٤٣.

٣٧- أن الإسرار في النفقة أولى من الجهر بها؛ لهذا قدم الإسرار على الجهر في الآية، وذلك أن الإسرار أدل على الإخلاص، وأستر للمنفَق عليه.

٣٨- جواز الجهر بالنفقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَهۡرًاۖ﴾، وقد يكون في بعض الحالات أولى من الإسرار، كما إذا كان بهدف التشجيع على الإنفاق وسن سنة حسنة.

٣٩- أن لله تعالى وحده المحامد كلها استحقاقًا واختصاصًا؛ لقوله تعالى إثباتًا لاتصافه بصفات الكمال، وتنزيهًا لنفسه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾.

٤٠- أن أكثر الخلق جهلة لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وما يجب لله من التعظيم، وما له من صفات الكمال والوحدانية؛ ولهذا عبدوا من دونه آلهة لا ترزقهم ولا تقدر على شيء، وأشركوهم مع الله وسووهم به؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٤١- أن الجهل داء قاتل ومهلك يُبعد صاحبه عن سبيل الحق والهدى، ويرديه في متاهات الغواية والضلال والردى.

٤٢- لا يستوي رجل أبكم لا يقدر على شيء، وهو عالة على مولاه، أينما يرسله ومهما يطلب منه لا يأتي بخير، ورجل يأمر بالعدل في أقواله، وهو على طريق مستقيم عدل في أفعاله وجميع أحواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وإذا كان هذان الرجلان لا يستويان، لما في الأول من صفات النقص من كل وجه، ولما في الآخر من صفات الكمال من الأمر بالعدل في أقواله والاستقامة على الحق في أفعاله وجميع أحواله، وهما مخلوقان لله، بل ومن جنس واحد، فكيف تسوى الآلهة التي تُعبد من دون الله مما لا يملك رزقًا ولا يقدر على شيء، بالله عز وجل الذي يأمر بالعدل والقسط في أقواله، وهو سبحانه على صراط مستقيم في أفعاله وأحكامه؟! هذا كسابقه في غاية الظلم والزور والبطلان.

٤٣- امتداح الآمر بالعدل في أقواله المستقيم على الصراط المستقيم في أفعاله.

٤٤- اختصاص الله تعالى وحده بعلم ما غاب عن الخلق في السموات والأرض وملكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

٤٥- التهديد بقرب الساعة، وسرعة قيامها، وأنها حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾.

٤٦- إثبات وتأكيد عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ
مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ
لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ
نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

لما أنكر الله عز وجل على المشركين عبادتهم من دونه من لا يملك لهم رزقًا، وضربهم الأمثال والأنداد له، وضرب مثلين لبطلان ذلك؛ أتبع ذلك ببيان دلائل تمام قدرته وعظيم نعمه على عباده، وكمال ربوبيته المستلزم كمال إلهيته ووحدانيته.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أي: والله وحده الذي أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ الجملة حالية، أي: حال كونكم لا تعلمون شيئًا، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فيعم، أي: لا تعلمون أي شيء، وفي هذا تأكيد لعظم نعمته عليهم بتعليمه إياهم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، أي: وخلق لكم السمع الذي تدركون به الأصوات، والأبصار التي تشاهدون بها المرئيات، والأفئدة، وهي القلوب التي تعقلون بها وتتفكرون وتفهمون.

وخص هذه الثلاثة من بين الجوارح لأهميتها، فهي وسائل العلم والمعرفة والهدى؛ ولشرفها وفضلها، وهي مخلوقة مع الإنسان منذ خلق في بطن أمه، وهي تنمو على التدريج شيئًا فشيئًا حتى يبلغ أشده، فالسمع والبصر وسيلتا نقل المسموع والمبصر إلى الفؤاد، والفؤاد هو محل المعرفة والفهم والتفكر والتدبر، والهداية والصلاح، أو ضد

ذلك، وهو مما ميز الله به الإنسان عن سائر الحيوانات.

والمعنى: وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة حين خلقكم في بطون أمهاتكم، وليس بعد إخراجكم من بطون أمهاتكم، والواو لا تقتضي الترتيب، بل هي لمطلق الجمع إلا إذا دل دليل على اقتضائها الترتيب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] حيث دل قوله ﷺ «**ابدؤوا بما بدأ الله به**»[(١)] على وجوب البداءة بالصفا.

قال ابن القيم: «والصحيح أنه إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها، وهذا وإن كان مرادًا به العين والأذن، فالقوة السامعة والباصرة مودعة فيها، وأما الإدراك بالفعل فهو موقوف على زوال الحجاب المانع منه، فلما زال بالخروج من البطن عمل المقتضى عمله»[(٢)].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: لأجل أن تشكروا الله تعالى على نعمة إخراجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا، وجعل وسائل العلم لكم: السمع والأبصار والأفئدة، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون.

أي: لأجل أن تشكروا الله على ذلك بطاعته والبعد عن معصيته، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الآيتان: ٢٣، ٢٤].

والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح بالاعتراف بالنعمة باطنًا وظاهرًا، ونسبتها إلى مسديها ومواليها، وهو الله عز وجل، واستعمالها في طاعة الله تعالى، والاستعانة بها على القيام بذلك.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

امتن عز وجل عليهم بإخراجهم من بطون أمهاتهم ومنحهم السمع والأبصار

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧- ٤٨.

والأفئدة مبينًا تمام قدرته على ذلك، ثم أتبع ذلك ببيان تمام قدرته على تسخير الطير وإمساكها في جو السماء.

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة وخلف بالخطاب: «ألم تروا»، وقرأ الباقون بالغيب: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ والاستفهام للتقرير والخطاب للعموم.

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ حال، أي: مذللات ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾، أي: بين السماء والأرض يصارعن الهواء والتقلبات الجوية المختلفة من برد وحر ومطر وغبار وغير ذلك.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: ما يمسكهن من السقوط إلا الله تعالى وحده، بقدرته التامة، الذي أقدرهن على الطيران، وهيأهن له، ويسره لهن، وسخر الهواء لحملهن، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الآية: ١٩].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في تسخير الطير تطير بين السماء والأرض وإمساكهن من السقوط ﴿لَآيَاتٍ﴾ اللام للتوكيد، أي: إن في ذلك لعلامات ودلالات على عظمة الله عز وجل وتمام قدرته ووحدانيته.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لقوم يؤمنون بالله تعالى وبما أوجب عليهم الإيمان به ويصدقون برسله وآياته ووعده ووعيده وخبره.

وخصهم بذلك؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات ويتدبرونها ويتفكرون فيها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ﴾، أي: والله وحده الذي خلق لكم ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تبنونها من الحجر والطين والمدر﴿سَكَنًا﴾، أي: مساكن ودورًا ومنازل تأوون إليها وتسكنون فيها، وتستقرون فيها في الحضر، تستر حرماتكم، وتحفظ أموالكم ومتاعكم، وتكنكم من الحر والبرد، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ من الأدم في السفر، وهي بيوت العمود

والخيام.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾، أي: يخف عليكم حملها ونقلها.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ بإسكان العين، وقرأ الباقون: «ظعَنكم» بفتحها، أي: يوم ترحالكم.

أي: تستخفون حملها في أسفاركم يوم ترحالكم وسيركم ويوم إقامتكم للراحة والنوم، تكنكم أنتم وأمتعتكم من الحر والبرد والمطر، ونحو ذلك.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾، أي: ومن أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعز.

﴿أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، «أثاثًا» منصوب عطفا على «بيوتا»، أي: أثاثًا من الأواني والأوعية، والبسط والفرش والثياب وغير ذلك مما يتمتع به؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: تتمتعون به إلى أجل مسمى ووقت معلوم محدد، ثم يزول أو تزولون عنه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾، أي: جعل لكم من الذي خلقه من المخلوقات مما لا صنع لكم فيه ﴿ظِلَالًا﴾ تستظلون فيه من حر الشمس، كالأشجار والجبال والآكام ونحوها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، «أكنانا»: جمع «كن» وهي: الغيران والكهوف والمغارات، أي: وجعل لكم من الجبال كهوفًا ومغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾، أي: ثيابًا وملابس من القطن والكتان والصوف وغير ذلك ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، أي: تقيكم حر الشمس، وحر لفح الهواء الحار.

ولم يذكر البرد؛ لأن أول هذه السورة في أصول النعم وآخرها في مكملاتها، والوقاية من البرد من أصول النعم؛ لأنه من الضرورة، وقد ذكره أول السورة في قوله:

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ [الآية: ٥][(١)].

﴿وَسَرَابِيلَ﴾، أي: وجعل لكم سرابيل، أي: دروعًا من الحديد المصفح والزرد، وغير ذلك ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾، أي: تقيكم في حربكم وقتالكم من السلاح.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى الذي أنعم الله به عليهم من النعم من قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ إلى قوله هنا: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

ويجوز أن تكون من قوله قبل ذلك: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ والأول أولى.

﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يجعلها تامة سابغة تجل عن الحصر؛ لتستعينوا بها على أمر دينكم ودنياكم؛ ولهذا سميت هذه السورة سورة النِّعم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، أي: لأجل أن تسلموا، أي: تستسلموا لله بالتوحيد؛ وتنقادوا له بالطاعة، والخلوص من الشرك، فتصرفوا هذه النعمة في طاعة الله تعالى موليها ومسديها، وتنسبوها إليه وحده.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أي: فإن تول هؤلاء المشركون وغيرهم عن الإسلام، بعد الامتنان عليهم بنعم الله، وبيان تمام قدرته، فلا عليك منهم، ولا تبالهم، ولا تهتم لهم.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الفاء: عاطفة، و«إنما» أداة حصر، أي: فما عليك إلا البلاغ المبين، و«البلاغ»: الإيصال، أي: ما عليك إلا إيصال الرسالة والدعوة إليهم، وقد فَعَلْتَ.

﴿الْمُبِينُ﴾، أي: البيِّن في نفسه الظاهر الواضح؛ والمبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال.

والمعنى: ما عليك إلا إيصال الرسالة وتبليغ الدعوة البلاغ المبين، وقد فعلت.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وشهادة له بالبلاغ المبين، ووعيد وتهديد للمكذبين من قومه.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

---

(١) انظر (دقائق التفسير) ٣/ ٤/ ٣٢٧.

قوله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: يعرف هؤلاء المشركون المكذبون ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ عليهم.

و«نعمة» مفرد مضاف إلى معرفة، فيعم جميع نعم الله تعالى عليهم مما ذكر في الآيات السابقة وغيرها، وأعظم تلك النعم وأهمها نعمة بعثته ﷺ، وما أنزل الله عليه من الكتاب والحكمة.

﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، أي: ثم ينكرون نعمة الله بعد معرفتها بإنكارهم رسالة النبي ﷺ، وتكذيبهم لما جاء به من الوحي، مع اعترافهم بأنه ﷺ الصادق الأمين، وأن ما جاء به من القرآن ليس من كلام البشر، لكنهم كما قال الله تعالى عن قوم موسى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

وبإنكارهم ما يتقلبون فيه من سائر النعم من نعمة الخلق والسمع والأبصار والأفئدة والبيوت والأثاث والمتاع والظلال والأكنان والسرابيل، وغير ذلك، بنسبة تلك النعم إلى غير الله، وكفرها بالشرك به ومعصيته، وعدم شكرها بالإيمان به وطاعته.

﴿وَأَكۡثَرُهُمُ الكاذبون﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الكذب في اتخاذهم آلهة من دونه، وإشراكهم إياهم معه في العبادة.

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان على العباد بإخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعل السمع والأبصار والأفئدة لهم، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾.

٢- أن الإنسان يخرج من بطن أمه وهو لا يعلم شيئًا، ثم يمنحه الله تعالى العلم، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١- ٤].

٣- أن من أعظم النعم على بني آدم ما أعطاهم الله من السمع والأبصار والأفئدة التي هي أشرف الأعضاء وأهمها، فالسمع والأبصار وسيلتا وصول العلم والهدى والنور إلى الأفئدة، والأفئدة هي محل التفكير والتدبر، ومحل الصلاح أو ضده؛ لهذا خص هذه الأعضاء بالذكر.

٤- أن الحكمة من إخراج بني آدم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ومنحهم السمع والأبصار والأفئدة، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمونه؛ لأجل أن يشكروا الله تعالى بالاستدلال بذلك على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، والاعتراف بنعمه ونسبتها إليه، واستعمالها في طاعته، والبعد عن معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٥- توجيه الأنظار والعقول للنظر والتأمل والتفكر في قدرة الله تعالى وحكمته في تسخير الطير تطير بين السماء والأرض لا يمسكها من السقوط إلا هو عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾.

٦- أنه لا ينتفع بالنظر والتفكر في آيات الله الكونية في الطير وغيرها الدالة على تمام قدرته ووحدانيته إلا المؤمنون؛ لهذا خصهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٧- الامتنان على العباد بما جعل عز وجل لهم من بيوت للسكن في الحضر، ومن جلود الأنعام بيوتا يستخفونها في السفر، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها من أثاث ومتاع إلى حين، والاستدلال بذلك على تمام قدرته ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٨- التزهيد في الدنيا وأن كل ما فيها من النعم هو مجرد متاع إلى أجل مسمى، وسرعان ما يفنى، إما بزواله هو، أو زوال الإنسان عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٩- الامتنان على العباد بجعله تعالى لهم مما خلق ظلالًا، ومن الجبال أكنانا، وسرابيل تقيهم الحر، وأخرى تقيهم الحرب والقتال، وبيان تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾.

١٠- الامتنان على العباد بإتمام نعمته عز وجل عليهم بالنعم المذكورة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.

١١- أن الحكمة من إتمام النعمة على العباد لأجل أن يستسلموا لله تعالى، وينقادوا لطاعته، ويعبدوه وحده لا شريك له، شكرًا له تعالى على نعمه؛ لقوله تعالى:

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

١٢- تسلية النبي ﷺ، وبيان أنه ليس عليه إلا البلاغ المبين، فلا يبالي بالمشركين المكذبين، ولا يهتم لهم. والشهادة له بأنه بلغ البلاغ المبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أي: فما عليك إلا البلاغ المبين، وقد بلغت وأبنت الحق لهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

١٣- التهديد لمن تولى وأعرض عن الله تعالى وعن اتباع الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

١٤- معرفة المشركين المكذبين لنعمة الله تعالى، وأن كل ما يتقلبون فيه من النعم هو من الله عز وجل، وإنكارهم لذلك، ونسبتهم تلك النعم إلى غيره، وإنكارهم أعظم نعمة أنعم الله بها على العباد بإنكارهم رسالته ﷺ، وتكذيبهم ما أنزل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

١٥- بلوغ أكثر المشركين المنكرين لنعمة الله تعالى ولرسالته ﷺ المتخذين مع الله آلهة أخرى الغاية في الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

١٦- التحذير من إنكار نعمة الله تعالى بعد معرفتها، وأن من عرف نعمة الله تعالى ثم أنكرها فقد بلغ الغاية في الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

لما عدد نعمه تعالى على العباد، وذكر إنكار المشركين لها، وأن أكثرهم الكاذبون، أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، أي: واذكر يا محمد لقومك يوم القيامة وأهواله، حين نبعث من كل أمة من الأمم شهيدًا عليهم من أنفسهم وهو رسولهم يشهد عليهم بما أجابوه فيما بلغهم عن الله تعالى وعلى أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ [النحل: ٨٩]

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنه فات أوانه؛ لأن الآخرة دار جزاء فقط، لا دار اعتذار ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: ولا هم إذا طلبوا العتبى والرجوع إلى الدنيا؛ ليستدركوا يجابون ويعتبون، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾

[غافر: ٥٢] وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

فإنهم كاذبون فلو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، أي: وإذا رأى الذين ظلموا بالشرك والكفر والمعاصي ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، أي: عذاب النار.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط.

أي: فلا يخفف عنهم العذاب من حين يرونه، لا من شدته، ولا من حيث استمراره ودوامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا هم يؤخرون ويمهلون ويؤجلون، بل يأخذهم العذاب سريعًا.

قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى

﴿ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾، أي: وإذا رأى المشركون يوم القيامة شركاءهم الذين أشركوهم مع الله وعبدوهم من دونه، وتيقنوا بطلان إشراكهم مع الله، وسُقط في أيديهم، ولم يُمكنهم الإنكار ولا الاعتذار.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا﴾، أي: قال المشركون: يا ربنا.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَ﴾، أي: الذين كنا ندعوهم ونعبدهم من دونك، أي: نعترف اليوم أنه لا نفع فيهم ولا شفع، ونكفر بهم ونعلن عداوتنا لهم.

﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾، أي: فألقى الآلهة إلى عابديهم، أي: قالوا لهم: ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إنكم في جعلكم إيانا شركاء لله لكاذبون، فلسنا شركاء لله تعالى، ولا نستحق ذلك، ولم نأمركم بذلك.

فظهرت بينهم العداوة والبغضاء، وتبرأ بعضهم من بعض، وكفر بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿وَأَلۡقَوۡاْ﴾، أي: وألقوا كلهم جميعًا؛ المشركون وشركاؤهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿ٱلسَّلَمَ﴾، أي: الاستسلام، أي: استسلموا لله تعالى كلهم جميعًا وذلوا، فما منهم أحد إلا سامع ومطيع.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، أي: استسلمت وذلت

وخضعت، وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أي: غاب عنهم وذهب واضمحل، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: وغاب عنهم وذهب افتراؤهم، أو الذي كانوا يفترونه، أي: يختلقونه من الشركاء لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذين كفروا بالله وجحدوا وحدانيته ﴿وَصَدُّوا۟﴾، أي: انصرفوا بأنفسهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: عن طريقة وصراطه المستقيم، فانصرفوا عن الإيمان إلى الكفر، وعن التوحيد وإخلاص العبادة لله إلى الشرك واتخاذ الأنداد.

وصدوا غيرهم وصرفوهم عن دين الله تعالى القويم، وصراطه المستقيم إلى الكفر والشرك والضلال المبين.

كما فعل المشركون مع عامر بن الطفيل الدوسي في تحذيرهم له من سماع كلام محمد، حتى وضع في أذنيه قطنًا حتى لا يسمع كلامه(١).

وكما فعلوا مع الأعشى حينما جاء إلى مكة قاصدًا الرسول ﷺ؛ ليعلن إسلامه، حاملًا قصيدته المشهورة:

ألم تغتمضْ عيناك ليلة أرمدَا ... وبتَّ كما بات السليم مسهدَا

والتي تعتبر من روائع الشعر، فما كان من المشركين إلا أن اعترضوه، فصدوه وصرفوه عن الإسلام(٢).

(١) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٦٠)، «دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص٢٣٨)، «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦٢)، (٣٩٥٢).

(٢) انظر: «ديوان الأعشى» ص١٨٥ - ١٨٧، و«السيرة النبوية» ٢/ ٢٦ - ٢٨، و«الشعر والشعراء» ص٢٧٥.

﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ على صدهم الناس عن سبيل الله، ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ونكر ﴿عَذَابًا﴾؛ لأن عذاب صدهم الناس عن دين الله أشد وأعظم من عذاب كفرهم بأنفسهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب إفسادهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله وخروجهم عن طاعة الله تعالى وحدوده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: واذكر يا محمد يوم ﴿نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ وهو نبيهم، كما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النحل: ٨٤]

واذكر ما منحك الله في ذلك اليوم من الشرف العظيم والمقام الرفيع؛ ولهذا قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾، أي: على أمتك، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ علي**. قلت يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: **نعم**. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: **حسبك الآن**. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٠.

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، ﴿تِبۡيَٰنٗا﴾ مفعول لأجله، أي: وأنزلنا عليك القرآن لأجل بيان وإيضاح علم كل شيء من أصول الدين وفروعه، وأحكام الدارين، وعلم ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل ما يحتاج إليه العباد في دينهم ودنياهم وأخراهم.

﴿وَهُدٗى﴾ معطوف هو وما بعده على ﴿تِبۡيَٰنٗا﴾ داخل ضمن التعليل. ﴿وَهُدٗى﴾، أي: وهدى هداية خاصة للمسلمين لما فيه من العلم النافع، والتوجيه للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

كما أنه هدى هداية عامة للناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿وَرَحۡمَةٗ﴾، أي: ورحمة خاصة للمسلمين، في الدنيا والآخرة، ينالون به السعادة في الدنيا ودخول الجنة والثواب العظيم في الآخرة.

كما أن نزوله رحمة عامة للخلق كلهم، كما قال عز وجل مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾، أي: وبشرى للمسلمين خاصة بالتوفيق والعزة والسعادة في الدنيا والآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات شهادة كل نبي على أمته والوعيد والتهديد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

٢- أنه في ذلك اليوم لا يؤذن للذين كفروا بالاعتذار، ولا يجابون إذا طلبوا العتبى، والرجوع إلى الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

٣- شدة عذاب الذين ظلموا بالشرك والكفر والمعاصي في النار ودوامه وعدم

تخفيفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾.

٤- سرعة أخذ العذاب لهم عند رؤيتهم له وعدم إنظارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

٥- الجمع بين المشركين وشركائهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ ٩٩].

٦- اعتراف المشركين عندما يرون شركاءهم يوم القيامة، ويظهر لهم بطلان ما كانوا عليه من إشراكهم مع الله، ويسقط في أيديهم أن شركاءهم لا يملكون نفعًا ولا شفعا، وكفرهم بهم، وظهور العداوة والبغضاء بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ﴾.

٧- تكذيب آلهة المشركين لهم في زعمهم أنهم شركاء مع الله، وأنهم أمروهم بعبادتهم، وظهور العداوة والبغضاء بينهم وبين عابديهم، وكفر بعضهم ببعض، ولعن بعضهم بعضا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٨- استسلام المشركين وشركائهم في ذلك اليوم كلهم لله تعالى، وخضوعهم وذلهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ﴾ [النحل: ٨٧]. كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الآيات: ٢٤ ٢٦].

٩- غياب ما كان المشركون يفترونه من الشركاء لله وتخليهم عنهم أحوج ما كانوا إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

١٠- جمع المكذبين للنبي ﷺ بين الكفر والصد عن سبيل الله بأنفسهم وبين صد الناس عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ﴾ [الآية: ٢٦].

١١- زيادة الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله عذابًا آخر فوق العذاب، فالعذاب الأول بسبب كفرهم، والعذاب الثاني بسبب صدهم عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٢- أن السبب في زيادة المذكورين عذابًا فوق العذاب هو إفسادهم في الأرض بصد الناس عن سبيل الله، بعد فسادهم بأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾.

١٣- تفاوت الكفار في عذابهم حسب أعمالهم، فأعمالهم درجات، وعذابهم دركات.

١٤- إثبات شهادة الرسول ﷺ على هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

١٥- الامتنان على الرسول ﷺ وعلى أمته بإنزال القرآن تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

١٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله عز وجل علو القدر وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، وأنه منزل غير مخلوق.

١٨- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه بإنزال القرآن عليه وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

١٩- أن القرآن الكريم تبيان لكل شيء مما يحتاج إليه الخلق في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢٠- أن القرآن الكريم هدى للمسلمين هداية خاصة، ورحمة لهم رحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ كما أنه هدى ورحمة للناس عامة.

٢١- أن القرآن بشارة للمسلمين بالفرح والنصر والتمكين والسعادة في الدارين والفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

هذا خبر من الله- عز وجل- وثناء منه على نفسه وشرعه، وقد جمع الله- عز وجل- في هذه الآية أصول التشريع، وهي الأمر والنهي، وهي بيان لقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

عن عثمان بن مظعون- رضي الله عنه- أنه مر على النبي ﷺ وهو جالس بفناء بيته فكَشَرَ(١) إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «**ألا تجلس؟**» فقال: بلى. فجلس ثم أوحي إليه هذه الآية، فقرأها عليه. قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمدًا ﷺ»(٢).

وقال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية»(٣).

---

(١) أي: تبسم في وجه النبي ﷺ حتى بدت أ سنانه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣١٨).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٧).

لهذا أمر الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز- رحمه الله- بتلاوتها في الخطبة يوم الجمعة. وانتدب أكثم بن صيفي رجلين إلى النبي ﷺ- فتلا عليهما رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فأتيا أكثم، فقرآها عليه، فقال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا»(١).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾، ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد والاهتمام بهذا الخبر الذي معناه الأمر.

والأمر: طلب الفعل على جهة الاستعلاء، إذا كان من أعلى إلى من هو دونه. فإن كان من مساوٍ فهو التماس، وإن كان من أدنى إلى من هو فوقه فهو دعاء.

و«العدل»: القسط والاستقامة، بفعل الواجبات، وترك المحظورات، بأداء حقوق الله- عز وجل- وحقوق النفس، وحقوق الخلق، في الأقوال والأفعال والأحكام، في الغضب والرضا. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

وقال ﷺ: «**إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه**»(٢).

والإحسان: فعل المندوبات والمستحبات؛ قولًا وفعلًا وبذلًا، فالعدل واجب والإحسان فضيلة، فالله- عز وجل- أوجب العدل وندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى:

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥١٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٣) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥].

وكما أن العدل بمعناه العام إعطاء كل ذي حق حقه، فإن الإحسان بمعناه العام والذي هو أعلى درجات الإحسان، كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وهو بهذا المعنى يشمل جميع أنواع العبادة من الأقوال والأفعال، والبذل، والترك، وغير ذلك، وهو على هذا قسمان: إحسان في عبادة الله- عز وجل- بالإخلاص له- عز وجل- والمتابعة لرسوله ﷺ، وإحسان إلى عباد الله وخلقه بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**»(٢).

وقدم عز وجل في أمره «العدل» لأنه يتناول فعل الواجب وترك المحرم، وهو حقه- عز وجل- على العباد، ولهذا لما جاء الرجل الذي يسأل عن الإسلام قال له رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة. فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطوّع، وصيام شهر رمضان. فقال: هل عليَّ غيره؟ فقال: لا، إلا أن تطوّع، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع**»، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**» وفي رواية: «**أفلح وأبيه إن صدق، أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»(٣).

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه: «**من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأبوداود في الضحايا (٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٦)، ومسلم في الإيمان (١١)، وأبوداود في الصلاة (٢٩١)؛ من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤).

وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه**»(١).

فالعدل كل العدل والواجب العض على فعل الواجبات بالنواجذ وإقامتها وإتمامها كما شرع الله، والبعد كل البعد عن المنهيات، والاجتهاد بعد ذلك بفعل النوافل والمستحبات.

وقد ظهر عند كثير من الناس اليوم التشبث ببعض النوافل مع الإخلال بالواجبات حتى كثر هذا فيمن يتوسم فيه الحرص على الخير والصلاح، بل وفي بعض المنتسبين إلى العلم، يترك كثير منهم ما يجب عليه من الأذان أو الإمامة، أو العمل الوظيفي الذي يتقاضى عليه أجرًا بحجة أنه ذاهب للعمرة، وتفوته صلاة الجماعة بحجة أنه ذاهب لصلاة جنازة، أو للتراويح في مسجد بعينه، ونحو ذلك. وما حال هؤلاء إلا كما قيل: «يعمر قصرًا ويهدم مصرًّا».

والنوافل مطلوبة ومرغب فيها وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»(٢).

لكن النوافل إنما تنفع ويرقع بها نقص الفرائض عند الحرص على إتمام الفرائض، أما مع التهاون اليومي شبه المتعمد في الفرائض- كما هو حال كثير من الناس اليوم- فإن هذا خرق عظيم خطير، يخشى أن لا تُرقِّعه النوافل مهما كثرت.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: ويأمر بإعطاء صاحب القربى حقه الواجب والمستحب، ببره وصلته، بالزيارة والسلام، والإحسان إليه قولًا وفعلًا وبذلًا، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكل من كان أقرب فحقه أولى وأوجب.

وخص إيتاء ذي القربى مع أنه داخل في العدل والإحسان؛ لعظم حق القريب، وكثرة التهاون به والغفلة عنه.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ الجملة معطوفة على التي قبلها، وبينهما

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا جزء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق.

مقابلة بين قوله: ﴿يَأۡمُرُ﴾، ﴿وَيَنۡهَىٰ﴾، وبين قوله: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ وبين قوله: ﴿عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾.

و«النهي» ضد الأمر، وهو طلب الكف والترك على جهة الاستعلاء، إذا كان من أعلى إلى من هو دونه، فإن كان من مساوٍ فهو التماس، وإن كان من أدنى إلى من هو فوقه كان دعاء.

و﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ كل ما يستفحش ويستقبح من قول أو فعل أو اعتقاد في الشرع، ولدى العقول والفطر السليمة والأعراف المستقيمة، مما هو ظاهر الفساد ويضر بالمجتمع والأفراد والبلاد والعباد كالشرك بالله والسحر وقول الزور والقتل بغير حق، والسرقة والزنا، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى حكاية عن لوط عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾: ما ينكره الشرع والعقول والفِطر السليمة والأعراف المستقيمة، من قول أو فعل أو اعتقاد، وهو أعم من الفحشاء، فعطفه عليها من عطف العام على الخاص، وقدمت عليه لفحشها وقبحها وشدة أثرها وانتشار ضررها.

ومن المنكر ترك الواجبات، كترك الصلاة والزكاة والصيام والحج، وصلاة الجماعة، ونحو ذلك.

ومنه ارتكاب المنهيات كعقوق الوالدين، والغيبة والنميمة والظهار ونحو ذلك، قال تعالى في المظاهرين من نسائهم: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ [المجادلة: ٢].

ومما يدل على التداخل بين الفحشاء والمنكر إطلاق كل منهما على بعض الأعمال كاللواط، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي

نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

وقد حمل بعض المفسرين الأمر بالعدل والإحسان على فعل المأمورات، وحمل النهي عن الفحشاء والمنكر على ترك المنهيات.

وقال الطبري[1]: «وقد ذكر عن ابن عيينة أنه كان يقول في تأويل ذلك: إن معنى العدل في هذا الموضع: استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملًا.

وأن معنى الإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته، وأن الفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته».

﴿وَٱلْبَغْيِ﴾، أي: وينهى عن البغي. والبغي في الأصل: التعدي ومجاوزة الحد من كل شيء.

والمعنى: وينهى عن التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وهو فحش ومنكر، لكنه خص بالذكر اهتمامًا بالنهي عنه لخطره وعظم ضرره، لما فيه من التعدي والظلم للآخرين، ولأنه قد يخفى فلا يعلم الناس به ولا ينكرونه، بل قد يلبس بلباس الحق وهو اعتداء وظلم.

عن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»[2].

﴿يَعِظُكُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يعظكم.

والموعظة: ذكر الأحكام من الأوامر والنواهي مقرونة بالترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

والمعنى: أن الله يأمركم بالعدل والإحسان وينهاكم عن الفحشاء والمنكر والبغي موعظة لكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تتذكروا، أي: تتعظوا، ولأجل هذا أنزل القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل

---

(١) في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٦- ٣٣٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد- باب البغي (٤٢١١)، وأحمد (٥/ ٣٦، ٣٨).

عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤].

والعجيب أن كثيرًا ممن يشتغلون بالتفسير ينشغلون بالأعاريب والقراءات الشاذة والمعاني والأقوال الضعيفة، ونحو ذلك، وربما خرجوا في ذلك من شيء إلى شيء، بينما يهملون جانب الموعظة والتربية بالقرآن مما يحرك القلوب، ويدعوها إلى التفكر والتأمل، وربما قلل بعضهم من قيمة هذا التفسير، وهذا مكمن الخطأ، فإن تربية الناس بالقرآن وتذكيرهم ووعظهم به هو الذي من أجله أنزل القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

أخبر عز وجل في الآية السابقة أنه يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ثم أتبع ذلك بالأمر بالوفاء بعهد الله، والنهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها في هذه الآيات، وهذا أشبه بالتوكيد لما سبق، وأيضًا فإن الأمر في الآية السابقة بما هو واجب في أصل الشرع وهذه الآيات في الوفاء بما أوجبه الإنسان على نفسه.

قوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ الآية.

رُوِيَ أن هذه الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة، وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالأيمان(١).

و«العهد» الميثاق والعقد، والوفاء به: القيام بموجبه وعدم نقضه، أي: وأوفوا بميثاق الله وعقده الذي واثقتموه وعاهدتموه عليه، من الإيمان والطاعة.

و﴿إِذَا﴾ للظرفية المجردة والتوكيد؛ لأن المخاطبين قد عاهدوا الله على الإيمان والطاعة.

فالمعنى: من عاهد وجب عليه الوفاء بالعهد، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٩)- عن ابن أبي ليلى عن مزيدة.

ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

وعهد الله كل ما عاهدوا عليه الله من الإيمان والطاعة والعبادات والنذور وغير ذلك، وأعظم ذلك وأهمه الإيمان، فإنه عهد وميثاق بين العبد وبين ربه يحتم عليه القيام بمقتضيات هذا الإيمان، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ومن عهد الله ما عاهدوا عليه الرسول ﷺ فهو عهد مع الله، كما قال- عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

ومن ذلك مبايعتهم له ﷺ على الإسلام، وعلى ألا يعصوه في معروف، وبيعة العقبة، ونحو ذلك.

عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا، وحيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم» (١).

كما يشمل عهد الله ما أبرموا بينهم من عقود وعهود ووعود، يجب الوفاء بها فيما بينهم.

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾.

الأيمان: جمع يمين، وهو الحلف. ونقض الأيمان: الحنث فيها، وعدم الوفاء بها.

﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، أي: بعد أن أكَّدتموها، أو مع توكيدكم لها، والتوكيد بمعنى التوثيق، أي: بعد توثيقها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرعد: ٢٥]، أي: بعد توثيقها بالحلف بالله. قال الشاعر:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهبُ (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٨٦٦).

(٢) البيت للنابغة الذبياني. انظر: «جهرة أشعار العرب» (ص٧٢)، «الأغاني» (١١/ ٦) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٢٦١).

والمعنى: ولا تحنثوا في الأيمان بعد توثيقها بالحلف بالله- عز وجل- أو باسم من أسمائه، أو وصفة من صفاته.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم قد جعلتم واتخذتم الله عليكم كفيلًا.

و«جعل» هنا بمعنى: «صيَّر» تنصب مفعولين، الأول لفظ الجلالة «الله»، والثاني: «كفيلًا».

أي: وقد جعلتم الله بتوكيد الأيمان بالحلف به- عز وجل- عليكم ﴿كَفِيلًا﴾، أي: شهيدًا ورقيبًا، وضامنًا وحافظًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿مَا﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: إن الله يعلم الذي تفعلونه، أو يعلم فعلكم. وفي هذا وعيد وتهديد لمن لم يفوا بعهد الله أو نقضوا الأيمان بعد توكيدها، كما أن فيه وعدًا لمن أوفى بعهد الله، وحفظ الأيمان بعد توكيدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، فيها تشنيع وذم لحال الذين ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها، والغرض من ذلك توكيد النهي عن نقض العهود والأيمان بعد توكيدها.

والمعنى: ولا تنقضوا العهد والأيمان بعد توكيدكم لها فتكونوا كالمرأة التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾.

والنقض: ضد الفتل والشد. ﴿غَزْلَهَا﴾ مصدر بمعنى المفعول، أي: المغزول، ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾، أي: من بعد إحكام غزله وفتله وإبرامه بقوة.

﴿أَنكَٰثًا﴾ جمع نِكْث، أي: نقضت غزلها أنكاثًا. أي: أنقاضًا، وقد يكون مصدرًا؛ لأن ﴿نَقَضَتْ﴾ بمعنى نكثت.

أي: ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها أنقاضًا أو نقضًا. ويحتمل كونه حالًا من ﴿غَزْلَهَا﴾، أي: نقضته فإذا هو أنكاثًا.

فشبه حال من ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها بأسوأ الأمثال وأقبحها، وأدلها على سفاهة فاعله ونقص عقله وخسرانه، شبههم بحال المرأة التي تفتل غزلها وتحكمه، ثم تعود فتنقضه خيطًا خيطًا، فتعبت في فتله ثم في نقضه، ولم تستفد إلا الخيبة والعناء والخسران، فكذلك من نقض العهد والأيمان بعد توكيدها فهو ظالم جاهل خاسر سفيه ناقص الدين والمروءة.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من ضمير الواو في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أو في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ ﴾.

أي: تجعلون حلفكم دخلًا بينكم، و«الدَخَل» المكر والغدر والخديعة والخيانة والدغل والفساد، أي: لا تجعلوا حلفكم وسيلة للمكر والغدر والخديعة والخيانة وسببًا للفساد بينكم والعداوة والخصام، بدل أن كانت وسيلة للتوثيق وطمأنة بعضكم بعضًا والسلامة من الاختلاف والعداوة.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، ﴿أَن﴾ للتعليل والسببية، أي: بسبب أن تكون أمة هي أربى من أمة، والأمة: الطائفة والجماعة، و﴿أَرْبَىٰ﴾ بمعنى أزيد وأكثر.

قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠]، أي: زائدة.

وقال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، أي: يزيدها.

ومنه سمي «الربا». قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

والمراد لا يحملكم على نقض العهد والأيمان بعد توكيدها كون المشركين أكثر عددًا وعدة من المسلمين فتركنون إلى المشركين وتوالونهم من دون المؤمنين، تبعًا لأهوائكم وتقديمًا لما تطمعون به من المنفعة الظاهرة العاجلة.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ الجملة مستأنفة، والابتلاء: الاختبار والامتحان، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى المصدر المؤول.

﴿أَن تَكُونَ﴾، أي: إنما يختبركم الله ويمتحنكم بكون أمة أربى من أمة؛ ليظهر منكم صدق الإيمان من عدمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال بعض المفسرين: الضمير في «به» يعود إلى الأمر بالوفاء بالعهد والأيمان.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

اللام: واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله ليبينن لكم، والنون للتوكيد، و«ما» موصولة، أي: والله ليظهرن لكم ربكم أيها الناس يوم القيامة الذي كنتم فيه تختلفون من الأحوال والأعمال وغير ذلك، وذلك بمحاسبته- عز وجل- للناس ومجازاته لهم على أعمالهم، وفوز من آمن وأوفى بالعهد والأيمان بجنات النعيم، وخسران من كفر ونقض العهود والأيمان بمصيره إلى دركات الجحيم- وليس الخبر كالعيان.

وفي هذا وعد لمن أوفى بعهد الله وبالأيمان ووعيد لمن نقض العهد ونكث في الأيمان.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: ولو أراد الله كونًا لجعلكم أيها الناس جماعة واحدة، مجتمعين على الإيمان، متفقين غير مختلفين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

ولكنه- عز وجل- لم يشأ جعل الناس أمة واحدة، بل شاء وأراد أن يكونوا مختلفين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، ولهذا قال بعده: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

و«جعل» بمعنى: «صيَّر» تنصب مفعولين، الأول: ضمير المخاطبين، والثاني: «أمة واحدة».

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: ولكن لم يشأ أن يجعلكم أمة واحدة، بل شاء أن يضل عن الإيمان من يشاء بعدله، ويهدي ويوفق إلى الإيمان من يشاء

بفضله، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للقسم، أي: والله لتسألن، والنون للتوكيد، و«ما» في قوله: ﴿عَمَّا﴾ موصولة أو مصدرية، أي: عن الذي كنتم تعملونه، أو عن عملكم.

أي: والله لتسألن عن الذي كنتم تعملون وتحاسبون وتجازون عليه بالثواب، أو العقاب، فالمؤمنون يُسألون سؤال تقرير، والكفار يسألون سؤال توبيخ وتقريع.

وليس المراد بالسؤال الاستفهام والاستخبار؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ولا غيرها، وفي هذا وعد لمن آمن وعمل صالحًا، ووعيد لمن خالف ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

هذا تأكيد لما سبق من التحذير من اتخاذ الأيمان دخلًا بينهم بالنهي الصريح عن ذلك، وذكر سوء عاقبة ذلك في الدين والدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾، أي: ولا تجعلوا أيمانكم وحلفكم خديعة وغرورًا ومكرًا بينكم تبعًا لأهوائكم.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ جواب النهي قبله، وزلل القدم: انزلاقها وعدم ثباتها على الأرض لوحل وطين ونحو ذلك. يقال لكل مبتلى بعد عافية زلت به قدمه، أو زلت به القدمان.

قال الشاعر:

سيمنع منك السبق إن كنت سابقًا وتقتل إن زلت بك القدمان(١)

﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، أي: بعد رسوخها وثباتها وعدم تزلزلها.

والمراد هنا: فتختل الحال، وتزل أقدامكم عن الصراط المستقيم بعد ثبوتها عليه.

---

(١) البيت لبشير بن أبيّ العبسي. انظر: «أمثال العرب» (ص٧١)، «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ١٧٣، ١٧٤).

وفي قوله: ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ تصوير اختلاف الحالين، وفرق ما بين الأمرين، فزلل القدم سبب للسقوط والانكسار، وثبوتها سبب للسلامة بإذن الله عز وجل.

وكذلك الثبات على الصراط المستقيم سبب للسعادة في الدنيا والآخرة، والزيغ عن الصراط المستقيم سبب للشقاء في الدنيا والآخرة، ولهذا قال بعده:

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

ذوق السوء الإحساس به وتجرع ألمه ومرارته، كما قال تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ [المائدة: ٩٥].

والسوء: ما يؤلم من العقاب، وسمي بـ«السوء» لأنه يسوء من يصيبه حسًّا ومعنى. والمراد به في الآية: العقاب الدنيوي على أيدي المؤمنين.

﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب صدودكم وانصرافكم عن دين الله، وصرفكم الناس عنه بنقضكم العهود والأيمان، وتشويه صورة الإسلام وغير ذلك.

﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، أي: ولكم عذاب عظيم في الآخرة، من حيث كمه وكيفه ونوعه، حسًّا ومعنى، ولا يعلم قدر عظم هذا العذاب إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا تعتاضوا وتستبدلوا بالوفاء بعهد الله.

﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ الثمن: هو العوض الذي يأخذه المعاوض، ﴿قَلِيلًاۚ﴾ صفة كاشفة، وليست مقيدة، أي: أن كل عوض يؤخذ مقابل نقض عهد الله فهو قليل، ولو كان ذلك الدنيا بجميع ما فيها، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦].

وهذا نهي وتحذير من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها قل أو كثر.

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ تعليل للنهي السابق. و﴿إِنَّمَا﴾ مركبة من «إن» المؤكدة

و«ما» الموصولة.

أي: إن الذي عند الله لكم من الرزق والفضل والثواب في الدنيا والآخرة.

﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، أي: هو خير لكم خيرية مطلقة من جميع الوجوه في دنياكم وأخراكم، خير لكم من الدنيا بما فيها، وخير لكم من كل شيء، فأوفوا بعهد الله، واحفظوا أيمانكم ينلكم ما ادخره لكم من خير.

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي علم تنتفعون بعلمكم، فتؤثرون ما عند الله لكم من خير، على الثمن القليل الحقير، وفي الآية حث لهم على العلم.

قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

أي: إنما عند الله خير لكم؛ لأن ما عندكم ينفد وما عند الله باق، ففرق ما بين الأمرين وشتان ما بين العوضين.

و«ما» في الموضعين موصولة. والخطاب لجميع الناس، أي: الذي عندكم أيها الناس ﴿يَنفَدُ﴾، أي: يفنى وينقرض ولو كانت الدنيا بحذافيرها، إما في حال حياتكم، أو بموتكم، لأنه لأجل معدود.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾، أي: والذي عند الله وفي خزائنه باق لا يفنى ولا ينقرض من خيري الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

أي: فلا تعتمدوا على الذي عندكم، مهما كثر؛ لأن ذلك يفنى وينقرض، واطلبوا الذي عند الله من الخير؛ لأنه الذي يبقى ولا يفنى، وذلك بالوفاء بعهده- عز وجل- والاستقامة على طاعته.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قرأ عاصم وابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر في إحدى الروايتين عنه وأبوجعفر بنون العظمة

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ على الالتفات، وقرأ الباقون بياء الغيبة: «وليجزين»، أي: وليجزين الله.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم﴾ الواو: عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لنجزين الذين صبروا.

والنون للتوكيد. والاسم الموصول في محل نصب مفعول أول لـ«نجزين» و«أجرهم» مفعوله الثاني لتضمينه معنى «لنعطين» المتعدي إلى مفعولين.

وقد أقسم- عز وجل- على صحة هذا الخبر- وهو أصدق القائلين، على طريقة العرب في تأكيد الخبر بالقسم.

والصبر في اللغة: الحبس، وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء. ويقال: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أقسام ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

﴿أَجْرَهُم﴾، أي: ثواب عملهم وصبرهم، وسمي أجرًا؛ لأن الله- عز وجل- ضمنه وتكفل لهم به.

﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بأحسن الذي كانوا يعملونه، أو بأحسن عملهم.

والمعنى: ولنجزينهم عن الحسن والأحسن من أعمالهم بالأحسن من الجزاء والثواب، ونتجاوز عن سيئ أعمالهم- وهذا من كرمه- عز وجل- وجوده، وواسع فضله، وعظيم عفوه.

وأضيف الحسن إلى العمل للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وفيه حث على إحسان العمل، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ورتب عز وجل هذا الجزاء العظيم على الصبر؛ لأنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، قال ﷺ: «**ما أُعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

أخبر عز وجل وأقسم وأكد في الآية السابقة بأنه يجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، ثم فصَّل وبيَّن أن ذلك لكل من عمل صالحًا من ذكر وأنثى وهو مؤمن، مع الحياة الطيبة وأقسم على ذلك وأكده.

قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم، و﴿عَمِلَ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾.

﴿صَٰلِحًا﴾، أي: عملًا صالحًا، وحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه؛ لأن المهم في العمل وشرط قبوله أن يكون صالحًا.

ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله- عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: أخلص العمل لله، وهو متبع ما جاء به رسول الله ﷺ.

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لعموم «من» الموصولة، أي: من ذكر أو أنثى من بني آدم.

وقدم الذَّكر على الأنثى لفضله عليها من حيث العموم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

أما من حيث الخصوص فقد تكون بعض النساء أفضل من بعض الرجال، ويكفي أن من النساء فاطمة- رضي الله عنها- سيدة نساء أهل الجنة، ومنهن أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وغيرهن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم

﴿مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**»(١).

قال الشاعر:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ ... أبوهمُ آدم والأم حواء
فإن يكن لهم من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء(٢)

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه مؤمنًا، أي: وهو مصدق بقلبه ولسانه بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبوعد الله- عز وجل- ووعيده، وكل ما أوجب الله الإيمان به.

فالإيمان بالقلب واللسان شرط لقبول العمل، ولا يصح العمل بلا إيمان، كما لا يصح الإيمان بلا عمل؛ لأن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح، خلافًا للمرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان- وهذا باطل.

﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، واللام لام القسم لقسم مقدر.

أي: فوالله لنحيينه حياة طيبة في هذه الدنيا تطيب بها نفسه وينشرح بها صدره، بتوفيقه في أمر دينه، وتيسير أمر دنياه، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ٢].

وقال ﷺ: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في الطهارة (١١٣)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧).

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة- الكفاف والقناعة (١٠٥٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٨)، وأحمد (٢/ ١٦٨)- من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما.

وعن فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع**»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**»(٢).

وعن خباب بن الأرت- رضي الله عنه- قال: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي بذلك وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا، كان منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أُحد، فلم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا بها رجليه خرج رأسه، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها»(٣).

قال ابن القيم في كلامه على الآية: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال: «وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفة، وقد ضمن الله- سبحانه- لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد، الذي لا يخلف وعده، وأيّ حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله، ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله...»(٤).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الكلام فيه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الآية السابقة.

وفيه توكيد وتعميم وبيان أن هذا الأجر كما هو للصابرين كذلك هو لكل من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، أي: ولنجزينهم في الآخرة بأحسن ثواب عملهم مع الحياة الطيبة في الدنيا، وهذا هو حسنة الدنيا والآخرة، كما في الدعاء: ﴿رَبَّنَآ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد- ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٩)- وقال: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة (٢٨٠٨).
(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٩١٤)، ومسلم في الجنائز (٩٤٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٠٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٣).
(٤) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٥٠).

ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال ابن القيم: «فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا الحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أمْر الله- عز وجل- بالعدل والقسط، وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٢- أمْر الله- عز وجل- بالإحسان وترغيبه فيه؛ قولًا وفعلًا وبذلًا، فعلًا للمستحبات وبُعدًا عن المكروهات وإحسانًا في أداء الواجب بكونه خالصًا لله تعالى وفق شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

٣- الموازنة بين التكاليف بتقديم ما هو واجب؛ لأن الله قدَّم الأمر بالعدل؛ لأنه واجب، وعطف عليه الإحسان بفعل المندوب.

٤- عظم حق ذي القربى؛ لأن الله خصّه بالذكر من بين سائر الحقوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: إيتائهم حقهم من الصلة والبر والإحسان، الواجب والمندوب.

٥- نهي الله- عز وجل- عن الفحشاء والمنكر من الأقوال والأعمال والأحوال، وتحريمه لذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

٦- في تقديم النهي عن الفحشاء دلالة على شناعة الفاحشة وقبحها وشدة أثرها وانتشار ضررها.

٧- أن المنكر أعم من الفحشاء؛ لهذا عطف عليها من عطف العام على الخاص؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾.

٨- عظم البغي على الناس وشدة حرمته؛ لأن الله خصّه بالذكر بعد النهي عن الفحشاء والمنكر مع أنه من المنكر أو منهما معًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾.

٩- أن فعل المأمورات أهم وأعظم من ترك المحظورات؛ لأن الله قدم الأمر

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٥٠).

بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى على النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

١٠- أن ما أمر الله به من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وما نهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغي كل ذلك مما يعظ الله به الناس ليتذكروا ويتعظوا؛ لقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١١- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله- عز وجل- وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١٢- وجوب الوفاء بعهد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وذلك بالقيام بمقتضى الإيمان من فعل الواجبات والبعد عن المنهيات والوفاء بالعهود.

١٣- النهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وتحريم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لكن لو حلف على أمر فرأى غيره خيرًا منه ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير كما دلت على ذلك السنة.

١٤- وجوب تعظيم الأيمان والوفاء بها وعدم نقضها بعد توكيدها تعظيمًا لله- عز وجل- حيث جعل الحالف الله عليه كفيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

١٥- علم الله- عز وجل- الواسع بكل ما يفعله الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن وفوا بعهد الله، وحفظوا الأيمان، ووعيد لمن لم يفوا بعهد الله، ونقضوا الأيمان بعد توكيدها.

١٦- بلاغة القرآن الكريم في تشبيهه من ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها، ويتخذونها دخلًا بينهم، من حيث سوء وقبح فعلهم وسفاهة عقولهم وخسرانهم بالمرأة التي نقضت غزلها بعد إحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ فاجتمع فيها سفاهة الرأي ونقصان العقل والخسران بعد العناء.

١٧- التحذير من اتخاذ الأيمان للمكر والخديعة والفساد والعداوة والخصام لقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾.

١٨- لا ينبغي أن تكون كثرة المشركين سببًا لنقض العهد والأيمان طمعًا في منفعة

عاجلة تحصل منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

١٩- ابتلاء الله للمؤمنين بكون المشركين أكثر منهم، وبما أوجب من الوفاء بالعهد والأيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ﴾.

٢٠- تأكيد الله- عز وجل- بأنه سيبين ويظهر للخلائق ما كانوا فيه يختلفون من الأحوال والأعمال وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن وفوا بالعهد وحفظوا الأيمان، ووعيد لمن نقضوا العهد ونكثوا الأيمان.

٢١- إثبات القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٢٢- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وهي الإرادة الكونية، وأنه- عز وجل- لو شاء لجعل الناس أمة واحدة غير مختلفين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

٢٣- أنه- سبحانه- لم يشأ كون الناس أمة واحدة مجتمعة على الإيمان، ولكن يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

٢٤- إثبات تقدير الله- عز وجل- لجميع الأعمال من الهداية والضلال، والرد على القدرية الذين ينفون تقديره- عز وجل- لأفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

٢٥- إثبات سؤال الخلق عن أعمالهم وتوكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالمؤمنون يسألون سؤال تقرير، والكفار يسألون سؤال توبيخ وتقريع.

٢٦- أن اتخاذ الأيمان دخلًا للمكر والمخادعة سبب لزلة الأقدام والانحراف عن طريق الهدى والرشاد، وصد الناس عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٢٧- التحذير من الصد عن سبيل الله وصرف الناس عنه بنقض العهد والأيمان

وتشويه صورة الإسلام، والوعيد على ذلك بالعذاب السيئ في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٨- النهي عن الاشتراء بالوفاء بعهد الله ثمنًا قليلًا، ولو كان ذلك الدنيا بحذافيرها فهو قليل مقابل ترك الوفاء بعهد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾.

٢٩- أن ما عند الله من الفضل والرزق والثواب في الدنيا والآخرة هو خير لمن كانوا ذوي علم بما ينفعهم على الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٣٠- أن ما عند الناس مهما كثر فهو يفنى وينقرض، ولو كان ذلك الدنيا بما فيها، وما عند الله من الخير وخزائن الدنيا والآخرة باق لا يفنى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

٣١- الترغيب في الطمع بما عند الله- عز وجل- من الفضل والرزق والثواب في الدنيا والآخرة والسعي لتحصيله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

٣٢- ينبغي أن يكون المؤمن أوثق بما عند الله مما في يده؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

٣٣- الإشارة إلى أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

٣٤- وعد الله- عز وجل- المحقق، وخبره المؤكد بمجازاة الصابرين بأحسن ثواب أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٥- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، فمن أحسن العمل أحسن له الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٦- عظم مكانة الصبر وفضله، والترغيب فيه، والحث عليه؛ لأن الله وعد أهله بأحسن الجزاء.

٣٧- وعد الله- عز وجل- لكل من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن بالحياة الطيبة في الدنيا، ومجازاتهم في الآخرة بأحسن ثواب عملهم وتأكيد تحقيق ذلك

لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

٣٨- تكفل الله- عز وجل- وضمانه لثواب الصابرين، وثواب من عمل صالحاً وهو مؤمن؛ ولهذا سماه «أجرا».

٣٩- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، فلابد أن يكون العمل صالحًا خالصًا لله- عز وجل- وفق شرعه وسنة نبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٤٠- استواء الذكور والإناث في الجزاء الدنيوي والأخروي؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية.

٤١- أن الذكر من حيث العموم أفضل من الأنثى، لتقديمه عليها بالذكر في الآية، وهذا لا يمنع أن تكون بعض النساء أفضل من بعض الرجال.

٤٢- يجوز أن يقصد الإنسان بعمله ثواب الدنيا والآخرة معًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآية. وقد قال الله- عز وجل- في سورة القصص: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وأثنى- عز وجل- على الذين يدعون ربهم بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

٤٣- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله وعد على ذلك بهذا الجزاء العظيم في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ الفاء استئنافية و«إذا» ظرفية شرطية، و﴿قَرَأْتَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَاسْتَعِذْ﴾.

والخطاب في قوله: ﴿قَرَأْتَ﴾ للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

و«القرآن» هو ما أنزله الله- عز وجل- على نبيه ﷺ من الوحي، المتعبد بتلاوته والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

وسمي القرآن بهذا الاسم؛ لأنه مقروء متلو أخذًا من «قرأ» إذا تلا، ومن «قرى» إذا جمع؛ لأنه مجموع آيات وسور، ومنه سميت «القرية»؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين، وسمي مجمع الماء «قروًا» لاجتماع الماء فيه.

والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: قل «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

والفاء في قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

و«السين» للطلب، أي: اطلب العوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والأمر للندب عند جمهور أهل العلم، بل حكي عليه الإجماع.

ومعنى: «أعوذ بالله»، أي: أعتصم بالله، وأمتنع به، وألجأ إليه، قال ﷺ لابنة الجون، لما قالت حين أدخلت عليه: أعوذ بالله منك، قال ﷺ: «**لقد عذت بعظيم**»(١).

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٥٤)، والنسائي في الطلاق (٣٤١٧)، وابن ماجه في الطلاق

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ كل متمرد عات من الإنس والجن والحيوان، مأخوذ من «شطن» بمعنى بَعُد عن رحمة الله- عز وجل، وعن كل خير.

﴿ٱلرَّجِيمِ﴾، «فعيل» بمعنى «مفعول»، أي: المرجوم بالإبعاد والطرد عن رحمة الله، والإخراج من الجنة، والرمي بالشهب(١).

فأمر الله- عز وجل- بالاستعاذة عند قراءة القرآن لئلا يلبس الشيطان على القارئ، ويحول بينه وبين التدبر والتفكر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ [الحج: ٥٢].

والمصيبة أن كثيرًا من المسلمين لا يتدبر معنى الاستعاذة كما لا يتدبر معاني القرآن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ تعليل للأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن، وترغيب في امتثاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

والسلطان: السلطة والتسلط، أي: إنه ليس للشيطان سلطة ولا تسلط ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ لإغوائهم؛ لحفظ الله لهم منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوف على جملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون إعادة اسم الموصول للدلالة على أنه لابد من الجمع بين الإيمان والتوكل على الله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وتقديم المتعلق ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لإفادة القصر، أي: لا يتوكلون إلا على ربهم الذي له الخلق والملك والتدبير.

والتوكل على الله: الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه في جلب النفع ودفع الضر

(٢٠٥٠)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(١) راجع تفصيل الكلام على الاستعاذة؛ صيغها وإعرابها ومعناها وأحكامها في الجزء الأول.

مع تمام الثقة به سبحانه.

فهؤلاء محفوظون بحفظ الله من الشيطان أن يتسلط عليهم، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: ٦٤].

وقال ﷺ لابن عباس- رضي الله عنهما: «**يا غلام، احفظ الله يحفظك**»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾.

هذا تأكيد لنفي سلطانه على المؤمنين.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: ليس له تسلط «إلا على الذين يتولونه»، أي: الذين يتخذون وليًا لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل عوده لـ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، أي: والذين هم بربهم مشركون.

ويحتمل أن يعود إلى ما يعود إليه الضميران في قوله: ﴿سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ وقوله: ﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ وهو الشيطان، وهذا أولى لاتحاد الضمائر، أي: إنما سلطان الشيطان على الذين يتخذونه وليًّا لهم ويشركونه مع الله في العبادة والطاعة، فيشاركهم في الأموال والأولاد، كما قال تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤]. والباء على هذا للتعدية.

ويحتمل كون الباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ للسببية، والضمير يعود إلى الشيطان، أي: والذين هم صاروا بسببه مشركين، أي: بسبب طاعتهم وعبادتهم له.

وقدم المتعلق ﴿بِهِۦ﴾ لإفادة الحصر، أي: إنهم ما أشركوا إلا بسببه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فتسلطه عليهم بسبب موالاتهم له وإشراكهم به واستجابتهم له.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

حصر عز وجل في الآية السابقة سلطان الشيطان على الذين يتخذونه وليًا ويشركون به. ثم ذكر في هذه الآية والآيات بعدها- الأسباب التي جعلته يتسلط عليهم، وهو تكذيبهم ما جاء به الرسول ﷺ وزعمهم أنه مفتر، وأنه إنما يعلمه بشر، وعدم إيمانهم بآيات الله، وافتراؤهم وكذبهم وكفرهم واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة وغفلتهم.

قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ الواو عاطفة، ﴿وَإِذَا﴾ ظرفية شرطية، و﴿بَدَّلْنَآ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾.

والتبديل: وضع شيء مكان شيء.

والآية في اللغة العلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

والآية من القرآن: القطعة من كلام الله تعالى ذات بداية ونهاية، منفصلة عما قبلها، مندرجة تحت سورة من سور القرآن العظيم.

والمراد بالتبديل هنا النسخ، أي: إذا نسخنا آية بآية أخرى، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو «ينْزِل» بسكون النون وتخفيف الزاي، وقرأ الباقون ﴿يُنَزِّلُ﴾ بفتح النون، وتشديد الزاي.

وهذه الجملة اعتراضية بين شرط «إذا» وجوابها لبيان أن لله- عز وجل- العلم التام والحكمة البالغة فيما ينزل من القرآن، وفيما يبدل وينسخ منه.

قال ابن القيم: «تأمَّل حسن الاعتراض وجزالته، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه، أفاد أمورًا منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟ ومنها: أن الذي بُدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم. ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى- وأن كلًا منهما

منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني»(١).

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا يُنَزِّلُ﴾ موصولة، أي: والله أعلم بالذي ينزل، والذي هو أصلح لخلقه، فيما يبدل ويغير من أحكامه.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾، أي: قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾، ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر، أي: ما أنت إلا مفتر، أي: كذاب مختلق للكذب، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [الطور: ٣٣].

فنفوا عنه صلوات الله وسلامه عليه صفة النبوة والرسالة والصدق فيما جاء به، وحصروا صفاته بالافتراء والكذب- وحاشاه من ذلك، بل هو الصادق المصدوق، كما قال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة**» الحديث(٢).

وقد كانوا قبل مبعثه ﷺ يسمونه الأمين لصدقه وأمانته.

ولما سأل هرقل أبا سفيان لما قدم عليه فيمن قدم قبل أن يسلم عن صفة النبي ﷺ كان فيما سأله عنه قوله له: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله- عز وجل»(٣).

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿بَلۡ﴾ للإضراب الإبطالي، أي: لإبطال ما زعموه من أنه ﷺ مفتر للقرآن، أي: ليس الأمر كما زعموا، بل أكثرهم جهال لا علم عندهم يهتدون به إلى الحق، فهم يتخبطون في الجهل، فلا عبرة بقولهم؛ لأنه قول بلا علم.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)؛ من حديث عبدالله بن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾، أي: قل يا محمد ردًّا عليهم، لست بمفتر، وليس القرآن بافتراء بل ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾.

﴿نَزَّلَهُ﴾ التنزيل: إنزال الشيء مفرقًا شيئًا فشيئًا، لا دفعة واحدة، وهكذا أنزل القرآن الكريم من عند الله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿رُوحُ الْقُدُسِ ﴾، «الروح» جبريل- عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ [القدر: ٤].

و﴿الْقُدُسِ ﴾: الطهر والفضل وجلالة القدر.

و﴿رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، كما يقال: «حاتم الجود»، و«زيد الخير»، أي: الملَك المقدس الذي هو أفضل الملائكة: جبريل عليه السلام.

﴿مِن رَّبِّكَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف له ﷺ من حيث خطابه- عز وجل- له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.

﴿بِالْحَقِّ ﴾ حال، والباء: للملابسة، أي: حال كونه ملابسًا للحق، لا شائبة للباطل فيه؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ ﴾ [النساء: ١٠٥]، فنزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

فهو حق ثابت من عند الله، كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ويتضمن الحق الثابت في خبره وطلبه، فكل ما جاء به حق ويهدي إلى الحق، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ ﴾ [الأنعام:

١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وهو يهدي إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يثبت الذين آمنوا على الحق، ويقوي إيمانهم، لتوارده عليهم وقتًا بعد وقت ولعلمهم أنه الحق.

وفيه إشارة لرسوخ إيمانهم، وتعريض بغيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوف على ما قبله داخل ضمن جملة التعليل، أي: لأجل أن يثبت الذين آمنوا، ولأجل أن يكون هدى وبشرى للمسلمين، الذين لم يصلوا إلى درجة قوية من الإيمان، يهديهم ويدلهم إلى الطريق المستقيم في الدنيا، ويهديهم في الآخرة إلى جنات النعيم، ويبشرهم ويخبرهم بما يسرهم، مما أعدَّ الله لهم من الفضل والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم في جنات النعيم، وفي الآية تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة زعم المشركين أنه ﷺ مفتر للقرآن، ثم ذكر في هذه الآية زعمهم وقولهم: إنما يعلمه بشر، مما يدل على تخبطهم واضطرابهم وحيرتهم فيما يتقوّلونه على الرسول ﷺ وعلى ما جاء به من الوحي.

عن مجاهد عن ابن عباس- رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يُعَلِّم قينًا بمكة، وكان اسمه «بلعام»، وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه، ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه «بلعام» فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ

﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾»(١).

وقال ابن إسحاق: «كان رسول الله ﷺ- فيما بلغني كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له «جبر» عبد لبعض بني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يُعلِّم محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بني الحضرمي، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾»(٢).

وهذه الروايات يشهد لها سياق الآيات.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ الواو: للاستئناف، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد علمنا أنهم يقولون، وإنما جاء التعبير بصيغة المضارع للدلالة على استمرار علمه- عز وجل- بقولهم في المستقبل، أي: والله لقد علمنا فيما مضى ونعلم في المستقبل قولهم هذا القول، أي: ولقد نعلم أن المشركين يقولون: إنما يعلم محمدًا هذا القرآن الذي جاء به بشر، وليس من عند الله.

وهذه الدعوى تتناقض مع قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ وقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، و﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾.

ولم يصرح باسمه- والله أعلم- إيذانًا بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله وسلامه عليه إلى التعلم من شخص معين، بل من البشر كائنًا مَن كان.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «يَلحَدون» بفتح الياء والحاء، وقرأ الباقون ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بضم الياء وكسر الحاء.

أي: لسان الذي يميلون إلى أنه علم الرسول ﷺ هذا القرآن ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾، أي: لغته أعجمية، لا يكاد يبين.

﴿وَهَٰذَا﴾ يعني القرآن الكريم، ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾، أي: بلغة عربية، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: فصيح معجز كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥].

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٦٩).

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٣).

وفي هذا رد لزعمهم أن الذي يعلمه بشر، أي: كيف يكون هذا والذي يميلون إلى أنه علّم الرسول ﷺ القرآن أعجمي، والقرآن الكريم بلسان عربي مبين، وأعجز فحول الفصاحة والبلاغة، وكيف للأعجمي أن يتذوق بلاغة القرآن، وما حواه من العلوم، فضلًا أن ينطق به، فضلًا أن يكون معلمًا له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾.

ذكر الله- عز وجل- زعم المشركين أنه ﷺ مفتر افترى القرآن وتعلمه من بشر، ورد عليهم، ثم أتبع ذلك بالوعيد بحرمانهم من هدايته، وبالعذاب الأليم، وحصر الافتراء والكذب فيهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: إن الذين لا يصدقون بآيات الله الشرعية والكونية ويزعمون أن ما جاء به ﷺ من الوحي كذب منه وافتراء.

﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في هذا تهديد لهم على كفرهم بالقرآن، بعد ردّ طعنهم فيه.

﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾، أي: لا يوفقهم الله للحق والإيمان؛ لأن هداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه عامة، وبها أقام الله- عز وجل- الحجة على جميع الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهداية التوفيق وهذه خاصة بالمؤمنين، وهي المنفية عن الذين لا يؤمنون بآيات الله بقوله: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ وهذه عقوبة عاجلة لهم في الدنيا بسبب عدم إيمانهم بآيات الله، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

ومن حُرم الهداية وقع في الضلالة لا محالة، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢].

وقد تحمل الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ على رؤوس

الكفر كأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهما.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَلِيمٌ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى: «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب في الدنيا بالقتل والجراح والسبي ونكد العيش، بسبب عدم الإيمان، وبالآخرة بعذاب النار.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

هذا رد لقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ بقلب ما زعموه عليهم وحصر الافتراء فيهم وقصره عليهم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر وقصر، و﴿يَفْتَرِي﴾ بمعنى: يختلق، أي: إنما يختلق الكذب ويتقوله على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بآيات الله ممن لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا يردعهم عنه، حيث زعموا أنه ﷺ مفتر، ويعلمه بشر، وكذبوا القرآن، وما دل عليه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وغير ذلك.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ قصر الافتراء فيهم، ثم قصر الكذب وأكده فيهم بكون هذه الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

الفوائد والأحكام:

١- مشروعية الاستعاذة عند قراءة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وهي مستحبة على الصحيح من أقوال أهل العلم.

٢- أن أصح صيغ الاستعاذة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بدليل الآية، وهكذا جاء في حديث سليمان بن صُرَدٍ- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال لما رأى رجلًا قد اشتد به الغضب: «**إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب- الحذر من الغضب (٦١١٥)، ومسلم في البر- فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦١٠)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨١)، وأحمد (٥/ ٢٤٠).

٣- حفظ الله- عز وجل- للقارئ من الشيطان وتلبيسه ووساوسه بالاستعاذة؛ لأن الله- عز وجل- أمر بها عند القراءة.

٤- لا عصمة للإنسان من الشيطان ووساوسه إلا بالالتجاء إلى الله- عز وجل- والاعتصام به.

٥- بُعد الشيطان عن كل خير، وإبعاده عن رحمة الله، لهذا سمي بـ«الشيطان الرجيم».

٦- لا سلطة للشيطان ولا طريق له على المؤمنين المتوكلين على ربهم، لحفظ الله- عز وجل- لهم منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٧- الترغيب في الإيمان والتوكل على الله- لأنه سبب لحفظ الله العبد من تسلط الشيطان.

٨- حصر تسلط الشيطان على الذين يتخذونه وليًّا ويشركون به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾.

٩- التحذير من تولي الشيطان والإشراك به؛ لأنه سبب تسلطه على الإنسان.

١٠- إثبات النسخ في القرآن الكريم، وتبديل آية مكان آية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾.

١١- علم الله- عز وجل- بما يُنزل؛ وما يبدله وينسخه، وما يثبته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾.

١٢- اتخاذ المشركين من نسخ الله- عز وجل- آية وتبديلها بأخرى وسيلة للطعن في القرآن الكريم، واتهامه ﷺ بالافتراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾.

١٣- جهل كثير من المشركين وعدم علمهم علمًا ينتفعون به ويهديهم إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

١٤- إثبات تنزل القرآن الكريم بواسطة جبريل من عند الله- عز وجل؛ لقوله

تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

وفي هذا رد على من زعموا أن الرسول ﷺ افتراه، وإثبات أن القرآن منزل من عند الله- عز وجل- غير مخلوق، خلافًا للمعتزلة.

١٥- أن القرآن نزل مفرقًا ومنجمًا؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾.

١٦- شرف جبريل- عليه السلام- وفضله بين الملائكة؛ لقوله- عز وجل: ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾. و«الروح» هو جبريل- عليه السلام، و«القدس» الطهر والفضل وعلو القدر.

١٧- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطابه- عز وجل- له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وربوبيته- عز وجل- الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١٨- أن القرآن الكريم نزل من عند الله- عز وجل- متلبسًا بالحق من حيث وصوله إلينا، فسنده أصح الأسانيد أخذه جبريل الأمين من الله- عز وجل- وبلغه إلى الهادي الأمين محمد ﷺ، وبلغه محمد ﷺ إلى أمته. وهو أيضًا مشتمل فيما جاء به على الحق، فأخباره صدق وأحكامه عدل.

١٩- أن الحكمة في تنزل القرآن مفرقًا تثبيت الذين آمنوا وزيادة إيمانهم، وهداية وبشارة المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

٢٠- علم الله- عز وجل- وإحاطته بما يقوله المشركون ويزعمونه من أنه ﷺ إنما يعلمه القرآن بشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

٢١- تخبط المشركين واضطرابهم فيما يتقولونه عليه ﷺ وعلى القرآن، فتارة يقولون: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ وتارة يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

٢٢- بطلان دعوى المشركين وقولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ واستحالة ذلك؛ لأن الشخص الذي يزعمون أنه علَّم النبي ﷺ أعجمي، والقرآن بلسان عربي مبين؛ لقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

٢٣- تنزل القرآن في الرد على المخالفين ومقارعتهم لإفحامهم من كلامهم فكيف يزعمون أن بشرًا أعجميًا يُعلم النبي ﷺ القرآن ذا اللسان العربي المبين.

٢٤- أن من عقوبة رد الحق وعدم الإيمان بآيات الله الحرمان من هداية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٥- التهديد والوعيد للذين لا يؤمنون بآيات الله بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٦- الترغيب بالإيمان بآيات الله؛ لأنه سبب لهداية الله والنجاة من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٢٧- حصر الافتراء والكذب في الذين لا يؤمنون بآيات الله وقصره عليهم، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وفي هذا تبرئة له ﷺ مما رموه به من الافتراء.

٢٨- التحذير من الكذب وأنه من الكبائر ومن أعمال الذين لا يؤمنون بآيات الله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

﴿مَن﴾ اسم موصول مبتدأ، وخبره ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

ويجوز كون ﴿مَن﴾ شرطية، و﴿كَفَرَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾.

أي: من كفر بالله فجحد ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه بعد إيمانه به.

والمعنى: من يكفر بالله بعد إيمانه؛ لأن الفعل الماضي في الشرط ينقلب إلى المضارع.

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿مَنۡ﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل نصب على الاستثناء المنقطع، أي: إلا الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

والإكراه: الإلجاء إلى فعل أو قول ما يُكره فعله أو قوله.

والمعنى: إلا الذي أكره على إظهار الكفر، فأظهره بالقول بأن نطق بكلمة الكفر بلسانه.

﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، أي: وقلبه ثابت على الإيمان موقن منشرح الصدر به، فلا حرج عليه؛ لأن الله إنما يؤاخذ العباد بما انعقدت عليه قلوبهم.

عن محمد بن عمار قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ- وفي بعض الروايات أنه سبّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير وأنه قال: «ما تُركت يا رسول الله حتى سببتك، وذكرت آلهتهم بخير. قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنًا. فقال: «إن عادوا فعد»، وفي ذلك أنزل

الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾»[١].

وهكذا من أكره على ما دون الكفر من المعاصي، فهو معذور، ما لم يكن فيه اعتداء على الغير فلا يجوز. قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٣٣].

وقال ﷺ: «**عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٢].

قال السعدي[٣]: «من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه، ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها».

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ بيان وتفسير لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾.

أي: ولكن المؤاخذ المعاقب الذي شرح بالكفر صدرًا، بأن استمر على الكفر أو رجع إليه وانشرح واتسع له صدره، واطمأن إليه قلبه.

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، وعلى اعتبار الجملة خبرًا ربط بالفاء؛ لشبه الموصول ﴿مَنْ﴾ بالشرط.

أي: فعليهم غضب من الله بسبب كفرهم بعد إيمانهم وانشراح صدورهم بالكفر.

ومن غضب الله عليه عاقبه وانتقم منه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

أي: فلما أغضبونا انتقمنا منهم، ولهذا قال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: ولهم عذاب عظيم في الدنيا والآخرة من حيث كيفيته، وكمه، ونوعه، لا يعلم مقدار عظمته إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٠)، والطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٧٤- ٣٧٥)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى غضب الله على من كفر به بعد الإيمان وانشرح بالكفر صدره، وما لهم من العذاب العظيم.

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ للسببية، أي: بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا، والضمير لمن كفروا بالله بعد إيمانهم وشرحوا بالكفر صدورهم.

و﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ بمعنى أحبوا، والزيادة فيها: للمبالغة، أي: أحبوا الحياة الدنيا وآثروها وفضلوها على الآخرة، فكان سعيهم للدنيا، ونسوا الآخرة وغفلوا عنها، فاختاروا الدنيا الدنية العاجلة الفانية على الحياة الآخرة العظيمة الباقية.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين، أي: لا يوفقهم بسبب كفرهم. فالهداية المنفية عنهم هداية التوفيق، أما هداية الدلالة الإرشاد فبها قامت الحجة عليهم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وأن الله لا يهديهم» لبيان أن سبب عدم هدايتهم هو كفرهم، وليشملهم الوعيد وغيرهم من الكافرين.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

هذا فيه بيان لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهو أن حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها، وهي القلوب والأسماع والأبصار، وذلك بالطبع عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وأشار إليهم في الموضعين بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

ومعنى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾، أي: ختم عليها فلا قلوبهم تتفكر وتتدبر وتتأمل في الآيات، ولا أسماعهم تصغى إليها، ولا أبصارهم تنظر فيها فصار حالهم كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا

وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فختم على قلوبهم وأصم أسماعهم، وأعمى أبصارهم، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٣].

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أكد غفلتهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾.

و﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ جمع غافل، والغفلة: السهو وقلة التحفظ والتيقظ، أي: الغافلون الساهون عما خلقوا له، وما أمامهم من الأهوال. كما قال الشاعر:

والناس في غفلة عما يراد بهمْ كأنهم غنم في بيت جزارِ[1]

فعوقب من كفر بالله من بعد إيمانه بخمس عقوبات: غضب الله عليهم، وعذابه العظيم لهم، وحرمانهم من هدايته، والطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، والحكم عليهم بالغفلة. وواحدة من هذه العقوبات كافية، فكيف إذا اجتمعت.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقًا، أو لا محالة.

﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الخسارة: ضياع رأس المال أو بعضه مع الربح. والمعنى: حقًا أنهم في الآخرة هم الخاسرون الخسارة العظمى، الذين خسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

---

(١) البيت مجهول النسبة. انظر: «الأمثال الواردة» (ص٤٣٦).

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد لمن كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدره بغضب الله- عز وجل- عليهم، والعذاب العظيم لهم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

٢- أن من أكره على التلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ثابت عليه فلا حرج ولا إثم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

ومن باب أولى لا حرج على من أكره على ما دون الكفر من قول أو فعل كالطلاق والعتاق، وكالمرأة تكره على الزنا ونحو ذلك. لكن لا يجوز الاعتداء على الآخرين بحجة الإكراه.

وإذا أمكن أن يُعرِّض بشيء بدل التصريح بالكفر فهذا أولى، بل وأوجب وإذا صبر ولم يتلفظ بالكفر ونحو ذلك فهو أعظم أجرًا؛ لأنه أخذ بالعزيمة وترك الرخصة، كما فعل بلال- رضي الله عنه- فقد كان مواليه يُضجعونه على بطنه ويعصرونه، ويقولون: دينك اللات والعزى، فيقول: ربي الله، أحد أحد، ولو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها»[١].

وكما فعل حبيب بن زيد الأنصاري- رضي الله عنه- لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إربًا إربًا، وهو ثابت على ذلك»[٢].

وكما فعل عبدالله بن حذافة السهمي- رضي الله عنه- لما أسره الروم وطلب منه ملكهم أن يتنصر وأغراه بأن يعطيه نصف ملكه. فقال: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين. قال: إذًا أقتلك، قال: أنت وذاك، وأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريبًا من بدنه، وهو يعرض عليه، ويأبى، فأنزله ودعا بقدر فصب فيه ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٥٣)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٥).

(٢) انظر: ترجمة حبيب بن زيد في «أسد الغابة» (١/ ٤٤٣)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٥).

فألقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبى»(١).

وكما قال خبيب بن عدي- رضي الله عنه- لما صلبه المشركون ليقتلوه:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع(٢)

٣- سعة رحمة الله- عز وجل- وعفوه عن عباده حيث لا يؤاخذ من أكره على الكفر إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان.

٤- أن مدار الأعمال على ما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

٥- خطر الردة والكفر بعد الإيمان ووجوب الحذر من ذلك؛ لما فيه من نكران نعمة الإيمان، والحور بعد الكور، والتعرض لغضب الله وللعذاب العظيم.

٦- إثبات الاختيار للإنسان، والرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

٧- إثبات صفة الغضب لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٨- شدة عذاب الله لمن كفر بعد إيمانه، وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٩- أن ما توعد الله- عز وجل- به من كفر بعد إيمانه من غضبه- عز وجل- عليهم، والعذاب العظيم لهم بسبب كفرهم واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

١٠- أن من استحب الحياة الدنيا وفضلها وآثرها على الآخرة فقد خسر وتعرض لغضب الله وعذابه.

١١- حرمان الكافرين من توفيق الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويفهم من هذا هدايته- عز وجل- وتوفيقه للمؤمنين.

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٤).

(٢) انظر: «الإصابة» (١/ ٤١٨).

١٢- أن حرمان الكافرين الهداية بحرمانهم الانتفاع من وسائلها وهي القلوب والأسماع والأبصار وذلك بالطبع والختم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾.

١٣- ذم الكافرين وتأكيد غفلتهم عما خلقوا له، وما أمامهم من الأهوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

١٤- تحقق خسارة الكافرين في الآخرة الخسارة العظمى، خسارة الدين والدنيا والآخرة، خسارة الأنفس والأهل، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

١٥- أن الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى هي الخسارة في الدين بالكفر والمعاصي.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ
جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ
نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١ وَضَرَبَ
ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ
فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢
وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣ فَكُلُواْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ
ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ
أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ
حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨ ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا
لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ فرارًا بدينهم، كما في الهجرة الأولى إلى الحبشة والهجرة الثانية إلى المدينة، وقد قال ﷺ: للمهاجرين إلى المدينة: «**لهم هجرة واحدة**» وقال لمن هاجروا إلى الحبشة: «**لكم هجرتان**»(١).

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء: «فَتَنوا»، وقرأ الباقون بضم الفاء وكسر التاء: ﴿فُتِنُواْ﴾، و«ما» مصدرية، أي: من بعد ما ابتلوا وامتحنوا وعذبوا على أيدي المشركين ليردوهم عن دينهم.

(١) أخرجه البخاري مطولًا في المغازي ٤٢٣١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٠٣ من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه.

والفتنة: الابتلاء، وتكون في الشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وأشد ذلك وأعظمه الفتنة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الفتنة بالرد إلى الكفر والشرك أكبر من القتل.

أي: من بعد ما ابتلوا بأذى المشركين وتعذيبهم وإذلالهم لهم؛ ليردوهم إلى الكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠].

﴿ثُمَّ﴾ بعد هجرتهم ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ في سبيل الله، فانضموا في سلك المؤمنين المجاهدين في قتال الكفار؛ لإعلاء كلمة الله تعالى في أموالهم وأنفسهم، وبذلوا جهدهم في ذلك وطاقتهم.

﴿وَصَبَرُوٓا۟﴾ على الجهاد في سبيل الله، وما فيه من ألم القتل والجراح والمشقة وغير ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: ثم إن ربك يا محمد ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾، أي: من بعد ما حصل لهم من الفتنة والابتلاء والتعذيب قبل هجرتهم على أيدي المشركين.

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لغفور لهم، رحيم بهم، وفي هذا إيماء إلى أنهم أو بعضهم قد لا يسلم من الإثم في تأخير الهجرة، لولا مغفرة الله تعالى ورحمته، بمعنى أن منهم من تأخر في الهجرة مع قدرته عليها، وأن هذا مما فتنوا به، فلما هاجروا وجاهدوا وصبروا غفر الله لهم ورحمهم.

ويجوز أن يكون هذا مثل قوله تعالى في سورة النساء في حق المستضعفين من الرجال والنساء والولدان: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الآيتان: ٩٨-٩٩].

فقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ لا يدل على إثمهم بترك الهجرة؛ لأنهم مستضعفون معذورون، وإنما فيه حض على الهجرة وتأكيد لوجوبها في حق

القادر عليها.

قوله تعالى: ﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾، أي: اذكر يوم القيامة حين تأتي كل نفس ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾، أي: تحاج وتدافع عن نفسها، فلا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوج ولا قريب أو صديق يحاج عنها، ولا هي يهمها سوى نفسها، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

وفي حديث الشفاعة الطويل أن الأنبياء عليهم السلام يترادون الشفاعة كل منهم يقول: «نفسي نفسي، لا أملك إلا نفسي. إلى أن يأتي الناس إلى نبينا ﷺ فيسجد تحت العرش.....»(١).

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾، «ما»: مصدرية أو موصولة، أي: عملها، أو الذي عملته، أي: وتعطى كل نفس جزاء الذي عملته وافيًا من غير نقص، خيرًا كان أو شرًا.

وجعلت التوفية للعمل للإشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم لا يظلمون، فلا ينقص من حسناتهم وثوابهم، ولا يزاد في سيئاتهم وعذابهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١، آل عمران: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٤] ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩، الإسراء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، أي: وضرب الله مثلًا لمكة وأهلها المشركين المعاندين ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾، ﴿قَرْيَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾، أي: قرية كانت في غاية الأمن وعدم الخوف ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ ساكنة مستقرة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾، ﴿رَغَدًا﴾ حال، أي: يأتيها رزقها وعطاؤها بفضل الله عز وجل ﴿رَغَدًا﴾ وافرًا هنيئا سهلًا.

﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: من كل مكان من خارجها؛ لأنها لم تكن أرض زرع؛ لأن أرضها صخرية جبلية.

والمعنى: يأتيها رزقها من بقاع الأرض كلها، استجابة لدعاء خليل الله عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فكانت الأرزاق تنهال عليها من كل حدب وصوب، بسبب هذه الدعوات المباركة، وتجبى إليها ثمرات كل شيء، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾، «أَنْعُم»: جمع «نِعْمة» تجمع على «نِعَم» و«أَنْعُم»، أي: فكفرت بنعم الله وجحدت آلاء الله، والتي أعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، وإنزال الوحي عليه، والتي لا تعدلها نعمة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فكفروا بجميع نعم الله تعالى، وبأجلّها وأعظمها وهي بعثة محمد ﷺ فيهم، والتي من كفر بها لا ينفعه الإيمان بغيرها لو آمن، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾ الفاء: عاطفة، تفيد السببية، أي: فأذاقها الله وألبسها بسبب كفرها بأنعم الله ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ عقوبة عاجلة لهم، فبعد أن كانت تجبى إليها ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، دعا ﷺ على أهلها بسبب كفرهم وتكذيبهم ومكابرتهم بالعصيان بقوله: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»(١).

قال ابن كثير(٢): «فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهِز، وهو وبر البعير يجعل بدمه إذا نحروه».

﴿وَٱلْخَوْفِ﴾، أي: وأذاقها الله لباس الخوف، فبعد أن كانت آمنة مطمئنة لا أحد يعرض لأهلها؛ لأنهم أهل الحرم، ويتخطف الناس من حولهم، فبدلوا من بعد أمنهم خوفًا، فسلط الله عليهم رسوله ﷺ والمؤمنين فغزوهم في عقر دارهم وفتحوا مكة، فأسلم منهم من أسلم وقتل منهم من قتل، وانخنس منهم من انخنس وفر هاربًا.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية أو موصولة، أي: بسبب صنعهم، أو بسبب الذي كانوا يصنعونه، أي: الذي كانوا يعملونه، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٠٤، ومسلم في المساجد ٦٧٥، وأبو داود في الصلاة ١٤٤٢، والنسائي في التطبيق ١٠٧٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٤٤ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (تفسيره) ٤/ ٥٢٧.

ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فأبدلهم الله بعد الرزق ورغد العيش جوعًا، وبعد الأمن والاستقرار خوفًا، وهكذا آثار الكفر والمعاصي، فإنها سبب لمحق البركات، وقلة الخيرات، وحلول المجاعات، وفقدان الأمن والاستقرار.

كما أن الإيمان وعمل الصالحات سبب لسعة الرزق ورغد العيش والأمن، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد جاءهم رسول منهم فكذبوه.

والضمير في ﴿جَآءَهُمۡ﴾ يعود إلى كفار مكة ﴿رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ﴾ هو نبينا محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ جملة جواب القسم، أي: فكذبوه بما جاءهم به من الرسالة.

وقد أكدت هذه الجملة للاهتمام بهذا الخبر بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، ولام القسم، و«قد».

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ معطوفة على جملة «كذبوه» ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ في محل نصب حال، أي: وهم ظالمون بما هم عليه من الشرك والكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾.

لما ضرب مثلًا لحال أهل مكة عندما كانوا في أمن واطمئنان تأتيهم الأرزاق رغدًا من كل مكان؛ بسبب كونهم أهل الحرم وسكانه، ثم كفروا بأنعم الله، فسلبهم الله ما هم فيه من النعم، وأبدلهم بذلك جوعًا وخوفًا؛ أتبع ذلك بالامتنان على العباد بالأمر بالأكل مما رزقهم الله من الحلال الطيب، وشكر نعمته؛ لتحقيق عبادتهم له.

قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، «ما»: موصولة، أي: فكلوا من الذي رزقكم الله، أي: من الذي أعطاكم الله من الرزق، والأمر للامتنان والإباحة.

﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ حالان، والحلال: المباح المأذون به شرعًا، وهو يشمل كل ما أوجده الله من المطعومات والمآكل إلا ما دل الدليل على تحريمه لضرره في الدين، أو في البدن والعقل، أو فيها جميعاً.

﴿طَيِّبًا﴾، أي: مستطابًا مستساغًا لذيذًا نافعًا.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الأمر للوجوب، و﴿نِعْمَتَ﴾ مفرد مضاف إلى معرفة وهو لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ فيعم جميع نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى، والتي من أعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، ونعمة الأمن والرزق الحلال الطيب.

وشكر نعمة الله تعالى يكون بالقلب بالاعتراف بها باطنًا، ويكون باللسان بالتحدث بها ظاهرًا، ونسبتها إلى مسديها، وهو الله عز وجل والثناء عليه بها، ويكون بالجوارح باستعمالها وصرفها في طاعة الله تعالى، والاستعانة بها على مرضاته.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما قبله.

﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: إن كنتم تعبدونه وحده لا شريك له؛ فاشكروا نعمته، ولا تكفروها. وقدم المفعول ﴿إِيَّاهُ﴾؛ لإفادة الحصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

امتن الله تعالى على العباد بأمرهم بالأكل من جميع ما رزقهم الله حلالًا طيبًا موجبًا عليهم شكر نعمته، في إشارة إلى أن الأصل في المأكولات الحل، ثم أكد ذلك بحصر المحرم عليهم وبيان قِلَّته، وأنه لا يساوي شيئًا بالنسبة للحلال الطيب، وفي هذا تأكيد للامتنان عليهم، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: ما حرم الله عليكم إلا ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾ الآية.

و﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: التي ماتت من غير ذكاة شرعية، سواء ماتت حتف أنفها، أو

ذكيت ذكاة غير شرعية.

﴿وَٱلدَّمَ﴾، أي: وحرم عليكم الدم، وهو الدم المسفوح الذي يخرج عند الذبح، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾، أي: وحرم عليكم لحم الخنزير، أي: لحمه وشحمه وسائر أجزائه؛ لقذارته وخبثه.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، «ما»: اسم موصول بمعنى «الذي»، مبني في محل نصب معطوف على ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾، أي: وحرم عليكم الذي أهل لغير الله به، أي: الذي ذكر عليه عند ذبحه أو نحره أو صيده اسم غير الله، من أسماء الأصنام والأوثان، وغير ذلك؛ لما فيه من الشرك بالله، كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الآية: ٣]، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الآية: ١٤٥] وقد سبق الكلام عليهما مستوفى في تفسير سورة المائدة، وسورة الأنعام.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ فعل الشرط، أي: أصابته ضرورة ألجأته إلى الأكل من شيء من هذه المحرمات.

﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ حال، أي: حال كونه في أكله منها ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾، أي: غير قاصد الأكل من المحرم، ولا متعمد له من غير ضرورة.

﴿وَلَا عَادٖ﴾، أي: ولا متجاوز ما يدفع الضرورة من سد الرمق، أو الزيادة على ذلك، أي: فلا إثم عليه، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٣].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ جملة تعليلية، أي: فإن الله ذو مغفرة واسعة، وذو رحمة واسعة؛ ولهذا أباح لمن اضطر إلى الأكل من هذه المحرمات من غير بغي ولا

عدوان، كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ٣]، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الآية: ١١٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

امتن عز وجل على العباد بالأمر بالأكل مما رزقهم من الحلال الطيب والذي لا حصر له، وامتن عليهم بكون المحرم محصورًا قليلا، ثم نهى المشركين المكذبين عن التحليل والتحريم من تلقاء أنفسهم افتراءً وكذبًا على الله تعالى.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ اللام في ﴿لِمَا﴾ للتعليل، و«ما»: مصدرية، أي: ولا تقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾.

أو موصولة أي: ولا تقولوا لأجل الذي تصفه ألسنتكم كذبًا ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢].

وقيل اللام في قوله: ﴿لِمَا﴾ بمعنى «عن»، أي: ولا تقولوا عن الذي تصفه ألسنتكم كذبًا: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨]، أي: الذين قالوا عن إخوانهم.

ومعنى الآية: ولا تقولوا بمجرد وصف ألسنتكم الكذب: هذا حلال وهذا حرام، كما في تحريمهم البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

ويدخل في الآية كل من حلل شيئًا مما حرمه الله، أو حرم شيئًا مما أحله الله، أو ابتدع في الدين ما ليس منه.

﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، أي: لتختلقوا على الله الكذب، واللام: لام

العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن تفتروا على الله الكذب، وقال بعضهم: اللام للتعليل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، أي: إن الذين يختلقون على الله الكذب بالتحليل والتحريم ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوب ولا ينجون من مرهوب لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ في الدنيا، أي: قليل من حيث زمنه وكمه، وقليل من حيث كيفه وقدره وقيمته.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا ومعنويا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [يونس: ٦٩- ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

امتن الله عز وجل على هذه الأمة بإحلال الطيبات كلها لهم، وحصر المحرم عليهم في الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والرخصة لهم فيه عند الضرورة، وما في ذلك من التوسعة عليهم؛ حيث يريد الله بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى ما حرمه على اليهود فيما قصه من الآيات، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والضيق بسبب ظلمهم.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾، أي: وعلى اليهود حرمنا الذي قصصنا عليك في الآيات من قبل، أي: في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الآية: ١٤٦].

وفي هذا ما لا يخفى من التضييق عليهم، بسبب بغيهم وظلمهم؛ ولهذا قال في ختام آية الأنعام: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، وقال في هذه الآية:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: وما ظلمناهم في التضييق والتشديد عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: ولكن استحقوا ذلك بسبب ظلمهم بالكفر والشرك؛ وصدهم عن سبيل الله، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، والتحايل على أحكام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي: للذين عملوا العمل السيئ القبيح من الشرك والكفر والمعاصي.

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ الباء للملابسة، أي: بسفه وجهل لعاقبته، وكل من عصى الله فهو جاهل، وكل ذنب عصي الله به فهو جهالة.

﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: ثم رجعوا من بعد عمل السوء، بالإقلاع عن ذلك العمل السيء، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وكون ذلك في وقت التوبة قبل الغرغرة وبلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها، وكون ذلك خالصًا لله تعالى لا رياء، ولا سمعة، ولا خوفًا من أحد، ولا غير ذلك .

﴿وَأَصْلَحُوٓا۟﴾، أي: وأصلحوا عملهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ تأكيد لقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾، أي: إن ربك يا محمد من بعد تلك الجهالة، وعمل السوء بسببها، والتوبة من ذلك.

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام للتوكيد، أي: لذو مغفرة ورحمة، يغفر لهم ويرحمهم، ويغفر لكل من تاب وأناب إليه ويرحمه، برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾.

٢- ابتلاء المؤمنين وامتحانهم بأذية المشركين لهم وتعذيبهم والتضييق عليهم في دينهم، واضطرارهم إلى الهجرة من مكة فرارًا بدينهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾.

٣- أن أعظم فتنة وأشدها الفتنة في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الفتنة في الدين وإيقاع الناس في الشرك.

٤- فضل الهجرة والجهاد والصبر في سبيل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٥- أن الحسنات يذهبن السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٦- وجوب الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وأنه لا يجوز تأخيرها لمن قدر عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

فهذا يدل على أن هؤلاء قد عرّضوا أنفسهم للإثم والعقوبة في تأخيرهم الهجرة مع قدرتهم عليها، لولا توفيق الله لهم للهجرة والجهاد والصبر في سبيل ذلك، فكفر الله عنهم بذلك، وغفر لهم ورحمهم.

٧- انشغال كل نفس يوم القيامة بالمجادلة عن نفسها، فلا أحد يدافع عنها من أب أو ابن أو أخ أو زوج أو غيرهم، ولا هي يهمها غير نفسها، من ولد أو أب أو أم أو قريب أو صديق؛ لشدة الموقف وعظم هول ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي

كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾.

٨- إعطاء كل نفس جزاء عملها وافيًا، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل بدلالة أن الله أضاف التوفية إلى العمل، لا إلى الجزاء.

١٠- كمال عدل الله تعالى في حسابه الخلائق، وأنه لا يُظلم أحد عنده؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١١- ضرب الأمثال في القرآن للتحذير والوعيد، وتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية.

١٢- ضرْب المثل لمكة وأهلها بقرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأبدل الله شبعها جوعًا، وأمنها خوفًا؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم رسولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

١٣- الامتنان على أهل مكة بجعلها بلدًا آمنا مطمئنا، يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان؛ لقوله تعالى: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣، ٤].

١٤- التحذير من الكفر بنعم الله تعالى، وأن ذلك سبب لإبدال الأمن والطمأنينة خوفًا وذلًّا، وإبدال سعة الرزق ورغد العيش جوعًا وفقرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

١٥- أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

١٦- أن الأمن في الأوطان، والرزق الذي تحيا به الأبدان من أعظم النعم على العباد؛ ولهذا امتن الله بهما على أهل الحرم في هذه الآية، وفي مواضع عدة من القرآن.

١٧- إقامة الحجة على أهل مكة ببعثة الرسول ﷺ منهم وإثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾.

بل الحجة عليهم وعلى العرب قاطبة أقوى؛ لكونه منهم وبلسانهم، وهم قومه يفهمون عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

١٨- أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد الإنذار والإعذار وإقامة الحجة عليها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

١٩- استمرار كفار مكة على التكذيب والظلم بالشرك بالله، والأذى للرسول ﷺ وأصحابه، حتى أخذهم العذاب وهم ظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بأمرهم بالأكل مما رزقهم الله حلالًا طيبًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ والأمر للإباحة، وقد يجب إذا خاف الإنسان على نفسه الهلاك جوعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

٢١- أن الأصل في المأكولات والأطعمة الحل؛ من الحيوانات والنباتات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، أي: من كل ما رزقكم الله حلالًا طيبًا.

٢٢- وجوب شكر نعم الله تعالى بنسبتها إليه، والثناء بها عليه، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

٢٣- أن من شرط صحة عبادة الله تعالى شكر نعمه الظاهرة والباطنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٢٤- تحريم أكل الميتة التي لم تذك ذكاة شرعية، والدم المسفوح، ولحم الخنزير وشحمه وسائر أجزائه، وما ذكر عليه اسم غير الله، والامتنان على العباد بكون المحرم محصورًا معدودًا محدودًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

ولا يستثنى من الميتة إلا ميتة السمك والجراد، ولا من الدم إلا الكبد والطحال،

وما يبقى في اللحم والعروق من الدم فهو حلال، للأحاديث الثابتة في ذلك كما تقدم في مطلع تفسير سورة المائدة.

٢٥- أن الحكمة من تحريم هذه المحرمات وغيرها ما فيها من ضرر حسي على الأبدان، كالميتة والدم المسفوح، وما فيها من ضرر معنوي على العقول والأديان، كلحم الخنزير، وما أهل لغير الله به.

٢٦- عناية الشرع بدفع الضرر عن أتباعه، وحفظهم في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ ولهذا حرم عليهم هذه المحرمات؛ لما فيها من الضرر في الدين والبدن والعقل، وغير ذلك.

٢٧- إباحة الأكل من هذه المحرمات وغيرها لمن اضطر إلى ذلك من غير تعمد للأكل من المحرم بلا ضرورة، ولا تجاوز لسد الرمق وما يدفع الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٢٨- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٢٩- النهي عن الكذب على الله بالتحليل والتحريم افتراء على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾.

٣٠- التهديد والوعيد للذين يفترون على الله الكذب بالتحليل والتحريم من دونه، بأنهم لا يفلحون لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن حياتهم مجرد متاع قليل، ولهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾.

٣١- التضييق والتشديد في التحريم على اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ يعني: في قوله في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ الآية [الآية: ١٤٦].

٣٢- أن ما حصل من التضييق عليهم ليس ظلما من الله تعالى لهم؛ لأنه لا يظلم أحدًا، وإنما بسبب ظلمهم، وصدهم عن سبيل الله، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ وقوله في سورة

الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ﴾ [الآية: ١٤٦].

٣٣- ظلم العباد لأنفسهم بالشرك والكفر والمعاصي.

٣٤- سعة مغفرة الله تعالى ورحمته وتوبته على من عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

٣٥- أن كل من عصى الله وعمل السوء فهو جاهل، وكل ذنب عصي الله به فهو جهالة.

٣٦- التحذير من عمل السوء، والترغيب في التوبة وإصلاح العمل لمن حصل منه ذلك.

٣٧- في تأكيد ربوبيته عز وجل الخاصة به ﷺ في الآية إشارة إلى عنايته عز وجل بعباده، وترغيب لهم في التوبة والإصلاح.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، «أمة»: خبر كان، أي: قدوة وإماما في الدين والعلم والخير معلمًا لذلك، داعيًا إليه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

أحيا عليه السلام التوحيد في الأمم بعد اندراسه، وجمع الفضائل وخصال الخير، فكان بذلك أمة وحده، أي: بمثابة أمة، كما قال البحتري:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عد ألف بواحد(١)

وقال الآخر:

والناس ألف منهم كواحد وواحد بالألف إن أمر عنا(٢)

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، ﴿قَانِتًا﴾ خبر ثان لـ ﴿كَانَ﴾ منصوب، أي: مطيعًا لله تعالى خاضعًا خاشعًا له، مداومًا على طاعته، ملازمًا لها، والقنوت دوام الطاعة.

---

(١) انظر: «زهر الآداب وثمر الألباب» (١/ ٣١٨)، «نهاية الأرب» (٣/ ٩٨).

(٢) البيت لابن دريد ضمن مقصورته. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

﴿حَنِيفًا﴾ خبر ثالث منصوب، أي: مخلصًا التوحيد لله، مائلًا عن الشرك منحرفًا عنه، مقبلًا على الله، معرضًا عما سواه، ثابتًا على الحق مجانبًا للباطل.

قال ابن القيم بعدما فسر ﴿حَنِيفًا﴾ بقوله: «مقبلًا على الله معرضًا عما سواه» قال: «ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى، ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠]».

وقال أيضًا: «الحنيف: المقبل على الله، ويلزم على هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف، لا أنه موضوعه لغة». [(١)]

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الجملة في محل رفع معطوفة على ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، وهي تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ بنفي ضده، أي: ولم يكن من المشركين، لا في قول ولا فعل، بل كان إمام الموحدين والحنفاء.

فتضمن قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ الصدق، وتضمن قوله: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الإخلاص، فالصدق: توحيد الطلب، وهو طلب مرضاة الله وجنته، والإخلاص: توحيد المطلوب، وهو إفراده عز وجل بالعبادة دون غيره، والصدق: أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص: أن لا ينقسم مطلوبك[(٢)].

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾، ﴿شَاكِرًا﴾ خبر آخر لـ﴿كَانَ﴾ منصوب، أي: شاكرًا لأنعم الله تعالى عليه بقلبه ولسانه وجوارحه، بالإقرار بها وإضافتها إلى ربه المنعم بها، وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يحب؛ ولهذا امتدحه الله تعالى بقوله في سورة النجم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [الآية: ٣٧]، أي: وفَّى وتمم ما أمر الله به.

وهذه الصفات الأربع التي امتدح الله- عز وجل- بها خليله إبراهيم كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره ودعوة الخلق إليه، وذلك غاية الكمال في

(١) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٦٢؛ ٦٤.
(٢) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٦٢.

العمل وفي العامل.

﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾، أي: اصطفاه واختاره لنبوته، وجعلها في ذريته وعقبه، واختصه بخلته، وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: أرشده ووفقه إلى طريق مستقيم، أي: إلى العلم النافع والعمل الصالح «دين الحنيفية السمحة» بإخلاص التوحيد لله تعالى، واجتناب الشرك، والبراءة منه ومن أهله.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أي: أعطيناه في الدنيا حسنة، بأن جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في كمال الحياة الطيبة، من المتاع الحسن، والصحة في البدن، والسعة في الرزق، والزوجة الكريمة، والذرية الصالحة وغير ذلك، ومن التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، والثناء والذكر الجميل له ولآله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصافات: ١٠٨، ١٠٩].

وشرع لنا عز وجل أن نقول في التشهد في الصلاة: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(١).

وأعظم من ذلك كله وأعم أنه عز وجل أمر نبينا محمدًا ﷺ وأمته باتباع ملته، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: وإنه عليه السلام في الدار الآخرة ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من رب العالمين ورؤية وجهه الكريم والجنان

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧٠، ومسلم في الصلاة ٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ٩٧٦، والنسائي في السهو ١٢٨٧، والترمذي في الصلاة ٤٨٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٠٤، من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

وما فيها من ألوان النعيم، استجابة لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

الذين جمعوا في حياتهم بين الإخلاص لله تعالى، واتباع شرعه وهي الحسنة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

فجمع الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام خيري الدنيا والآخرة، اللذين هما أكمل المطالب وأتمها وأعمها، قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: ثم أوحينا إليك يا محمد، و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الرتبي، قدم عز وجل الثناء على إبراهيم عليه السلام، ثم أمر نبينا محمدًا ﷺ وأمته باتباع ملته، وهو جل المقصود.

﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ﴿أَنِ﴾ تفسيرية، فالجملة تفسير لقوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ والاتِّباع: اقتفاء السير على سير آخر.

﴿حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، «حنيفاً»: حال، أي: حال كونه حنيفًا وما كان من المشركين، وهذا لتأكيد إخلاصه التوحيد لله عز وجل وبراءته من الشرك، براءة تامة في الماضي والحاضر والمستقبل.

أي: اقتفِ وسر على ملة إبراهيم الحنيفية السمحة، في التوحيد وإخلاص العبادة لله

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٨٩، وأبو داود في الصلاة ١٥١٩، وأحمد ٣/ ١٠ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

تعالى، والبراءة من الشرك وأهله، والمداومة على طاعة الله، وعلى خصال الفطرة كلها.

وهكذا كان ﷺ؛ ولهذا أمره الله عز وجل بقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة ﴿جُعِلَ السَّبْتُ﴾، أي: فرض احترامه وتعظيمه وتحريم العمل والصيد فيه.

﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ﴾، أي: على اليهود الذين اختلفوا فيه، حين ضلوا عن يوم الجمعة وهدى الله له هذه الأمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا، ثم يومهم هذا الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد**»(٢).

فصار اختلافهم ومخالفتهم أمر الله سببًا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه وتحريم العمل والصيد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

فاعتدوا واحتالوا فعاقبهم الله ولعنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ﴾ [النساء: ٤٧].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب له ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اللام: للتوكيد ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين الذين اختلفوا في السبت وهم اليهود.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٦ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، و٦/ ١١٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٥.

﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيتبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب، ممن استحق العقاب، بمجازاتهم على اختلافهم ومخالفتهم أمر الله وارتكابهم نهيه، واعتدائهم واحتيالهم.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، أي: استمر واثبت على الدعوة إلى صراط ربك المستقيم ودينه القويم، ولا تأبه بالمكذبين المعاندين، وقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١] وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ الباء: للملابسة، أي: بالعلم والفهم والرفق واللين، والتدرج والتنويع في وسائل الدعوة، والبداءة بالأهم فالأهم، ومعاملة كل بحسب حاله وفهمه وعقله وقبوله وانقياده، وفق ما جاء في الكتاب والسنة.

﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الموعظة: ذكر الأحكام والأوامر والنواهي مقرونة بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، ببيان عظم جزاء المؤمنين في الدنيا والآخرة وشدة عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾، أي: الصائبة الموافقة للكتاب والسنة، المناسبة للحال والمقام.

قال ابن القيم: «أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة؛ إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي، وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان؛ إذ ليس كل موعظة حسنة»(١).

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ المجادلة: المحاجة والمناظرة لبيان الحق.

أي: وجادلهم بالمجادلة التي هي أحسن، أي: بالرفق واللين وحسن الخطاب، والتلطف وأدب الحوار، مع مراعاة الحال والمقام، وبالحجج والبراهين والأدلة الواضحة التي هي أدل على المقصود، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٦٥.

وقد أمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام في دعوتهما لأعتى الخلق فرعون الذى ادعى الربوبية والألوهية؛ بقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

قال ابن القيم: «جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق:

فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة.

والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة.

والمعاند الجاهل يجادل بالتي هي أحسن، وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية، وهذا إن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن؛ ولمجادلته فائدتان: أن يُرد عن باطله، ويرجع إلى الحق، والثانية أن يكف شره وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل».

وقال أيضًا: «وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات التي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين»(١).

وقيد المجادلة بكونها بالتي هي أحسن، كما قيد الموعظة بكونها حسنة، لأن الجدال قد يكون بغير التي هي أحسن، بل جلُّ الجدال من هذا القبيل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي: إن ربك يا محمد هو أعلم بالذي ضل عن سبيله وصراطه المستقيم، وأعلم بالسبب الذي أضله وأرداه، وأعلم بما هو عليه من أنواع الضلالات، وسيحاسبه ويجازيه على ذلك، فلا تباله.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو أعلم بالمهتدين إلى سبيل الله وصراطه المستقيم، وسيجازيهم ويثيبهم.

علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم منَّ عليهم واجتباهم، فهو سبحانه أعلم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٦٤- ٦٦ بتصرف.

بالضالين والمهتدين وأعمال كل منهم، وهو الذي قدر الضلال على من ضل، وقدر الهداية لمن اهتدى، وعلم الشقي من السعيد، وسيجازي كلًّا منهم بما عمل خيرًا كان أو شرًّا.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتثبيت له، أي: فلا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فليس عليك هداهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أمر عز وجل نبيه ﷺ بالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ثم أتبع ذلك بما يدل على أنه إذا لم ينفع في المعاندين الجدال انتقل معهم إلى الجلاد والمعاقبة.

قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، والعقاب والمعاقبة: المؤاخذة بالجرم والذنب والإساءة، أي: وإن اخترتم وأردتم معاقبة من أساء إليكم بقول أو فعل.

﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ﴾ جواب الشرط «إن»، وربط بالفاء؛ لأنه جملة فعلية، أي: فعاقبوا عقوبة بمثل الذي عوقبتم به، أي: بمثل الجرم والاعتداء الذي وقع عليكم، استيفاء لحقكم من غير زيادة على ذلك.

أي: بالعدل في القصاص، والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦].

أي: جزاءً موافقًا لعملهم.

وسُمي الاعتداء والإساءة عقوبة في قوله: ﴿عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ﴾ من باب المشاكلة لقوله قبله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلًا، وقتل من المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربين عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد

اليوم. فنادى منادي رسول الله ﷺ: أمن رسول الله ﷺ الأسود والأبيض، إلا فلانا وفلانا... ناسًا سماهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «**نصبر ولا نعاقب**»[1].

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، واللام في قوله ﴿لَهُوَ﴾ واقعة في جواب القسم.

لئن صبرتم ولم تعاقبوا من أساء واعتدى عليكم، ولم تستوفوا حقكم في الدنيا ﴿لَهُوَ﴾ الضمير «هو» يعود إلى الصبر مصدر «صبرتم»، أي: لهو، أي: الصبر.

﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: أفضل لهم وأولى وأحسن عاقبة من استيفاء الحق في الدنيا وعدم ادخاره لهم في الآخرة، وهو أيضا- أي: الصبر- خير لأهله الصابرين خيرية مطلقة، في دينهم ودنياهم وأخراهم، فأمرهم في أول الآية بالعدل، ثم ندبهم في آخرها إلى الفضل بالصبر.

وأفضل من هذا وأجل، وأعظم وأنبل من يعفو ويُصلح، ويتجاوز ويصفح؛ لينال أجر ذلك وثوابه مضاعفًا من الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، أي: فمن تصدق فعفى عن القصاص.

وفرقٌ بين من يَرِدُ على الخلق ليستوفي حقه منهم عاجلًا أو آجلًا، وبين من يعفو ليأخذ ثوابه وأجره من ربه الجواد الكريم، كاملًا تامًّا وافيا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١]، فما بين هذا وذاك أبعد مما بين المشرق والمغرب، وما بين الثرى والثريا، والأرض والسماء:

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان

نسأل الله التوفيق.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٥، وأخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، سورة النحل ٣١٢٩، والنسائي في الكبرى، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾، ١١٢٧٩، وابن حبان ٤٨٧، والحاكم ٢/ ٣٥٨، ٣٥٩، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ رغب عز وجل الرسول ﷺ والمؤمنين معه بالصبر، وندبهم إليه، ثم أمره ﷺ خاصة بذلك وأكد ذلك بقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ تثبيتًا له وتقوية لقلبه.

﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ومعنى قوله: ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، أي: هو الذي يعينك على الصبر ويوفقك إليه ويثيبك عليه، أي: ما صبرك إلا بعون الله وتوفيقه لك، ولطلب مرضاته وابتغاء وجهه ونيل ثوابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].

قال ابن القيم: «وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل، فقالت طائفة: الصبر له أكمل؛ فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان لله فهو غاية، وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل... فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته؛ ولذلك كان توحيد الألوهية المنُهي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عُبّاد الأصنام مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد الربوبية.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به، والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة، كقوله: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»»(١).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: ولا تحزن على المكذبين من قومك في تكذيبهم ومخالفتهم لك، واختيارهم الشرك والكفر على الإيمان، وما حل، أو قد يحل بهم من العقوبات في الدنيا، وما تُوعِّدوا به من العذاب الأليم في الآخرة؛ لأن الله حكم عليهم بذلك وقدره كونا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٦٧.

تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩].

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٍ﴾ قرأ ابن كثير بكسر الضاد: «في ضِيق»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ضَيۡقٍ﴾، والضيق: الغم والهم.

﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: من مكرهم، أو من الذي يمكرونه، أي: مما يدبرونه من الكيد الخفي والجلي لدعوتك، ومن الأذى لك ولأصحابك، أي: إن مكرهم عائد إليهم، والله معك وكافيك وناصرك ومؤيدك، ومظهرك عليهم، ومظفرك بهم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ تعليل للنهي قبله، أي: إن الله مع الذين اتقوا بفعل ما أمرهم الله به، وترك ما نهاهم عنه.

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى ومتابعة لشرعه، ومحسنون إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

والمراد بالمعية في الآية معية الله الخاصة بأوليائه المتقين وعباده المحسنين، معية التوفيق والعون والنصر والتأييد، والحفظ والتسديد، كما في قوله تعالى ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله تعالى لموسى وهارون عليها السلام: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهما في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

فهو عز وجل مع الذين اتقوا والذين هم محسنون معية خاصة بالتوفيق والحفظ والنصر والتأييد، وهو معهم- كغيرهم من سائر الخلق- معية عامة بالسمع والبصر والعلم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١].

الفوائد والأحكام:

١- فضيلة إبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، وعظم منزلته عند ربه؛ لثناء الله عز وجل عليه، وامتداحه له بكونه قدوة وإمامًا في الدين والخير، مطيعًا لله تعالى على الدوام، مخلصا له التوحيد، مائلًا عن الشرك، بريئا منه ومن أهله، شاكرًا لأنعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾.

٢- إثبات نبوة إبراهيم عليه السلام ورسالته.

٣- أن إبراهيم عليه السلام كان قدوة وإماما في الدين والخير، جمع فضائل ومحاسن أمة كاملة، فكان بذلك أمة وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

٤- مداومته عليه السلام واستمراره على عبادة الله تعالى وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

٥- إخلاصه عليه السلام التوحيد لله تعالى وملازمته له، واجتنابه الشرك وابتعاده عنه، وبراءته منه ومن أهله؛ لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ ولهذا سمي إمام الحنفاء.

٦- شكره عليه السلام لأنعم الله تعالى عليه، بالاعتراف بها ونسبتها إلى ربه والقيام بحقها، والإخلاص لله، والدوام على طاعته، والوفاء بما أمره الله به؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، أي: وفى ما أمره الله تعالى به.

٧- كثرة نعم الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام وعظمها، وأن أجلها وأعظمها اجتباؤه عز وجل له، واصطفاؤه للنبوة، وجعلها في ذريته وعقبه، وتخصيصه بخلته، وهدايته إلى صراطه المستقيم، وأمره عز وجل أفضل الرسل نبينا محمدًا ﷺ وأمته باتباع ملته؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٨- أن نبينا محمد ﷺ بعث بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام، وهي إخلاص التوحيد والعبادة والطاعة لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

٩- إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له ووحيه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٠- أن الرسالة لا تثبت إلا بوحي من الله تعالى إلى من اصطفاه للرسالة من خلقه.

١١- تأكيد إخلاص إبراهيم عليه السلام التوحيد لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٢- فيما أعطاه الله تعالى لإبراهيم من النعم وما اختصه به من الفضائل، وفي ثنائه عليه وامتداحه له إثبات عظيم فضله وواسع عطائه وأنه الشكور لأهل السعي المشكور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

١٣- أن تحريم الصيد في السبت، ووجوب احترامه وتعظيمه وترك العمل فيه إنما جعله الله على اليهود عقوبة لهم بعد أن ضلوا عن يوم الجمعة بسبب اختلافهم فيه ومخالفتهم أمر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

١٤- أن من العقوبات ما يكون في التشريع بالتشديد في التحريم ونحو ذلك على من خالفوا أمر الله وارتكبوا نهيه.

١٥- الوعيد للذين اختلفوا في السبت بأن الله سيحكم بينهم يوم القيامة فيتبين منهم المحق من المبطل، والمستحق منهم للثواب من المستحق للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ.

١٦- أمر الله عز وجل للنبي ﷺ بالاستمرار على الدعوة إلى سبيل ربه وصراطه المستقيم بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والثبات على ذلك، وأن لا يأبه بالمكذبين المعاندين، ولا يثنيه عن دعوته كيد الكائدين ومكر الماكرين، وفي هذا تقوية لقلبه وتثبيت له ﷺ وتسلية؛ لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ وتشريفه بإضافتة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

١٨- أن ما بعث به ﷺ وأرسل هو الدعوة إلى سبيل الله ودينه القويم، وصراطه المستقيم.

١٩- تنويع أساليب الدعوة حسب مراتب الخلق وأحوالهم، فالمستجيب القابل اللبيب الذي لا يعاند الحق يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، والمعاند الجاهل يجادل بالتي هي أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٢٠- ينبغي التدرج في أساليب الدعوة وطرقها، والبداءة بالأسهل فالأسهل، فأولًا: بالحكمة، ثم الموعظة الحسنة، ثم المجادلة بالتي هي أحسن، فإن أصر وعاند الحق ولم يقبله انْتُقِل معه من الجدال إلى الجلاد وآخر الدواء الكي.

٢١- أن الحكمة كلها حسنة؛ لأن وصف الحسن فيها ذاتي، ولهذا لم تقيد بوصف الحسنة، بينما قيدت بذلك الموعظة؛ لأنه ليس كل موعظة حسنة.

٢٢- تسلية الله عز وجل لنبيه ﷺ ببيانه له أنه سبحانه هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين، أي: أعلم بهم جميعًا وبأعمالهم وجزائهم، وهو الذي قدر ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، وفي هذا أيضا وعيد للضالين ووعد للمهتدين.

٢٣- جواز معاقبة من أساء، وأنه يجب على من اختار معاقبة من أساء إليه معاقبته بمقدار إساءته إليه دون زيادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾.

٢٤- الندب إلى الصبر على إساءة من أساء، وأن الصبر وعدم استيفاء الحق في الدنيا خير وأفضل للصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ وهذا إنما يندب في حدود ما يستطيعه الإنسان، ولا يشق عليه، وفي حال ما لم يؤد إلى مفسدة كجرأة المسيء وتكراره الإساءة، ونحو ذلك.

٢٥- فضيلة الصبر، وأنه خير للصابرين، وقد قال ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»[١].

٢٦- أمر الله عز وجل له ﷺ بالصبر بعد أن رغبه هو والمؤمنين به، وندبهم إليه وتأكيده له بقوله: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ والصبر منه ما هو واجب، ومنه ما هو مندوب.

٢٧- أن الصبر لا يكون إلا بعون الله تعالى وتوفيقه، وينبغي ألا يكون إلا لله تعالى، أي: لابتغاء وجه الله تعالى، وطلب مرضاته وثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقال تعالى في سورة الطور: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٤٨].

٢٨- نهي الله عز وجل للنبي ﷺ عن الحزن على تكذيب قومه، وما حل بهم، أو يحل من العقوبات في الدنيا، وما توعدوا به من العذاب في الآخرة؛ لأن ذلك لا يفيد شيئًا؛ ولأن الله حكم بذلك عليهم وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

٢٩- نهيه عز وجل له ﷺ أن يكون في ضيق من مكرهم؛ لأن مكرهم عائد إليهم، والله معه وكافيه وناصره ومؤيده ومظهره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي

(١) سبق تخريجه.

ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

٣٠- إثبات معية الله تعالى الخاصة للمتقين المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

٣١- وعد الله تعالى لرسوله ﷺ وأصحابه أنه معهم بالحفظ والنصر والتأييد؛ لأنه تعالى بعد أن نهاه عن الحزن عليهم، وعن أن يكون في ضيق مما يمكرون أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾. في إشارة واضحة إلى أنه عز وجل معه هو وأصحابه بمعيته الخاصة.

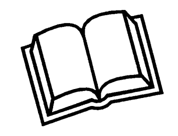
٣٢- الترغيب في التقوى والإحسان؛ لأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

٣٣- عظم مكر المشركين وكيدهم للدعوة، وأذيتهم للرسول ﷺ وأصحابه، وشدة ما وصل به الحال ﷺ؛ لهذا أمره الله تعالى بالصبر، ونهاه عن الحزن عليهم، وعن أن يكون في ضيق مما يمكرون، ووعده هو وأصحابه بأنه معهم بمعيته الخاصة؛ تقوية لقلبه وتثبيتًا له، وللمؤمنين.

* * *

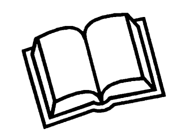
فهرس الموضوعات

* * *



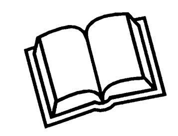
مفكرة





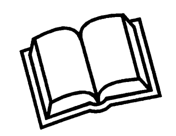
مفكرة





مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

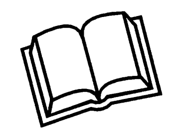
✍

✍

✍

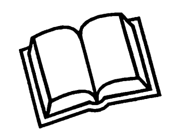
✍

✍



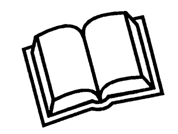
مفكرة





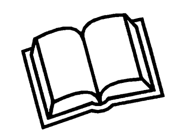
مفكرة





مفكرة



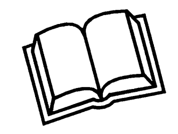


مفكرة





مفكرة



دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958